ESMAEEL ALI SAAD

دكتور
إسماعيل علي سعد
أستاذ علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الإتصال والرأى العام

مبحث فى القوة والايديولوجية

مبحث فى القوة والايديولوجية

١٩٨٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - اسكندرية
ت: ٤٨٣٠١٦٣

الاتصال والرأي العام

بحث في القوة والأيديولوجية

الاتصال والرأى العام

مبحث فى القوة والأيديولوجية

الدكتور
إسماعيل على سعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

الى أســتاذى الدكتـور محمد عـاطف غيث

الــذى يســتلهم جهـدى علمــه وتوجيهــه

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبـائل لتعارفـوا ان اكرمكم عند اللـه أتقاكم »

صدق اللـه العظيم .

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بالرغم من أن مادة هذا البحث ذات صلة وثيقة بما أتصدى لمعالجته في مجال « علم الاجتماع السياسي » فانني لم أكن لأفكر في تناولها هذا التناول المستقل ، لولا حوار دار ، بين استاذي دكتور عاطف غيث وبيني ، والهمني الفكرة • والواقع أنني مدين لهذا الحوار وأمثاله بالوجهة التي اتخذها ويتخذها جهدي •

ولا شك في أن لكل باحث في أي فرع من فروع العلوم الاجتماعية والسياسية ولكل مشتغل في أي من المجالات الاعلامية ، دافعا او آخر الى محاولة استنكاه واحدة من الظواهر الاساسية التي لم تكن لتتأتي للانسان بدونها اسباب اجتماعه وتفاعله وقيام حضارته ، وهي ظاهرة « الاتصال » •

وقد شاءت الظروف أن يكون لي دوافع هؤلاء جميعا • ففي الوقت الذي كنت أوجه كل همي فيه الى البحث في مجالات الاجتماع والسياسة، انيطت بي مهمة العمل كخبير في وزارة الاعلام بالمملكة العربية السعودية. وعهد الى فيما عهد الى به آنذاك ـ عندما كنت أمينا للمؤتمر الاول لاذاعات الدول الاسلامية الذي انعقد في الرياض عام ١٩٧٥ ـ بأن اعد بحثا حول « دعم العلاقات بين أعضاء المؤتمر لتوحيد أهداف العالم الاسلامي » •

وقد اتاح ذلك لجهدي الا ينحصر في نطاق النظرة الفكرية في مجالات اهتمامي الاساسية ، وكان لزاما عليه أن يتعدى ذلك الى الممارسة العملية في اتجاه يتصل في القريب وفي البعيد بهذه المجالات ، على نحو يوسع النظرة ويعمق الخبرة •

وعلى ذلك فقد دار أول بحث لى فى هذه السلسلة حول ظاهرة القوة (١) ومقوماتها ودورها فى تحريك التاريخ ، وهو دور لا يمكن استيعاب أبعاد بمنأى عن ظاهرة الاتصال وما يتعلق بها ، على النحو الذى حاولت بيانه فى نطاق منهج البحث الاول ، وأحاول فى هذا البحث ان الم بجوانبه المتعددة ٠

ولا احسب انه يسع الباحث المتخصص من ناحية ، أو القارىء العام من ناحية أخرى أن يقف على المغزى الحقيقى لما مضى فى أمس حضارته ، أو ما يقع فى يومها ، فضلا عما قد يكون من أمر غدها ، دون ان تتاح له معالجة فكره وفكر غيره من خلال المفاهيم والظواهر والحقائق التى تظهر العلاقة بين اشياء قد تبدو للوهلة الاولى منبتة الصلة بعضها البعض بالرغم من انها تتصل أو تتكامل أو تعكس اوجها تتباين من حيث المظهر لشىء واحد من حيث الجوهر ٠

ويبقى أن ارجو بعد العناء أن أكون قد وفقت الى أن أوفى فيما اقصد اليه على غاية او بعض غاية ٠

ولا يفوتنى ان اذكر بالحب والتقدير الاخوة والزملاء بقسم الاجتماع الذين لمست فيهم تعاونا صادقا ، وأخص بالذكر منهم الزميلين د٠ محمد بيومى ود٠ السيد عبد العاطى ٠ كما أود أن أذكر بالحب كل الحب والتقدير كل التقدير أخى وصديقى الاستاذ محمود آدم الذى كفانى مؤنةالتقديم لهذا البحث، وتعاون معى فى مراجعته بالحوار

---

(١) أنظر : اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، مبحث فى علم الاجتماع السياسى ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ٠

تارة وبقراءة مسائله تارة أخرى ، الى جانب ما امدني به من مراجع كان لابد منها لانجاز هـذا العمـل •

واسأل الله أن يوفقنا الى ما يحبه ويرضاه ؟

اسماعيل سـعد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الاستاذ محمود آدم عمر

يرى اليوت T. S. Eliot ان الشاعر العظيم يتميز ، فيما يتميز به ، لا بقدرته على أن يبرز ما توارى من التراث وحسب ، بل وبقدرته على أن يستجمع ، في ثنايا شعره ، القدر الاكبر من شوارده ·

وقد يقول قائل « ما لنا وهذا في بحث لا يعنى بالشعر او بشيء من قضاياه ؟ » ، ولكن لهـذا البحث من الخصائص ما يرجع بالذاكرة الى نظرة « اليوت » التي تستوحي مسيرة الزمن في ايقاعها الحضاري بين ماض حافل وحاضر ماثل ، فهو يظهرنا على ما يشاء له صاحبه ان يظهرنا عليه من أبعاد العلاقات التي تتصل بها اسباب الحياة ومقوماتها في عمقها واتساعها ، وذلك في تناول يتوخى موضوعية العلم ويستلهم لغة الشعر ·

وقد قرأ صديقي د· اسماعيل علي سعد أصول هذا البحث على القلة من اصحاب الفكر والفن التي تأتلف في محبسي ـ ان كان لي ان استعير واحدا من أبي العلاء ـ فملك عليها عقولها وأفئدتها بدقة النظرة المتأملة التي تتصدى ظواهر الاشياء الى طبائعها واصولها . وبرقة الكلمة المتألقة في ادائها للفكرة في مختلف أبعادها ·

واذا كان لي ، بعد ذلك ، أن اقدم لهذا البحث فحسبي أن اقف منه عند بعض نقاط ، يدور بها ومن حولها التفصيل والتحليل في معالجة شاملة تحدد معالم العلاقة ، التي لم تر من قبل الا مجتزأة ، بين « القوة والايديولوجية والاتصال والرأى العام » ·

ففي حين جمعت « الغريزة » وحدها حيوانا الى حيوان ، تمثل الفارق بين الانسان وما دونه من كائنات في نشاط عقلي متميز مكنه ـ في اتصاله ببيئته ـ من أن يضيف خبرة الى خبرة ويعي فكرة اثر فكرة ، وفي ارتباط « الخبرة » و « الفكرة » تهيأت للانسان في « الكلمة » أداة نشاطه العقلي الفردي ، ووسيلة تفاعله الجمعي ، ثم تمثلت في الكلمة ـ بعد هذه وتلك ـ أو انعكست فيها آثار تفاعل « قوى » الانسان في اجتماعه من ناحية ، وفي تعامله مع الطبيعة من ناحية اخرى ، منذ بدأت له مسيرة .

دارت الحضارة ـ اذن ـ على « خبرة » و « فكرة » و « رمز » ، فائتلفت الجماعات واختلفت ، وتعقدت البناءات وتراكبت في علاقات قوى ، تتوازن في نطاق النسق الواحد من ناحية فتحدد طبيعته وتحفظ كيانه ، أو تختل فيتغير بناء القوة أو ينهار ، وتتوازن مع بقية الانساق من ناحية أخرى فتمضي كنسق مستقل ، أو لا تستطيع هذا التوازن فتتقلب بين التبعية والاحتواء والتلاشي ، على النحو الذي حاولت المعرفة الانسانية أن تسجله في آدابها وفنونها وعلومها في مسيرتها الطويلة من فوضى الهمجية الى اوليجاركية النظام .

واذا كان لنا ان ننظر الى القوة في اطارين أساسيين شاملين ، يضم أحدهما انماطها الفيزيقية ، ويضم الآخر أنماطها الفكرية ـ على وعي منا بالتداخل او التكامل النسبيين بين هذه الانماط المتباينة ـ فمن الممكن ان نقول على وجه العموم ان المحتوى الفيزيقي للقوة يرتبط عادة بحيز لا يتعداه الا اذا اختل التوازن الذي يحدده في مكان أو مجال ، في حين أن المحتوى الفكري للقوة ـ المتمثل في الآراء والافكار

وأنساق الافكار ــ لا يرتبط بحيز محدد ، رغم الضوابط والقيود .

وقد أصبح مجال المحتوى الفيزيقي ، في صراع عالمنا المعاصر ، محدودا على خطره ، بينما أوشك مجال المحتوى الفكرى ، في عصر يهيمن فيه « الاتصال » ووسائله ايما هيمنة ، ان يحيط بالعالم على سعته . ويدل ذلك على أن المحتويين الاساسيين للقوة ــ على ما بينهما من علاقة ضبط متبادل ــ يتناسبان عكسيا من الناحية الوظيفية ، مما يعين على فهم ظواهر ومفاهيم عديدة ترتبط بعصرنا الحاضر : كالحرب الباردة والحروب المحدودة والتعايش السلمى ومنع انتشار السلاح النووى والحد من الاسلحة الاستراتيجية ونزع السلاح والاستعمار الجديد والاحلاف الاقتصادية والغزو الفكرى والتبعية الثقافية وصناعة الرأى وحروب الكلمات والحرب النفسية والقديم والجديد فى سياسات الاستقطاب وميزان القوة ، الى غير ذلك مما يدور فى مصطلح حضارة القرن العشرين .

والنظر الى هذه الظواهر والمفاهيم فى ضوء التنحى الوظيفى النسبى للشق الفيزيقى من القوة لا يصلل لها ويبين العلاقة بينها وحسب ، ولكنه يظهر فى الوقت نفسه التغيير الذى طرأ على دينامية القوة نتيجة لتفاعل انماطها المختلفة (١) على النحو الذى سار بالتاريخ عبر حضارة قامت وحضارة دالت حتى بلغ ما يمكن أن يسمى على التعميم بحضارة القرن العشرين .

ويتلازم مع هذا التنحى الوظيفى ــ اذا ما حصرناه فى نطاق السلاح الحديث ــ عمليات تطوير مستمرة لهذا السلاح وصلت

---

(١) أنظر الفصل الثانى من هذا البحث .

بقدرته الممكنة الى حد يتيح القضاء على الحضارة وكل منجزاتها قضاء كاملا . وهذا التناهي في القدرة يتناسب عكسيا مع امكانية الاستخدام وطرديا مع المدلول الاشاري او الاتصالي للسلاح في علاقة القوة العالمية المعاصرة . ويتجسد ذلك فيما يسمى ب « ميزان الرعب النووي » وما يترتب عليه من آثار اجتماعية وسياسية وسيكولوجية ، وما تذهب اليه الايديولوجيات المهيمنة في عمليات الاتصال التي تستهدف راى الانسان وفكره (١) .

ولا ينطوى التنحي الوظيفي للشق الفيزيقي من القوة ... برد بروز مواز له في الشق الايديولوجي ، ولكنه يحيل الايديولوجيه الى قوة فعالة تنعكس فيها ومن خلالها كل الانماط الاخرى للقوة ، اى ان الايديولوجية تتحول في عصرنا الى سلاح شامل وفعال لا يقف في استهوائه للقلوب واستهدافه للعقول الا عند حد ايديولوجية اخرى . وهذا الحد ليس جغرافيا او قوميا باى معنى من المعاني ، وانما ترسمه في تعقيد شديد ، قدرة سياسات الاتصال على استغلال كل مقومات وجود انسان العصر وكيانه على اختلاف بيئته وتنوع تراثه . وكيف لا وللعصر اوثان وكهان وصوامع ورهبان ، العلوم مسوحهم، والفنون قلانسهم ، والآداب تمائمهم .

ونوجه النظرة الى ما حولنا بان مسيرة التاريخ انتهت بالانسان الى ما يمكن ان يسمى بـ « حضارة القرن العشرين » على تعميم في القول ، كما اشرنا آنفا ، واخذا في الاعتبار بالسمات المشتركة التي اضفتها حصيلة جهد الانسان في مجالات علمه وفنه على وجه الحياة

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا البحث .

في شتى ارجاء هذا الكوكب ، ولكن التغلغل الى ما وراء ظاهر القسمات يظهر ان لهذه الحضارة اصولا ضاربة الجذور في أعماق مختلفة على تباعد أو تدان ٠

ولئن كانت علاقة العصر الموحية باشتراك القسمات قد صاغتها وزخرفتها يد الانسان الصانع في تدريبه وتفننه بالغا بحضارته ما بلغته في جانبها المادي ، فان الاصول التي تقسم العالم الى شرق وغرب ، وتفرق ابناءه بين انماط حضارية شتى ، ترتبط في الاساس بفكر الانسان في الثوابت الغالب وصوابه الأصل ٠ وليس ثمة شك في أن النظرة الى ما يسود الفكر المعاصر من اضطراب وصراع توحي بأن الانسان لم يستطع في قيادته وانقياده أن يقيل عثار عقله في ردبه بين نزعاته ، وبأن التقدم الحثيث في الجانب المادي لم يكن من شأنه الا أن يعمق الهوة بين الانسان والانسان ٠

تلك ، اذن ، هي حال العالم المعاصر في انقسام قواه المهيمنة وايديولوجياته التي توظف « الاتصال » أشمل وأتم توظيف ٠ ولست أدري الى متى نقف ذاهلين في هذه الحرب العوان لنسأل : « أي الفريقين خير مقاما واحسن نديا » ؟ وواقعنا التاريخي ، الذي طال طينا لصفحته واغفالنا لعبرته خير شاهد على أن لدين القيمة ، أصولا اعتقادية تقيم الايمان على سواء الحجة في العقل والوجدان ، واحكاما تشريعية تهيىء السبل المثلى لاجتماع الانسان ،على اختلاف المكان أو الزمان ، وتتكامل هذه الاصول وتلك الاحكام لتناغم بين ما يعتمل داخل الانسان في انفراده وما تقتضيه دواعي اجتماعه ، فتقر النفوس بلا قلق أو اغتراب ، وتتسق الجهود في غير ما خلل أو اضطراب ،

ويستطيع الانسان أن يمضى فى بناء حضارته واثرائها فى كل مستوياتها (١) .

ويبقى بعد هذا العرض اللاهث أن اشير الى أن البحث تناول هذه الجوانب جميعا فى تعددها وتعقدها بالتحليل والتعليل ، فى موضوعية تتوخى منطق الاشياء ، تبين الظواهر وحدد المفاهيم ، واستطاع بمنهج دؤوب - يجيل النظرة متعمقة فى القديم ، ويطيلها متأملة فى الجديد - أن يرد الفروع والنهايات الى الاصول والمقدمات . وتتيح لنا مادة هذا البحث ومنهجه ، بذلك أن نلم بالكثير الذى يعمق نظرتنا الى الواقع الذى يحيانا ، ولا أقول الذى نحياه .

ولى بعد ذلك وقبله ، ان اقف عند الأداة اللغوية التى استطاعت فى اقتدار أن تضع مادة الفكر حيث ينبغى لها أن توضع . وصديقى د. اسماعيل على سعد ، فى اكتمال مادته واقتدار أداته ، باحث شاعر ، أو هو شاعر باحث ، اذ أن للكلمة عندى كشأنها فى « الاتصال » - المحل الاول .

محمود آدم عمر

(١) أنظر الفصل الثامن من هذا البحث .

الفصل الأول

الاتصـــال

- تمهيـــد .
- اللغـة والاتصـال .
- مفهوم الاتصـال .
- تكنيكات الاتصـال .

تمهيـــد :

ان عمليـة الاتصال (١) بين البشر عملية أساسية نحس ونفهـم من خـلالها بيئتنا بما فيهـا من أناس ونضفى عليها وعليهم معـانى معينة ، ويتأتى تبعا لذلك أن نكون قادرين على التعامل معهـم أى نؤثر فيهم أو نتأثر بهم . وليس ثمة سبيل الى هـذا التأثر او ذاك التأثير سـوى عن طريق هـذه العمليـة الاسـاسية : الاتصـال Communication(٢) .

ولا شك فى أن الفـرد سواء وعى ذلك او لم يعـه يشكل دائما المحـور الاسـاسى الذى يدور من حوله وبوساطته كل ما يتم فى المجتمع الانسانى من عمليات اتصالية . ولقد يخيل لبعض النـاس انهم يدركون بالفطـرة المعنى اللغوى نقصده حـين نستخدم كلمة « اتصـال » . وقد يخيل لهـم أيضا أن جميع النـاس متفقون بوعى وبغـير وعى على مدلولات ثابتة للمفاهيم التى يتصورون أنها ثابتـة الدلالـة . على حين أن المعرفة الانسانية تنمو دائما وأن خبرات الافـراد تتعدل كلما مضى بهـم العمر نتيجـة لعمليات الاتصال .

بيـد أنه من الواضح أن الناس يختلفون فى المشـارب وتذهب ميولهم وأذواقهـم مذاهب شتى . نتبينها الى حد مـا اذا ما استحضرنا فى الذاكرة امورا بسـيطة كاختـلاف الكتب والصحف التى نقرأهـا ، فضـلا عن اختلاف برامج الاذاعة المسموعة او المرئيـة التى نفضلها ،

---

(١) أنظر مفهوم الاتصال فى : معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامـة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، صفحات ٨ ــ ٩ .

(2) Brent D. Ruben & Richard W. Budd. Human communication. New Jersey. 1975. P. 1 seq.

وكذلك الاندية أو الجماعات والروابط التي ننتمي اليها ، الى غير ذلك من الامور التي تظهر ما بين الناس من فوارق وتفاوت على مستويات الحياة والفكر .

هذا فيما يتعلق بما نسميه الاشياء العادية في الحياة اليومية . والذى من الواضح أن آراءنا وأذواقنا تتغير وتتبدل حيالها نتيجة للكثير من عمليات الاتصال . ويتضح اذن أننا من خلال عمليات الاتصال الشخصي نكتسب ونغير من طريقتنا في الاختيار ، وأننا نصل ما بين المعلومات التي نحصل عليها عن عالمنا ونقوم بتصنيفها . ولا شك أن أوجه الاختلاف فيما نختار تعكس اختلافات أساسية في الطريقة التي نحس بها الخبرات ونلاحظ ونقسم ونفسر ونقيم الاوجه المختلفة للبيئة التي نحيا فيها (١) .

وليس من الصعب أن نلاحظ أن هناك اختلافات كبيرة بين الاشخاص في الطريقة التي ينظرون بها الى الاشياء والناس في البيئة التي يعيشون فيها ، وكذلك في ضروب الافتراضات والتوقعات التي يرونها حيال بعضهم البعض . والمشكلة تكمن هنا في أنه يخيل لنا أننا نعي حقائق الاشياء من الناحية النظرية بسهولة ، ثم نتبين عند تطبيق ما نرى على الواقع أن الامر بالغ الصعوبة . والمثال البسيط الدال على ذلك هو مبلغ ما نحس به من صدمة حين نتبين أن صديقا لنا أو واحدا ممن نعرف اعتقد أننا نعني شيئا ما على حين اننا نعرف يقينا أننا نعني شيئا آخر يختلف تماما عما تصوره هذا الصديق . وكثيرا ما نتصرف على أساس أن فهمنا أو تفسيرنا للامور هو الفهم أو التفسير

(1) Ibid., p. 2.

الصحيح · وبقدر ما نكون عرضة للوقوع في هذا الخطأ في التصور نكون ولا شك في حالة استغلاق أو عدم استجابة للمحرضات stimuli التي تصدر عن الآخرين بقصد جعلنا نعيد النظر او نصحح مفاهيمنا أو تفسيراتنا ـ اي جعلنا نغير من مواقفنا · ويتضح من هذا أننا لا نستطيع من جانبنا أن نحقق الغرض من العمليات الاتصالية ما لم نضع في اعتبارنا أولئك المتلقين Recepients الذين نوجه اليهم وسائلنا الاتصالية · ولا يمكن أن نحس اداء الاتصال اللهم الا ما يتأتى على نحو عشوائي ، دون أن نعي ونقدر مدى استجابة هؤلاء المتلقين ·

مفهوم الاتصال :

ولعلنا نستبين من الاستهلال السابق ان « **الاتصال بمعناه العام والبسيط يقوم على نقل او استقاء او تبادل المعلومات بين أطراف مؤثرة ومتأثرة ـ مصادر ومتلقين على التخصيص أو التعميم ـ على نحو يقصد به ويترتب عليه تغيير في المواقف او السلوك** » · اى ان اكثر العمليات الاتصالية قدرة على تحقيق الغرض منها هي تلك التي تربط بين المحرضات (أى الاشارات أو الرموز الاتصالية التي تهدف الى احداث الاثر) كما وكيفا ، وبين قابلية المتلقي ونزوعه على ما في الانسان من جنوح الاهواء والتمركز حول الذات ·

ولكي نكتشف الابعاد التي يمكن ان يعطيها التعريف السالف الذي وضعناه ، سنحاول أن نقارنه ببعض التعاريف الاخرى التي اهتدى اليها الباحثون خلال محاولاتهم اضفاء معنى معينا على كلمة « الاتصال » بالشكل الذي يتسق مع مدلوله كظاهرة من اهم الظواهر الاجتماعية ، او بالاحرى كظاهرة يمكن أن يندرج تحتها كل الانشطة التي يمارسها

الانسان في حياته . وسنحاول قدر الطاقة أن نجعل تناولنا هـذا في الحدود التي لا تجاوز كثيرا ما ينبغي للدارس أن يقف عنده في محاولته الاولى للتعرف على مبادة هـذا الموضوع .

لقد عرف S. S. Stevens الاتصال على أنه : « استجابة الكائن الحي المميزة ازاء معرض » ، ويرى Gary Cronkhite أن هذا التعريف مقتضب ، وأنه على اقتضابه من السعة بحيث يغطي انشطة الكائنات الحية ، وليس الانسان فحسب ، واكتفى « كرونكت » بأن يحصر مفهوم الاتصال في نطاق الانسان اذ قال : « ان الاتصال بين البشر يتم عندما يستجيب الانسان لرمز ما » (١) .

ونتبين من هـذا التعريف أن الاتصـال لا يعتبر اتصالا الا اذا اقترن بالنجاح . وفي رأينـا أن النجـاح أمـر نسبي قد يتحقق جزئيـا أو كليـا على نحـو يسهم فيـه عاملان محددان هما طبيعة الانسان ومدى ثقافته . ونحن وان كنـا قد أشرنا الى هـذا النجاح ونسبته في التعريف الذي وضعناه الا انـه لم يفتنـا فـي الشق الاول من هـذا التعريف العملية التي يدور حولهـا الاتصال وهي القصد منه . وحتى يسهل فهم التعريف الذي وضعنـاه نشير الى العناصر التي تنطوي عليهـا عمليـة الاتصـال ـ كما أوردهـا كرونكت ـ وهي :

١ ـ ان الاتصال الانساني يعتمد على الرموز .

٢ ـ سواء أكانت على هيئة كلمات أو غير ذلك .

---

(١) انظر :
Gary Cronkhite, Communication and Awareness, California, 1976, pp. 20 — 21

٣ ـ أحدثت بقصد أو بغير قصد .

٤ ـ بوساطة مصدر على وعي أو على غير وعي بما يعمل ،

٥ ـ وتلك الرموز تحدث استجابة لدى المتلقى ،

٦ ـ بعضها قد يكون ظاهرا وبعضها قد يكون خفيا ،

٧ ـ وبعضها قد يكون مقصودا وبعضها قد يكون غير مقصود ،

٨ ـ وقد تكون هذه الاستجابات أو قد لا تكون على مستوى عال من الوعي،

٩ ـ وقد تكافىء ، أو قد لا تكافىء ، قصد المصدر ،

١٠ـ أو قد تكون فى الحقيقة استجابة من الشخص لرمز أحدثه هو بنفسه .

ولقد فصلنا المضامين العشرة السالفة التى تنطوى عليها المحاولة الاولية لتعريف الاتصال على نحو يعكس تقريبا كل الجوانب الاساسية فى الاتصال وبذلك نكون قد عرضنا أساسا نظريا مجردا يعين على استكناه المفهوم .

وذلك لا يعنينا فى حد ذاته . وانما القصد أن نتدرج منه الى النظر من خلال منظور شامل إلى العملية الاجتماعية او السياسية او العملية الاجتماعية السياسية التى تدور حولها مجموعة العلوم الاجتماعية عامة وعلم السياسة بوجه خاص .

فعملية الاتصال ـ من الناحية التاريخية والسياسية ـ قامت عليها الجماعة الانسانية الاولى التى خطى الانسان بوساطتها أولى خطواته على درب الحضارة الطويل . فكان الاتصال فى الجماعة الاولى وسيلة الانسان فى اشباع احتياجاته المباشرة قبل أن يكون له فكر يدخل فى نطاق الايديولوجيات ، وقبل أن يتعقد المجتمع على نحو يجعل

ادارته تقوم على أساس تحقيق توازن في علاقة قوة أو علاقة قوى . ثم قطع الانسان أشواطا ابعد في طريق الحضارة ، وكبرت الجماعة الانسانية وارتبطت على أسس تطورت به من القبيلة الى القوم ، ثم الى الدولة التى تقوم على أساس ايديولوجي . ويمكن القول في بساطة أن كل ذلك ما كان يتأتى دون مركبات بالغة التعقيد من عمليات الاتصال على مستويات شتى .

ومن الناحية الايديولوجية ، نلاحظ أن فكر الانسان ، وهو الفارق الاساسى بينه وبين مختلف الكائنات ، بدأ بالملاحظة المباشرة لما يدور حوله ، وذلك في رأينا نوع من الاتصال وانتهى عبر حلقات متصلة من التطور والتعقيد الى أنساق أفكار بالغة التركيب يسميها الانسان بالايديولوجيات أو علوم الفكر . ونلاحظ أيضا أن كل ذلك لم يكن ليتأتى الا عبر مركبات معقدة من عمليات الاتصال .

اللغـــة والاتصال :

يتطلب بناء أية جماعة انسانية بوحداتهـا وتقسيماتها المختلفة ، فضلا عن تشكيل المفاهيم التى تسود في هذه الجماعة ، ضروبا مختلفة من الاتصال . واذا كنا نتناول الجماعة الانسانية عادة كما لو كانت بناء ثابتا ونقوم بتعريفها على نحو تقليدي ، فانها ولا شك تختلف عن ذلك تماما ، اذ أنهـا تتكون من نسيج معقد يقوم على تبادل المفاهيم بشكل جزئي او كلي بين أعضاء الجماعات الداخلة في تكوينها على تباين في حجومها وأهميتها ، وقد تكون هذه الجماعة مجرد فتى وفتاة أو أسرة او مجموعة من الامم أو حتى الانسانية في مجموعها ، أو على وجه

المسموم ـ ذلك الانسان الذى تستطيع « الكلمة » مقروءة أو مسموعة أن تبلغه ٠

وقد تبدو الجماعة الانسانية فى الظاهر كما لو كانت مجرد مجموعة ثابتة من النظم الاجتماعية ، فى حين انها تتحرك وتتغير يوما اثر يوم بفضل عمليات اتصال مستمرة تتم بين الافراد الذين تتكون منهم هذه النظم

وعلى هذا فلا يمكننا القول ـ على سبيل المثال ـ بأن حزبا بعينه يمكن أن يوصف نشاطه على نحو معين وثابت فى كل وقت ، ويستبين ذلك اذا أخذنا فى الاعتبار أن مجموعة من أعضائه لا يتجاوز عددها أصابع اليدين قد تجتمع ذات يوم ليتبادل افرادها الرأى حول النقاط أو المسائل ذات الاهمية القومية فى فكرة معينة ، ثم يقررون فيما بينهم تناول بعض هذه النقاط فى التجمعات الاكبر للحزب ٠ ومن ثم فان السياسة العامة لاى حزب لا تنبنى فى نهاية الامر الا على حصيلة مجموعات الآراء التى يتناولها عادة أفراد قلائل فيما بينهم على مستوى يوشك أن يكون فرديا (١) ٠ وذلك لا يعنى بالطبع أن الحزب فى مجموعه لا يقوم على أساس مشترك يراعى مصالح معينة ٠

---

(١) يعنينا فى هذا المقام أن نلفت نظر القارىء الى دراسة (روبرت ميشلز) القيمة عن الاحزاب السياسية ، أنظر ٠

Robert Michels, political parties, A sociological study of the oligarchical tendencies of Modern Democracy, N. Y., The free Press, 1962.

وباستطاعتنا توسيع دائرة صفة المثال الى كل مجالات النشاط الهامة والتي يكون للاتصال مكان فيها ، ويترتب على ذلك أن كل نمط ثقافي وكل سلوك اجتماعي انما ينطوي على اتصال ضمني أو ظاهر . كما أننا نستطيع أن نفرق بين التكتيكات الاساسية (أي العمليات الاولية) ذات الطابع الاتصالي ، وبين التكتيكات الثانوية التي تسهل عملية الاتصال . وقد لا يكون لهذه النظرة اهمية نفسية وان كان لها مغزى تاريخي وسوسيولوجي ، اذ ان العمليات الاساسية أو الاولية شائعة بين البشرية بأسرها، في حين أن العمليات الثانوية لا تظهر الا في المستويات الحضارية الاكثر تقدما .

وتعتبر كل من اللغة والاشارة من أهم العمليات الاتصالية الاولية في المجتمع ، من حيث تقليد السلوك الظاهر ، فضلا عن مجموعة كبيرة من العمليات الضمنية التي لا يمكن تعريفها تعريفا دقيقا والتي تترتب على السلوك الواضح أو الظاهر والتي يمكننا الاشارة اليها على أنها ايحاءات اجتماعية . واللغة هي أوضح أنماط السلوك الاتصالي ، ولا نحتاج الى تعريفها هنا الا على أنها : **تتكون في كل الحالات المعروفة لنا من اداة كاملة للتعبير بالرموز الصوتية التي تتميز بالقدرة على تحديد كل المضامين الاجتماعية المعروفة والتي تشتمل على كل ما يدرك عن طريق الحس** ، أي كل الخبرات التي اكتسبها المجتمع عبر تاريخه .

فاللغة على هذا هي محور الاتصال الاول في كل المجتمعات سواء اكانت هذه المجتمعات لا تزال في اطوارها الاولى أم قطعت أشواطا بعيدة على طريق الحضارة .

والاشارات أو الايحاءات لا تنطوى على مجـرد تحريك الايدى او أعضاء الجسم الاخرى فحسب • اذ أن تنغيم الصوت عند اداء الجمل قد يعبر عن المواقف والمشاعر بنفس القـدر الذى قد تعبر عنه اشارة مرئيـة كالتلويح بقبضة اليد أو تحريك الاكتاف أو تقطيب الجبين •

ومع أن نطاق الايحاءات يتداخل مع نطاق اللغـة ، فان هنـاك حدودا معينـة ولكنها ثابتـة بينهما • ولنعطى مثـلا واحـدا على ذلك نشـير الى الفارق فى المدلول بين مضمون الكلمات التى نعبر بهـا عن قصد معين وبين مضمون الاشارات التى قد تصحب هـذه الكلمات وقد نعنى بهـا أشياء اخرى فى الوقت نفسـه تتناقض مع مضمون الكلمات • وقد تكون الكلمات فى هـذه الحالة معبـرة عما نريد اظهاره ، على حين تصدر الايحاءات على الرغم منـا •

« والاتصال اللغـوى بالمقارنة مع التعبير بالايحاءات هو الشكل الرسـمى الذى يقره المجتمع ، ومن هنـا نستطيع ان نفسر بالفطرة رموز الإيحاءات غير الواعية نسبيا على أنهـا ذات مغـزى نفسى يفوق فى سياق معين مغزى الكلمات المستخدمة فى حد ذاتها • وفى مثل هذه الحالات يكون هنـاك صراع بين الاتصالات الظاهرة والخفية فى نمـو الخبرات الاجتماعية للافـراد » (١) •

---

(١) أنظر اللغـة والاتصال فى :

The Encyclopaedia Britannica, U. S. A. Vol. 4, 1977, pp. 1005 — 1015; The Encyclopaedia of the Social Sciences, The Mac-millan Com. Vol. 1919, pp. 78 — 80; International Encyclopaedia of social Sciences N.Y. Vol. 3, 1968, pp. 24-28.

والشرط الاول لترابط المجتمع هو تقليد السلوك الظاهر · وهـذا التقليـد ، بالرغم من انعـدام قصد الاتصال فيه ، لـه القيمـة التى ينطوى عليهـا الاتصال ، اذ أنه فى عمليـة الاتساق مع طرق المجتمع يوافق الفـرد بالفعـل على المعانى التى تنطـوى عليهـا هـذه الطرق · فاذا ما تعلم الفرد ـ على سبيل المثـال ـ الذهاب الى المسجد محتذيا فى ذلك حذو افـراد المجتمع الآخرين ، فالامر يبـدو كما لو ان اتصالا قد حدث ثم انبنى عليه تصرف او سلوك · ووظيفة اللغـة فى مثل هـذه الحالات هى بيـان ومنطقة المحتوى الكامل لهـذه الاتصالات غير الرسمية فى نمـو خبرات الفـرد الاجتماعية ·

أما الايحاءات الاجتماعية الاجتماعية فلهـا طابع اتصالى اقل من السلوك الظاهـر وتقليده ، اذ أنهـا محصلة اعمال فردية ومعـان جديدة أصبحت ممكنـة ضمنا نتيجـة لهـذه الانماط من السلوك الاجتماعى · وعلى هـذا فان تعود بعض النـاس على عدم الذهاب الى المسجد فى بعض المجتمعات ، والذى يبدو متناقضـا مع القيـم التقليدية الموروثة لهـذه المجتمعات ، يمكن ارجاعه فى الوقت نفسه الى مـا نسميه بالايحـاءات الاجتماعية المترتبـة على سلوك بعض افـراد هـذه المجتمعات ·

واهميـة الاتصالات التى لا تبـدو كصيغ من صيغ المجتمع او التى لا يعبر عنهـا لغويا من الاهميـة بمكان ، بحيث ان الفـرد الغريب عن هـذا المجتمع قد يحار فى فهـم بعض ضروب السلوك حتى وان كان على دراية تامة بأشكالها الخارجية ، وبالرموز اللغوية التى تصاحب هـذه الانماط من السلوك · ويلفت ذلك نظرنـا الى أنـه من وظائف الفن فى

المجتمع أن يجلو مثل هذه المقاصد الخفيـة في السلوك الاجتماعي (١) ٠

ان عمليات الاتصال لا تنطبق على المجتمع بهـذا المفهوم فحسب ، لانهـا تتنوع تنوعا غير محدود فيما يتعلق بالشكل والمضمون ، بالنسبة للانماط المتباينـة للعلاقات الشخصية التي يقوم عليها المجتمع ٠ وهكذا فان اي نمط من الانماط الثابتـة للسلوك او الرمز اللغـوي لا يمكن ان يكون له باي حـال المغـزى الاتصالي نفسه في نطاق الاسرة وبين اعضاء اية جماعة من جماعات المجتمع او في الامة على سمتها ٠

وعلى وجه العموم ، فانـه كلما صغـر نطـاق الجماعة وتعقدت المفاهيم السائدة بين افرادها ، كلما امكن ان يكون حجـم عملية الاتصال اقـل ٠ فكلمة واحـدة يتبادلها اعضـاء جماعـة وثيقـة الصلة ببعضها البعض ، بالرغـم من الغموض الظاهـري لهـذه الكلمة قد تنطـوي على اتصال يفوق في دقته كمـا كبيرا من الرسائل المتبادلة التي أعدت بعناية بين دولتين على سبيل المثـال ٠

تكنيكات الاتصـال :

وهناك ثلاثة انـواع من تكنيكات الاتصـال تشترك في تسهيل عمليات الاتصـال الاوليـة للمجتمع وهي :

١ ـ الوسـائل اللغـوية ٠
٢ ـ الرموز التي تعبـر عن مواقف تكنيكية بعينها ٠
٣ ـ خلق أحوال فيزيقية تلائم عملية الاتصـال ٠

وأحسن الامثلـة المعروفة للوسائل اللغوية هي الكتابة ومصطلحات

---

(١) أنظر : بدر الدين أبو غازي ، الفن في عالمنا ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، صفحات ٧ و ٨ ٠

« مورس » التلغرافيــة مثــال أخــر لهذه الوسائل اللغوية ، وتشترك هاتان الوسيلتان اللغويتــان بالرغــم من أنهما لا تتشابهان مع بعضهما البعض من الناحيــة الظاهرية ، في ان تنظيمهما يقوم على أساس التنظيم الرمزي الاولى ، الذي نشــأ في نطــاق الكلام ·ولذلك فانهما من الناحية النفسية يوسعان دائرة الطابع الاتصــالى للكــلام بحيث يشمل مواقف يستحيل فيهــا الكلام لسبب او لآخــر ·

وفي ظروف أخــرى يلجــأ الي استخدام اشــارات كالاشــارات الضوئيــة في السكك الحديدية او النفــير في الجيوش وما الى ذلك . وجدير بالملاحظــة هنــا أن هــذه الوسائل وان كانت ظهرت في مراحــل حضارية متقدمة الا انها أقــل تعقيــدا بكثير من وسائل التعبير اللغوى . وقيمتها في أنهــا تستخدم في مواقف يستحيل فيهــا أستخدام وسائل التعبير اللغــوي أو يكون مطلوبا فيهــا أستثارة الاســتجابة التلقائية للاتصــال ·

ويأتي بعد ذلك الــدور الوسيط الذي تلعبه وســائل المواصلات العصرية التي يبالغ الكتاب في اضفــاء الاهميــة على الادوار التي تقوم بهــا ، ومن هــذه الوسائل القطــار والطائــرة والمسرة ومــا الى ذلك · فهي في حــد ذاتها لا تمثــل قيما اتصالية ذات مدلــول ، وانمــا تكون بمثابة الناقلات التي يتهيــأ من خلالهــا تسهيل نقــل وسائل الاتصال · والفــارق واضح تماما بينها وبين اللغــة من ناحية وبين الرمــوز التي يضفي عليهــا الانسان قيما تعبيرية معينــة مثــل اشــارات الاضــواء أو أصوات النفير التي أسلفنا ذكرها ، من ناحية أخرى · وتنحصر قيمة هــذه الوسائل في أنها وسعت دائرة الاتصــال مــن نطــاق الجماعــة

او المجتمع الصغير الى دائرة العالم باسره • وذلك ولا شك له مغزاه في نقل الخصائص الحضارية وتوسيع دوائر المجالات الثقافية •

وتبقى اللغة بعد ذلك كله ومع وسائل النشر المتقدمة في حضارتنا المعاصرة هي اقوى واهم وسيلة اتصال ، وهي من الاهمية والاثر بحيث يستحيل حصر الدور الذي لعبته وتلعبه في تقدم البشرية •

ان تعدد وتنوع الوسائل التي أصبح الاتصال ممكنا بوساطتها في العصر الحديث ينطوي على أمرين هامين :

فمن الناحية النفسية يمكن القول بان العالم كله تحول الى مجال نفسي أشبه بالمجال الاول الذي نشأ فيه المجتمع الانساني أي القبيلة • ومن الناحية الجغرافية اصبحت أطراف الارض المتباعدة متدانية الى حد يمكن أن نلحظ فيه أن بعض البلدان المتباعدة ارتبطت حضاريا على نحو قد لا يتهيأ لبلدان متجاورة يرى من وجهة النظر التاريخية انها قد ترتبط في وجه أو آخر من اوجه التراث الإنساني • وذلك يعني انه ينبغي ان ننظر الى العالم او نعيد رسم خرطة على اساس اجتماعي ونفسي • وذلك يعني أن الكيان العلمي المتبعثر في ارجاء العالم المختلفة يمكن النظر اليه على أساس أنه وحدة واحدة بالرغم من أنه لا يقع في نطاق جغرافي واحد (١) • وينطوي ذلك ايضا على أنه في المدى البعيد

---

(١) ولنا أن نلاحظ هنا أن وحدة هذا الكيان أوشكت ان تكون ملازمة لمسيرة البشرية عبر القرون ، ولم تبدأ عوامل التفتت تعتريها الا في الحقب المتأخرة نتيجة للصراع الحاد بين الايديولوجيات ، التي تحاول أن تضفي كل منها على نفسها هالات تنأى بها عن الايديولوجيات الاخرى من ناحية ، ونتيجة للقيود التي يحاول

لابد وان تختلف مفاهيم الاتصـال الشخصى والطبقى والمجتمعى . هذا ويدفع العالم بمعيـار حضـارى او ثقافى ثمن السهولة التى استطاع تحقيقها فى مجالات الاتصـال ، اذ أصبح من المتعـذر التحكم فى أثر الاتصال وضبطه فى نطاق الدائرة المقصود احداث هـذا الاثر فيها .

ومن ناحية أخرى قد يكون لذلك آثار سلبية فى المجالات الواسـعة للآداب والفنون اذا ما عمد بعض المشتغلين فيهـا الى الاستجابة للرغبات الواسعة هنـا وهنـاك . وقد يكون لذلك ايضا اثره البالغ الذى يترتب على عمليات الاعلام التى يقصد بهـا احداث آثار معينة فى مجتمعات قد تناهض انماط الفكر التى تطرحها مجتمعات أخرى ، ممـا حدا أو يحدو بالانسان الى أن يستنبط وسائل جديدة لعرقلة الاتصال على المستويات المحلية والمستويات الاكثر اتساعا . وقد نرى ضروبا لذلك فى الرقابة التى تفرض على الكلمة المطبوعة سـواء أكانت كتابا او صحيفـة او غير ذلك ، وكذلك نظم التشويش الاذاعى .

ولعلنـا نستخلص ممـا أسلفناه أن اللغـات القومية سوف تتعرض لمخاطـر شديدة فى المـدى الطويل . فهناك فى العالم العديد من اللغات وقد ادى ذلك الى بذل جهـد كبير فى مجالات الترجمة لتسهيل عمليات الاتصال على مختلف المستويات محلية وعالميـة . وقد تضطر البشرية الى

الانسـان تبعـا لذلك أن يفرضها على ما يتيحـه له الاتصـال فى العصر الحديث من فرص من ناحية أخرى ، كما سيتبين من سياق هذا البحث .

ان تتخـذ لغـة واحدة على نطـاق المجتمع العـالمي بأسـره كالانجليزية او « الاسبرانتو » (١) مثلا كقناة اتصالية لتبادل الافكار • وأثر ذلك على التراث القومي للشعوب وعلى الآداب بوجـه خـاص سيكون ولا شك سـلبيا للغاية •

---

(١) أنظـر : الملحق الاول في الملاحق الخرجيـة •

الفصل الثاني

بناء القوة في المجتمع والاتصال

- تمهيد .
- (أ) مفهوم القوة وبناؤها .
- (ب) تعريف القوة .
- (ج) القوة والاتصال .
- (د) التلازم بين القوة والاتصال .
- التأثير المتبادل بين الأيديولوجية والاتصال .
- خلاصة .

تمهيـــد :

ان الموضوع الرئيسي الذى يدور حوله هـذا البحث هو الاتصال والرأى العـام . والصلة العضوية بينهما واثرها فـي بنـاء القـوة فى المجتمع . وبالرغم من أنه يحق لنـا أن نفترض ان دارس هذه الصفحات له دراية أو بعض درايـة باساسيات **علم الاجتماع السياسى** ، الا اننـا نرى أنه من المفيـد أن نعرض في اقتضاب للمفهـوم الاسـاسى للقـوة وبنائها فى المجتمع ، ونرجو أن نستميح علماء الاجتماع عذرا فى أننـا لم نقـل « المفهـوم الاساسى لبنـاء المجتمع » .اذ أن ذلك فـى نظرنـا لا يعدو أن يكون ظاهرة مترتبـة على وجود القـوة وعلاقاتها وممارستها التى يقوم على أساسها المجتمع .

وقيامنا بهـذا العرض المقتضب يستمد أهميته من ضرورة ابـراز التكامل بين أشياء ثلاثة تقيـم النظـرة العـابرة فواصل عديـدة بين بعضهـا البعض . وتبـدى النظـرة المتعمقـة ما بينهـا مـن ارتبـاط قد يصل بهـا الى نطـاق التداخل والاتحاد ، وهذه الاشياء الثلاثة هى :

القـوة والاتصـال والرأى العـام .

مفهـوم القوة وبناؤهـا (*) :

ان مطلب القـوة ـ من الناحية النفسية وعبر التاريـخ ـ يمثـل دافعـا داخليـا للانسان . فالقـوة تكمن فـي الرغبة فى حفظ الذات . وتتطلب هـذه الرغبـة مـن أجـل بلوغ مـا تريـد ارضـاء الحاجات

(*) أنظر المناقشة والعرض التفصيلى لهـذا الموضوع فى د. اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ، الفصل الثانى والرابع .

الهيدرونية الى اقصى حد ممكن وانقاص الحرمان الى أقصى حد ممكن . والانا عند الانسان لا يتطلب مجرد المحافظة عليه ، ولكنه يريد أيضا أن يؤكد ذاته عن طريق التاثير والسيطرة على الآخرين ، وبذلك يشبع النزوع الاناني للمكانة الآمرة والاحترام واعتراف الآخرين به (١). ويؤكد « هبز » ، هذا المعنى في قوله « ففي المقام الاول أضع في صورة ميل أو نزوع عام يعم البشرية ، رغبة دائمة وقلقة في احتياز القوة بعد القوة ، على نحو لا ينقطع الا عند الموت ... لان الانسان لا يستطيع التأكد من القوة والموارد اللازمة ليعيش عيشا حسنا دون احتياز المزيد » (٢) . والتاريخ الانساني كله مصداق لهذا النزوع بشكل أو آخر . فاذا ما تناولنا – على سبيل المثال – ما يسمى في المصطلح التاريخي بالنظام القديم Old Regime نجد أنه عندما آذنت القرون الوسطى بانتهاء ، حلت حكومات قومية يرأسها ملوك محل حكومات النظام الاقطاعي المحلية الصغيرة . ولقد عمل الملوك على زيادة قوتهم بالتدريج ، اذ أنهم كانوا باديء الامر ضعفاء غير آمنين ، وذلك عندما قويت الحكومات القومية وازداد ضعف النبلاء وقل نفوذهم .

وقد أدى نمو القوة القومية والملكية في باديء الأمر الى تحقيق

---

(١) أنظر :

V. P. Varma, political Philosophy, India : Agra, 1970, p. 410.

(٢) اليان ج . ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٧٢ . ص ١٣٥ .

أمن وعدالة وفرصة أكبر للمواطن العادي . الذي أسعده أن يتحرر من مظالم النبلاء / غير أن هذا الاتجاه بولغ فيه . فقد أصبح بعض الملوك أقوى مما يجب ـ حكاما مطلقين غير مسئولين أمام أحد ، بل اعتقدوا بالفعل أنهم يتلقون سلطانهم من الله ، مباشرة ، وأنه كان من الخطيئة أن يناقش أي من رعاياهم أفعالهم وأهواءهم ، وعرف هذا المبدأ . بالحق الالهي للملوك . ومن ثم فقد ساد الاعتقاد بأنه يجب أن يطاع الحاكم لانه اختير بوساطة السلطة الالهية ، فطاعة الحاكم ان هي الا طاعة للقوانين الالهية ، ووجد هؤلاء الذين يعضدون الحق الالهي للملوك حجتهم في « العهد الجديد » الذي ينص على أنه :

« لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لانه ليس سلطان الا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله . حتى ان من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لانفسهم دينونة »(١).

ولقد مرت معظم البلدان بفترة خضعت فيها لاعداد متتالية من الملوك أو الحكام المطلقين ، الذين كان يعينهم فيها النبلاء الوصوليون المتزلفون والوزراء الطامحون ، ورجال الدين المتعاونون الذين كانوا يرغبون في أن يعطوا العون الديني في مقابل مساعدة الملك لهم (٢) . ويشار في العادة الى هذه الجماعة المحكمة الصلة وذات القوة على أنها تشكل بناء القوة Power structure في المجتمع ، الذي يمكن أن

---

(١) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، رسالة بولس الرسول الى أهل رومية ، الاصحاح الثالث عشر ، الآيات ١ ــ ٢ .

(2) John van D. Southworth, The Story of the World, N.Y. Pocket Books. Inc. 1954. P. 257.

يتباين من مجتمع الى آخر ومن جيل الى جيل آخر عبر التاريخ · فبنـاء القـوة يتعرض على الدوام لتغـير مستمر ، قد يكون من اسبابه هزات أو اضطرابات تحدث في قاعدة البنـاء · وينتج هذا التغير في معظم الاحيـان ، كما تدل الشواهد التاريخية ، على عمليات اجتماعية تكون سببا مباشرا أو غير مباشر في تغير الظروف والاحوال التي تمكن فئـة أو جماعة أو طبقة اجتماعية معينـة من السيطرة على الآخرين أو على باقي الجماعات داخـل المجتمع · وقـد تكـون هـذه العمليـة اقتصادية أو تكنولوجية أو ثقافية أو احـدى العمليـات الاجتماعية التي تؤثر على بنـاء القوة في المجتمع · ونلاحظ فـي هـذا أن كل هـذه التغييرات لا يمكن أن تنتقل الى الواقع الفعلي الا من خـلال مركب بالغ التعقيد من عمليات الاتصال التي قد تنبثق في باديء الامر اما عن احتكار للسلطة أو تعبر على ردود أفعـال تحدث بالتراكم أثرها الذي يتمثل في وجـه أو في آخـر من وجـوه التغيير على مستوياته المختلفة ·

ولمـا كان التاريخ هو وعـاء الخبرة البشرية فهو يعتبر السجل الخـاص بالجهـود البشرية أو هو المحاولـة التي تستهدف الاجابة على الاسئلة التي تتعلق بجهـود البشرية في الماضي وتستشف منها جهـود المستقبل - والتاريخ بهذا المعنى يتحول الى علم له أصولـه · حيث أن العلم هو الكشف عن طبيعة الاشياء ثم تصنيفهـا وتبويبهـا واصدار الاحكام عليهـا ·

ولمـا كان التاريخ كفرع من فـروع العلوم يتطلب البحث عـن التفاصيل فانه يتطلب ايضا توسـيع الرؤيـة بحيث يستطيع الباحث أو المؤرخ أن يرى النقاط المحورية التي يدور حولهـا تطـور البناءات الاجتماعية أو بمعنى أدق تطور بناءات القوة في المجتمع ·

ولكن ما هو بناء القوة ؟

هناك شبه اتفاق بين علماء الاجتماع السياسي على أن بناء القوة هو : « **ذلك النمط الذي يتوزع به النفوذ بين الاشخاص والنظم والتنظيمات والافكار داخل المجتمع** » (١) ٠ والقوة تمثل في حقيقتها ظاهرة عامة في المجتمعات الانسانية ٠ وهي تقع في جميع القطاعات النظامية وغير النظامية داخل المجتمع ٠ فهي توجد كامنة في الروابط والمجتمع غير النظامي ولا تتحول الى قوة نظامية وسلطة الا في التنظيم الرسمي ٠

أما القوة في التنظيم غير الرسمي فهي تصدر عن او تعتمد على المكانة الاجتماعية ٠ اذ يتفاعل الافراد في هذا السياق وفقا للمفاهيم المرتبطة بالمكانة التي يشغلونها ، فضلا عن ذلك التفاعل الشخصي فيما بينهم ٠ واذا ما تداخلت الادوار التي يلعبونها تنشأ الجماعات الفرعية التي قد تمارس ضغوطا غير منظورة على التنظيم وعلى المصاير التي يمكن أن يتولد عنها بناء أعلى للسلطة ٠ وتظل هذه السلطة عرضة للتغير مهما بلغت درجة متانتها وقوتها ٠ والقوة تظهر في الروابط على شكلين : أولهما تنظيمي كسلطة يمارسها التنظيم الرسمي ، وثانيهما غير تنظيمي وهي قوة الروابط غير الرسمية ٠ هذا ويتوقف قيام بل واستمرار النظام الاساسي في المجتمع على القدر الذى يتاح له من القوة ٠ فالقوة هي الاساس الذي يقوم عليه بناء الرابطة ٠ وبدونها يتعذر على النظام ان يقوم ، هذا فضلا عن ان السلطة لا يمكن ان تقوم

---

(1) J. duuer (ed.) Ditionary of political science, London : Vision Press, 1965, P. 423

دون أن تمارس القــوة ممثلة في الاجبــار كجزاء نهائي عند الاقتضاء ٠

تعريف القـــوة :

ان مشكلة تعريف القـوة كانت دائما مـادة قـام ويقـوم عليها الكثير من الجهـد العلمي المرتبط بمحاولات بحث العلـوم الاجتماعية بعامة وعلمي السياســة والاجتمـاع السياسي بخاصــة ٠ ولقد شـغلنا البحث فـي اسـتكناه الحقائق المتصلة بمفهـوم القـوة ردحـا طويـلا استعرضـنا فيــه في بحث سابق لنـا (١) شتى جوانب التطـور التى ارتبطت بهـذا المفهوم عبر التجربة الانسانية الممتـدة من اقـدم العصور وحتى يومنـا هـذا ، وقد يحق لنـا ان نتصور اننـا استطعنافي نهاية الامـر أن نستخلص مفهوما عاما حاولنا أن نضع فيه خلاصة ذلك كله في تعريف نحسبه يلم بخصائص هـذا الجوهـر (القـوة) الذى تغلغل في النسيج الحضـاري الذي ينعكس فيــه الجهـد الانساني على هيئـة نظـم وأنساق كائنـة ما قـد تكون أوصافهـا في مصنفات المعـارف الانسانية بأسرها وليس في مجموعة العلوم الاجتماعية وحسب ٠

وهذا التعريف هو : أن القوة ((**هـي محصلة الاشـكال المختلفة للقـوى التي تعمل وتتفاعل داخـل النسق الاجتماعي ، على ما قد يكون فيهـا من تجاذب أو تضاد والتي ترسم في النهاية وتحدد الشكل والمسار اللذين يتخذهمـا النسق الاجتماعـي السياسـي ، اى القـوة المؤثرة (الفعالة) في المجتمع)) ٠ او هي القوة السياسية اذا كانت هـذه القوة تعني ادارة شئون المجتمع بشتى مناحيها ٠**

---

(١) أنظر : اسماعيل علي سعد ، نظرية القوة ، مرجع سابق ٠

وليس من الممكن بالطبع فهم هذا التعريف بطريقة مباشرة ودون استعراض شامل لعلاقات القوة التي تعكس دينامية الحياة الانسانية على النحو الذي فصلناه في بحثنا المشار اليه ٠

القوة والاتصال

وقد أدت بنا محاولتنا لاستكناه حقائق القوة الى ملاحظة الارتباط العضوى الثابت بينها وبين ما يتعارف عليه الان « بالاتصال » اذ من الواضح أنه من غير الممكن فهم أيهما (اى كل من القوة والاتصال) بمنأى عن الآخر ٠ ويتضح من النظرة الدارسة أن القوة والاتصال يوجدان معا فى كل العلاقات المجتمعية : فهما يوجدان فى الوحدات الداخلة فى تكوين المجتمع ٠ كما يوجدان بين هذه الوحدات والوحدة الفوقية Supra — Unit ، وكذلك بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين ما دونها من طبقات يقوم المجتمع على حركتها ٠

وينصرف اهتمامنا الاساسي فى هذه الحالة الى العلاقة الاخيرة (أى العلاقة بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين الطبقات التى تليهما) ٠ اذ أن القوة والاتصال فى هذه العلاقة المركبة ، هما عاملا التنفيذ الرئيسيان اللذين يتحقق من خلالهما نقل اشارات مراكز الضبط الى الوحدات التى تقوم بأداء الوظائف الاجتماعية ، والتى تعكس استجابات هذه الوحدات بحيث يتهيأ للمراكز الضابطة أن تقيم وتعدل من مواقفها على نحو يبقى على التوازن فى علاقات القوة بالمجتمع ٠ فالشبكات التنظيمية وتشكيل الاتفاق ان هى فى حقيقتها الا نظم تتمثل فيها القوة وقنوات الاتصال فى آن واحد ٠

وما انتهينا اليه في الفقـرة السـابقة قد لا يروق بعض الباحثين ، ولذلك فانه ينبغي علينا أن نناقش باقتضاب بعض مـا يثـيره أصحاب النظريات الطوعيـة والجمعية في تصورهـم لنظـام ارشـاد مجتمعي يقوم على الاتصال دون مؤازرة القوة · وهذه المقولة تجعلنا نطرح سؤالا عن **ماهية العلاقة بين القوة والاتصال** (١) ·

---

(١) حـاول الباحثون دائما ، فيمـا يتعلق بالعلاقة بـين القـوة والاتصـال ، أن يستشفوا طبيعـة أو ماهيـة هـذه العلاقة ، ونلاحظ على وجه العمـوم أن جهـود الباحثين انصرفت الى تنـاول بعض جوانب هـذه العلاقـة على نحـو أدى الى اخفـاء بعضها الآخـر ، كما هـي الحـال في محاولة (بوكلي) القيمة لتعريف القـوة على أنهـا : شـكل نوعـي لتيـار الاتصال · وقد سبق أن تناولنـا هـذه المحاولة في كتابنا (نظرية القوة) على النحـو التالي الذي نحب أن نورده هنـا على سبيل الايضاح : (···· نظريـة الانسـاق كمـا رسـمها W. Buckley فـي كتابـه علم الاجتمـاع ونظريـة النسـق الحديثة . تقتـرح طريقـة يمكن أن يعاد فهم القـوة على أساسها ، وهي النظر الى القوة على أنهـا : شكل نوعي لتيار الاتصـال · ويعطينا (بوكلي) نموذجـا سيبرنطيقيا Cyberanetic وليس نظاميـا أو آليـا للنسق الاجتماعـي · فالمجتمع يضم نسـقا من الميكانيزمات والكيانات والانساق الفرعية السوسيوثقافية المتصلة ، يربطهما ببعضهما البعض تيارات الطاقة والاعـلام الفيزيقية وعلى مستوى النسق الاجتماعي والثقافـي ، وتكون المكونات الفيزيقية والطاقة للتيـار Flow ذات أهمية هامشية وحسب ، يكون النسق في الغالب الاعم مرتبطا ببعضه البعض عن طريق تبادل المعلومات الذى يوجد عند المستويات النظامية وتضم تيارات الاعلام هذه علاقة بين مجموعات متنوعة البنـاء ·

وبهـذه اللغـة السيبرنطيقية يمكن تعريف القوة ــ في أعم مستوى ــ على أنهـا : « ذلك النمط من تيـار الاعلام الذى يرمز الى سلوك غير متعلق

لقد كانت هناك محاولات جادة ومتكررة في مجالات العلوم

==

بارضاء الذات بالنسبة للمتلقي » • ومعنى العبارة الاولى من التعريف واضح ، اذ أنه يتبع مباشرة في نموذج (بوكلي) السيبرنطيقي للعمليات الاجتماعية • ولكن المصطلح المقتضب الذى يوحي بالاخلاقيات – في غير زمانها – (السلوك غير المتعلق بارضاء الذات) ، يتطلب شيئا من التوسع وهذا المصطلح يقصد به اخراج نمطين معينين من أنماط السلوك من التعريف ، حيث يكون مفهوم القوة غير وارد •

١ – السلوك المطلوب لاشباع الحاجات البيولوجية والفسيولوجية العصبية •

٢ – السلوك العضوى أو المقيد الذى يظهر فائضا للفوائد على التكاليف •

وسبب استبعاد القسم الاول من السلوك واضح : اذ أن السلوك المطلوب لاشباع مثل هذه الحاجات يتولد ذاتيا • أما سبب استبعاد القسم الثاني هو أن الجماعات والافراد سوف تسعى الى تحقيق نوع من التوازن على الاقل بين التكاليف والفوائد في علاقاتهم بالجماعات والافراد الآخرين• والسلوك الذى ينجح في فعل ذلك عن طريق سلوك الاشارة عند (التفاعل) لن يكون نتيجة علاقة قوة ، ويكون مفهوم القوة غير وارد بالقدر الذى يكون فيه الاذعان ناتجا عن الحسابات والمنفعة سواء أكان ذلك فعليا أو مفترضا • والسلوك خارج نطاق هذين القسمين يشكل للوهلة الاولى دليلا على وجود علاقة قوة •

أولا : انه يوضح أن القوة خاصية لعلاقة وليست للافراد الداخلين في هذه العلاقة : فالقوة طريقة نوعية للاتصال أى اشارة • ولكن :

ثانيا : لا يكون للاشارة معنى الا في اطار مدلولات للفاعلين في موقف – أى مرسل ومتلقي الاشارة أو تيار الاعلام •

==

الاجتماعية والسياسية للاستغناء عن مفهوم القوة ، واستعراضنا لكتابات هؤلاء الباحثين لا يوحي من وجهة نظرنا بأن مفهوم القوة غائب او يمكن أن يكون غائبا ، ولكن الواضح انهم عمدوا الى اجتنابه أو استبعاده ضمنا ، وحاولوا التركيز بدلا منه على الاتصال ٠

نورد كمثال على ذلك ما يقوله K. W. Deutsch وهو من أبرز علماء السياسة المعاصرين : « ان الضبط ، في حقيقته ، ينطوى على نقل الرسائل Messages ، وفهم عمليات الضبط ان هو الا فرع من هندسة الاتصال ، وليس من هندسة القوة » (١) ٠

ومن ثم فانه ينظر الى الحكم على أنه شبكة من الاتصال او نسيج متغلغل من الاعصاب وتقوم هذه الشبكة بحمل الاشارات من مراكز الضبط المختلفة الى الوحدات التى تقوم بالاداء ، ثم تعيد الرسائل منها الى مراكز الضبط ٠ وتختلف هذه الشبكات فى وضوح رسائلها وفى درجة التشويش التي تعتور عملية الاتصال ٠ ولكن اذا ما وصلت

ثالثا : تكون مدلولات الاشارة من جانب الخاضع [illegible] أن التحديد الذى يخضع له سلوكه المفيد لذاته ، هو الذى يرمز الى وجود علاقة قوة ٠

وذلك يعنى أن سلوك الطرف المتلقى فى العلاقة ينبنى على المدلول الذى يربطه أو يخرج به هو من الاشارة التى ينقلها اليه تيار الاعلام والتى تجعل سلوكه (أى سلوك المتلقى) يتخذ شكلا معينا بحسب قيمة مدلول الاشارة عنده وأثره فيه ٠

(1) Deutsch, communication theory and Political Integration, in Jacob and Toscano, the integration of political communities, N. Y. wiley & sons, P. 49.

الرسائل الملائمة الى الملتقى الملائم ، وفهمت بوضوح ، فالمتوقع أن تحدث هذه الرسائل الفعل الملائم ، وذلك ليس عن طريق قوتها ولكن عن طريق التغيير الذى تحدثه فى نمط معلومات المتلقى ، وهذه العملية تشبه ، ادخال المفتاح الملائم فى الثقب الملائم ، فالمهم عندنا ليس ذلك القدر من القوة الذى يستخدم لادارة المفتاح ، ولكن المهم استخدام المفتاح الملائم ، وكم التغيير الناجم فى هذه الحالة ، لا يتناسب مع قوة الاشارة التى غالبا ما تكون شديدة الضعف • ويتضح من ذلك أن قوة الرصاصة المنطلقة لا تتناسب بالضرورة مع القوة التى نضغط بها على الزناد (١) •

وعلى النقيض من ذلك فان العلماء الذين يقومون بتحليل القوة يفترضون أنه لاحداث الاثر لابد من استخدام القوة حتى نقلل المقاومة ، وان درجة الفعل أو احداث الاثر تتاثر بشكل كبير بدرجة القوة المستخدمة ، اذ أن القدر القليل من القوة لا يحدث الا قدرا قليلا من الاثر ، ان لم تكن المقاومة منخفضة أو منعدمة بالفعل •

ومع أن ضرب المثل بعملية اطلاق الرصاص يبدو مقنعا ، فان القدر القليل من القوة الذى يستخدم فى الضغط على الزناد لا يفسر قوة الرصاصة فى تغلبها على قوة الجاذبية والاحتكاك بالهواء • فما الضغط على الزناد فى هذه الحال الا بمثابة نقل رسالة ، لا تتجاوز الامر باطلاق النار فى تلك اللحظة • أما العامل الحاسم فيما يتعلق بقوة اندفاع الرصاصة يتمثل فى كمية البارود المخزونة فى غلاف الرصاصة ، وتقتصر مهمة الزناد على مجرد الاطلاق ••

ودعنا نضرب مثلا يجلو اللبس الذى ينطوى عليه منطق هؤلاء

---

(١) أنظر :
Amitai Etzioni, The Active Society, N.Y. 1972, Ch. 13.

الباحثين الذين يعمدون الى التركيز الكامل على الاتصال واهمال القوة ٠ فاننـا اذا ما افترضنا ان حكومة ما اصدرت أمرها الى أحد قوادها بأن يغزو منطقة معينة ، فاننـا نجد ان الباحثين المعنيين بالتركيز على الاتصال دون غيره من العوامل ، لا يتناولون بالبحث الا الامر الذى تصدره تلك الحكومة الى قائدها ، وما اذا كانت الاشارة (الامـر) قد تلقاها هذا القائـد واضحـة أو غامضة ، أو تلقى اشارات متضاربة فى آن ٠ ثم يقف هؤلاء الباحثين عند ذلك ، على اساس أن شيئا ما لن يحدث أى ان آية قـوة لن تمارس ، متجاهلين بذلك الشق الاهم وهو : ماذا يحدث اذا تلقى القائد الاشارة واضحة ؟

وهنـا نستطيع القول أن قدرة القائـد على الفعـل لا تنبنى على مجـرد الاشارة التى تلقاها ، اذ أن هـذه القدرة تحددها الادوات المتاحة له ، مثـل عدد القوات التى تحت امرته ، وقدرتـه على تحريك هـذه القوات وتحويل هـذه الاعداد الى قـوة فعـالة ، فبدون هـذه القوات تكون قدرة القائد على الاستجابة للاشـارة (الامـر) لا تعدو قـدرة الرصاصة على الانطلاق اذا انعدم وجود البارود فى غلافها ٠ والامـر الفعـال فى استجابة القائد للاشارة هو فهمه للقـوة التى سيمارسها عليه مركز الاشـارة اذا لم يستجب للامـر ٠

ونحن لا نقلل بذلك من أهمية الاتصال بأى حـال ، اذ أنه ولا شك يؤثر فى الفعـل ، ولا بـد من دراسة العوامـل المختلفة التى تتحكم فى انسياب **الاتصال** ذهابا وجيئة ، اذا كان لنـا ان نفهـم ديناميات الفعل المجتمعى ٠

ومن المفيـد أن نلاحظ أيضا أن القدر الذى يستخدم من الطاقة

ونحن نرى أن القرار فى هذه الحالة لا ينطوى على اتخاذ نوعين مختلفين من القرارات ، وانما على نوع واحد يحدد الاشارات التى تستهدف احداث الاثر ، وينطوى فى الوقت نفسه على نوع القوة المؤازرة لهذه الاشارة وان جاء هذا فى معظم الاحوال ضمنيا بالنسبة للمتلقى .

وهذا الامر فى حد ذاته يدل على التلازم الوثيق بين الاتصال والقوة أو بالاحرى القوة والاتصال .

ومع ذلك فانه يلاحظ فى كل حال أن الطبقات العليا تستحوذ على قدر من أرصدة القوة العسكرية يتناسب فى الكم مع عدد الاشارات التى يمكن لهذه الطبقات أن تصدرها . اذ أن هناك ولا شك العديد من الاشارات التى تلقى استجابات تلقائية لدى الفاعلين أو لدى الجموع نتيجة للخلفية التاريخية العامة والمعتقدات التى تسود فى مجتمع معين .

ر

ومع ذلك فانه لا يلاحظ فى كل حال أن الطبقات العليا تستحوذ على قدر من أرصدة القوة العسكرية يتناسب فى الكم مع عدد أو نوع الاشارات التى يمكن لهذه الطبقات أن تصدرها . اذ أن هناك ولا شك العديد من الاشارات التى تلقى استجابات تلقائية لدى الفاعلين أو لدى الجموع نتيجة للخلفية التاريخية العامة والمعتقدات التى تسود فى مجتمع معين . وهذا يعنى أن المصدر يستطيع أن يهيىء لنفسه ويستفيد بقدر من القوة الممكنة يضيفه الى القوة الفعلية المتاحة له اذا استطاع أن يأخذ فى اعتباره ويحسب على وجه الدقة أبعاد الخلفيات والمعتقدات السائدة بين المتلقين .

وليس ذلك فحسب ، اذ من الملاحظ أيضا أن الطبقة العليا تستطيع ان تصدر اشارات تتطلب قدرا من القوة لمؤازرتها قد لا يكون متاحا لها عند اصدار هذه الاشارات • وهذه الحقيقة التي قد تبدو بسيطة يمكن ان يعلل بها للثورات الشعبية التي قد تقوم على حين غرة عندما تبالغ الطبقة العليا في تقييم مدى فعالية الارصدة المتاحة لها من القوة ، او عندما تكون على دراية بهذه الارصدة ولكنها تعمد الى خداع متلقي الاشارات (جموع الشعب) بايهامهم بقدرتها على ممارسة القدر الكافي من القوة لاجبارهم على الاستجابة عند الضرورة •

واذا شئنا ان نضرب مثلا ثانيا يتصل بالواقع السياسي المعاصر ويبين ما قد تنطوي عليه اشارة ما من عناصر قوة يمكن تحريكها واستخدامها على نحو يفيد المصدر ويمكن أن تتعدى آثارها النطاق المحلي وتلعب دورها في نطاق او نطاقات أخرى ، فاننا نشير الى ما أعلن في الثامن والعشرين من آكتوبر ١٩٧٨ من أن مجلس الوزراء الاسرائيلي اتخذ قرارا بتوسيع وتكثيف المستوطنات الاسرائيليه المقامة على الضفة الغربية لنهر الاردن ، وذلك في الوقت الذي تجرى فيه في واشنطن المفاوضات بين مصر واسرائيل لصياغة اتفاقية للسلام بين البلدين على الاسس التي توصل اليها في محادثات Camp David ، والتي استهدف الرئيس « أنور السادات » أن يهيىء من خلالها السبل التي لا تؤدي الى عقد صلح بين مصر واسرائيل فحسب ، بل والى اتاحة الفرصة للحل الشامل للمشكلة العربية الاسرائيلية والمشكلة الفلسطينية بكل جوانبها - وذلك من خلال ما يترتب على الاطارين المعروفين بمقررات Camp David ، واللذين تصر مصر على أن التقدم في المفاوضات بشأن أيهما يرتبط بالتقدم في المفاوضات بشأن الاخرى . ولذلك فان الادارة

الامريكية تسعى سعيها فى سبيل ايضاح ما ينطوى عليه الاطار الاول (الخاص بالضفة الغربية وقطاع غزة) للملك حسين وفلسطينى الضفة الغربية حتى يقوموا بدورهم • ومن ما تؤكده الادارة الامريكية اتساقا مع الموقف المصرى أن المستوطنات الاسرائيلية على الضفة الغربية ستجمد خلال فترة المفاوضات وبعدها وأن القدس الشرقية جزء من الضفة الغربية ، وبينما تقوم الادارة الامريكية بذلك يصدر مجلس الوزراء الاسرائيلى قرار توسيع المستوطنات الذى أشرنا اليه مما ادى الى شروع مصر فى سحب مفاوضيها من واشنطن من ناحية والى تعثر جهود الادارة الامريكية مع الملك حسين وفلسطينى الضفة الغربية من ناحية أخرى ، مما حدا بالرئيس الامريكى أن يوجه رسالة شديدة اللهجة الى رئيس الوزراء الاسرائيلى . الذى وجد فى سياق الاحداث الحالية فرصة تمكنه من السرد على نحو وصفه المتحدث باسم الحكومة الاسرائيلية بأنه يتناسب شدة مع المذكرة الامريكية • وبالرغم من أن نص هذا الرد لم ينشر حتى كتابة هذه السطور . الا أن المعلقين العالميين يرون أنه ما كان يتأتى لاسرائيل أن تتخذ قرار توسيع المستوطنات كرد فعل للمساعى الامريكية فى الضفة الغربية ما لم تكن تعلم أن بحوزتها قدرا من القوة تستطيع به مؤازرة قرارها وتتمثل هذه القوة فى أن انتخابات نصف المدة Mid-term Elections الامريكية قد أصبحت وشيكة (١) وأن موقف

---

(١) تصادف هذه الانتخابات منتصف فترة رئاسة الرئيس كارتر . وجرت فى السابع من نوفمبر ١٩٧٨ وتم خلالها انتخابات كل أعضاء مجلس النواب وخمسة وثلاثين شيخا (أى ثلث اعضاء مجلس الشيوخ الذى يبلغ عدد أعضائه مائة) وستة وثلاثين من حكام الولايات (عدد حكام هذه الولايات ٥٠ حاكما) وعدد لا حصر له من المسئولين على المستوى المحلى ومستوى الولاية •

الرئيس الامريكي كارتر ازاء التصرف الاسرائيلي سيتقيد ولا شك بالرغبة في تهيئة فرص النجاح لمرشحي الحزب الديمقراطي التي تلعب أصوات الناخبين اليهود دورا مؤثرا فيها ٠

فالواضح في هذه الحالة أن المصدر لم يعط اشارته الا بعد حساب دقيق للقوة الممكنة Potential Power التي يسعه أن يحيلها الى قوة فعالة ٠ والامر بالغ الدلالة هنا أن نلاحظ كيف يتأتى لقوة خارجية أن تمارس ضغطا على الادارة في دولة لا يمكن القول بأنها تفوقها قوة فحسب ، اذ لا وجه للمقارنة على الاطلاق بين القوتين ، ولكن الرابطة الايديولوجية بين اسرائيل ويهود امريكا تخلق من هؤلاء جماعات ضغط بالغة التأثير في تشكيل الرأى العام الامريكي وتسيير السياسة الأمريكية على نحو يتوافق مع المصالح الاسرائيلية ٠

ويتجلى من هذا المثال الرابطة الوثيقة بين عناصر القوة والايديولوجية والاتصال والرأى العام من ناحية ، ويوضح من ناحية أخرى كيف يتعدى ذلك كله النطاقات المحلية والقومية ، بل والدولية ٠

والتلازم الدائم بين القوة والاتصال الذى يبلغ الرابطة العضوية، والذى اسلفنا الاشارة اليه ، لا يمكن بيانه من خلال ديناميات التغير الاجتماعي والمجتمعي فحسب ، بل ومن أن القوة والاتصال قد يتداخلان على نحو يوحي بامكان أن يحل أحدهما الى حد ما محل الآخر ٠ ونمثل لذلك بأنه إذا كانت الرسالة أقل وضوحا ولكنها مؤازرة بقدر كبير من القوة ، أو كانت الرسالة تتميز بوضوح كبير ولكنها مؤازرة بقدر أقل من القوة ، فاننا نلاحظ أنه في كلتا هاتين الحالتين تتحقق نتائج متشابهة ، ولكن حلول أيهما محل الآخر على هذا النحو ليس ، ولا يمكن

أن يكون ، مطلقا ، أى أن هـذا الحلول جزئى وفى نطاق محدود ، اذ ان أكثر الرسائل وضوحا اذا مـا جوبهت بمقاومـة لا يمكن ان تؤدى الى احداث أثر ما لم تؤازره بقوة كافيـة ولكن القـوة الكافية تكون عديمة الجـدوى اذا كانت الرسالة غامضـة أو متضاربة عند وصولها للمتلقى ٠

وهـذا فى حد ذاته يوضح التلازم الدائـم او الترابط العضوى بين القـوة والاتصـال ٠ ونستخلص من هـذا ان الاتصال المتكافىء هو الذى يتوازن فيه وضـوح الرسـالة مع درجـة القـوة المستخدمة فى مؤازرتها ، وفى هذه الحالة يتحقق الغرض الذى ينشده المصدر سواء أكان هـذا الغرض هو : احداث التوازن فـى علاقة قـوة ، او تعزيز هذا التوازن ، أو احداث خلل فيه على نحو يؤدى الى تغيير طبيعة علاقة القـوة ٠ وتحت هـذه الاحتمـالات الثلاثـة يندرج اى تغيـير اجتماعى او مجتمعى ، ابتـداء من أيـة علاقة تنتظـم فردين على اى مستوى من مستويات التعامل الى الثـورة التى تنتظـم المجتمع كله بشتى علاقاته ونظمـه ٠

ولا تقف عند هـذا المحدثون ان نلفت انتباه الدارس الى ان لفظة القـوة ، كما تستخدم فى هذا السياق لا تقتصر كما قد يتبادر الى الذهن على مدلولاتها الفيزيقية فحسب ، وانما القـوة تشمل فى عمليات الاتصال كل الاوجه المباشرة وغير المباشرة والسمات الظاهرة والخفية والعناصر الفعلية والمحتملة ٠ والاستخدام الكفء لعناصر القـوة المختلفة هو ذلك الذى لا يقف عند فعاليـة الفعال منهـا ، وانمـا الذى يأخذ فى حسابه عناصرها المحتملة التى تحسن استغلال الايهـام ٠ وكلمـة ، الايهـام أو الايحـاء ، هذه تنتقل بنـا الى ركيزة هامـة من الركائز التى تقـوم

عليهـا عملية الاعـلام Information • ولا يعنى هـذا أن العمليات الاتصـالية الاعلامية تقوم في الاحسـاس على الاسـتفادة مـن الجوانب السيكلوجية نحسب ، وان كانت هذه الجوانب بالغـة القيمة فى احداث الاثر المطلوب •

والواقع اننا نرى أن الايديولوجيات فى العصر الحديث لا تقف فى عملياتها الاتصالية أو الاعلامية عند طرح استخدام حقائقهـا الاولى فى الاستحواذ على مشاعر الجماهـير وتسييرها ، وانما تضع فى اعتبارها الكثير مما ترسب فى وجدانات الناس عبر قرون طويلة من قيم ومعتقدات قد تتصادم مع ما تحاول الايديولوجيات طرحه • كما تضع فى اعتبارها مقولات الايديولوجيات الاخرى ، ولذلك فانه تظهر في عملياتها الاتصالية مرونة وتكيفا قد لا يتفقان فى كل حـال مع الالتـزام المطلق بالافكـار الاساسية التى تقوم عليها الايديولوجية •

التأثير المتبادل بين الايديولوجية والاتصال (١) :

من اللازم قبل الشروع فى ايضاح تأثير الايديولوجية فى الاتصال وتاثير الاتصال فى الايديولوجية أن نحاول بعد أن استعرضنا المفاهيم الاساسية للاتصال وارتباطها بالقوة ، أن نقف على المعاني التى تعبر عنها لفظة الايديولوجية كمصطلح •

---

(١) هناك معالجة هامة وواعية لمفهوم الايديولوجية فى
Karl Mannheim. Ideology and utopia. London : Routledge & Kegan Paul. 1968, Ch. II.

قد ترتبط لفظة الايديولوجية فى أذهــان النــاس بالماركسية على نحو يؤثر فى ردود أفعالهم ازاء المفهوم الذى تنطوى عليه • وواقع الحال أن اللفظــة فى حد ذاتها لا ينبغى أن تصرف أذهاننا عن أن ما ينطوى عليه هذا المصطلح من معــان أو مدلولات ترتبط بالافكار المختلفة التى شكلت وتشكل اسس فكر الانسان منــذ القدم ، ومنذ بدأت ملكاته الفكرية تطور القدرة على رؤية العلاقات بين الاشياء واستكناهها •

وتبدأ معالجتنا لمشكلة الايديولوجية بمحاولة تحديد مفاهيمها وذلك باستخلاص معانيها المتداخلة وتنسيقها على نحو يضفى نوعا من الوحدة على ما يتصل ببعضه البعض من هذه المعانى • لان تحديد هــذه المعانى والربط بينها على النحو الذى تستخدم به فى عالمنا المعاصر يتيح لنــا القــدرة على تحليــل معنى الايديولوجيــة من الناحية الســوسيولوجية والتاريخيــة •

والنظر الى الايديولوجية بهــذه الطريقة التحليلية يظهر لنــا أن للايديولوجية معنيين محددين كما ــ يقول كارل مانهايم ــ يمكن الفصل بينهما : أحدهما خاص والآخر كلى • ونحن نتجــه الى استخدام لفظة الايديولوجية بمعناهــا الخاص للدلالة على أننا نتشكك فى أفكار الآخرين، أو فيما يطرحونه • اذ أننا فى هذه الحالة نقدر أن هذه الافكار أن هى الا ستر تخفى وراءها مواقفهم الحقيقية ، لان اتاحة الفرصة للغير للتعرف الصحيح على هــذه المواقف قد لا يتفق مع مصالحهم ، فهم يعمدون الى الكذب المتعمد حينا أو شبه المتعمد حينــا آخر ، أو الاخفــاء الحــاذق للحقائق • وذلك كله بطريقة تقوم على الحساب الدقيق للغايــة والوسيلة الذى قد يؤدى الى ايهــام الغــير وايقاعهم فى خداع الكذب •

وهذا المفهوم للايديولوجية ، الذى ان هو الا تطوير تدريجى لفكرتنا عن الكلية ، مفهوم خاص من أوجه عدة ، وتبرز خصوصيته اذا ما قارناه بالمفهوم الكلى • وفائدة هذا التعريف لنا من الناحية المنهاجية انه يعكس الصلة الوثيقة بين الايديولوجية والاتصال ، وليس ذلك فحسب، وانما يبين بشكل مباشر اثر الغاية المرجوة من المعطيات الاتصالية على ما قد تطرحه الايديولوجية •

وعندما نتناول الايديولوجية بمعناها الكلى فاننا نعنى بذلك ايديولوجية عصر بعينه أو جماعة إجتماعية تاريخية محددة كما هى الحال عندما نتناول على سبيل المثال طبقة من حيث خصائصها والبناء الكلى لفكر هذا العصر أو تلك الطبقة •

ونستطيع من خلال ذلك أن نرى بوضوح معايير التفرقة بين ما هو خاص وما هو كلى فى الايديولوجية • فالعنصر المشترك بين هذين المفهومين أننا لا نعتمد فى محاولة فهمنا لمقاصد أصحاب الايديولوجيات على ما يطرحونه أو على ما تعكسه آثار الحقبة التاريخية المدروسة من أفكار •

ويقع اثر الايديولوجية بأى من معنييها المذكورين على الفرد أو الجماعة الذى أو التى يحاول أو تحاول فهمها ، او الذى تتجه الايديولوجيات الى طرح فكرة أو نسق من الافكار عليه أو عليها • وللفرد الذى تتمثل فيه وحدة التلقى الاولى أفكاره الخاصة التى نمت وتشكلت نتيجة لخبراته ، وهذه الافكار فى حقيقتها ان هى الا وظائف Functions يدور حولها وجوده • وهذا يعنى أن الآراء والاقوال والفروض وانساق الافكار التى قد تطرحها الايديولوجيات لا تؤخذ على

المعنى الظاهري لهما وانما تفسر في ضوء مواقف حياة الفرد الذي يعبر عنها . كما أن ذلك يعني أن الطابع النوعي والموقف الحياتي للفرد يؤثران في آرائه ومفاهيمه وتفسيراته .

ولذلك فان هذين المفهومين للايديولوجية يحاولان أن يجعلا من « الافكار » وظيفة للفرد الذي يأخذ بهما ،ولموقفه من بيئته الاجتماعية. وبالرغم من أن هذين المفهومين للايديولوجية يلتقيان في بعض الجوانب ، الا أنه توجد فوارق هامة بينهما نذكر أبرزها فيما يلي :

أولا : بينما يركز المفهوم الخاص للايديولوجية على جزء فقط مما يطرحه المعارض ويرى أن هذا الجزء هو الايديولوجية . وذلك بالطبع فيما يتعلق بمحتوى ما يعرض . فاننا نلاحظ أن المفهوم الكلى للايديولوجية يضع في اعتباره الاتجاه الفكرى العام أو الكلى للمعارض على أساس أنه نتاج للحياة الجمعية التي يشارك فيها .

وقبل أن نعرض للفارق الثاني بين مفهومي الايديولوجية ، ينبغي لنا أن نقف وقفة نوضح فيها المعنى الذي نقصده ببعض المصطلحات المستخدمة في هذا السياق ونحسب أن ذلك يتأتى على وجه يقترب من الكمال اذا ما طرحناها مستخدمة في تعريف للايديولوجية وضعه واحد من علماء العصر البارزين هو « كارل مانهايم » الذي يرى أن : « الايديولوجية نتاج عقلي وظيفته حجب الطبيعة الحقيقية لمجتمع ما ، وهي تنبع تلقائيا من عقول أولئك الذين يستهدفون تثبيت نظام اجتماعي بعينه . واليوتوبيات ان هي الا احلام تمن تلهم العمل الجمعي لجماعات المعارضة التي تهدف الى تغيير المجتمع تغييرا كاملا » (٦) .

---

(٦) انظر : K. Mannheim, op. cit., pp. 174 and 122-24

فهـذا التعريف للأيديولوجية على اقتضابه يلم بالنوعين الهامين العامين اللذين يمكن أن ندرج تحتهما الافكار ، وهي العملي والخيالي ، ثم يبين لنا الطرفين أو المنصرين المجتمعين اللذين يميل كل منهما بحكم الموقع الى الاخذ بأي من هذين النوعين من الافكار ، وهذان العنصران هما ممارسوا القسوة او هؤلاء الذين يقومون بالحكم من ناحية ، ومعارضوهم من ناحية أخرى (١)٠ فعلى حين يفرض الامر الواقع نفسه على الايديولوجية التي يستلهمها الحاكمون ويحاولون تطبيقها ، فاننا نرى أن المعارضين يطرحون افكارا يوتوبية تنشد المثل الاعلى على غير المتحقق بقصد مخاطبة رغبات الجموع كوسيلة للتمهيد للوصول الى الحكم ٠

ويظهر شرحنا لتعريف « مانهايم » الاطراف الداخلة بالضرورة في التفاعل الايديولوجي الذي يرتكز في الاساس على العمليات الاتصالية ، وهذه الاطراف تنقسم في النظرة العامة الى ثلاثة اقسام هي :

طارح للايديولوجية ومعارض لهما وجموع أو نسق اجتماعي بينهما يتأثر بهما ويؤثر فيها وتوحي النظرة المدققة بأن تعريف الايديولوجية على هذا النحو يبرز في جلاء الصلة الحيوية بين الايديولوجية والاتصال ، اذ من الممكن في بساطة أن نستبدل لفظة طارح الايديولوجية بلفظة « المصدر » وأن نستبدل لفظة « الجموع » « بالمتلقين » والمعارضون بالضرورة ضرب من المتلقين وان كان يمكن اضفاء فعالية أكثر على دورهم في المجتمع ٠

---

(١) أنظر معالجة للايديولوجية السياسية في :

Harvey wheeler, Democracy in a Revolutionary Era, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, p. 197. seq.

وفضلا عن القيمة الايضاحية للمصطلحات التي ينطوي عليها شرحنا السالف ، فان هذا الشرح يبرز في الوقت نفسه حقيقة هامة هي مدار هذا البحث كله ، وهي الترابط العضوي بين عناصر القوة والاتصال والايديولوجية وبالتالى الرأى العام .

ثانيا : والفارق الثاني بين مفهومي الايديولوجية هو أن المفهوم الخاص للايديولوجية يقوم بتحليل الافكار على مستواها السيكولوجي الخالص . فاذا ما ادعى على سبيل المثال ان المعارض أو الخصم يعمد الى الكذب او اخفاء أو تشويه موقف فعلى معين ، فمعنى ذلك أن كلا الطرفين ـ اى لافرح الفكرة ومعارضها ـ لهما معايير مشتركة لقياس صحة الافكار ويفترض تبعا لذلك أنه من الممكن دحض الاكاذيب والغاء مصادر الخطأ بالرجوع الى معايير موضوعية متفق عليها ويقبلها الجانبان .

أما المفهوم الكلي للايديولوجية فيختلف عن ذلك ، فاننا عندما نعزو الى حقبة تاريخية معينة اطارا فكريا معينا يختلف عن اطارنا الفكري ، او عندما نفكر في طبقة اجتماعية تاريخية على أسس تخالف أسسنا الفكرية ، فاننا في هذه الحالة لا نرجع الى المحتوى الفردي ، وانما نرجع الى أنساق الفكر التي تتشعب أصولها والى أنماط الفكر والخبرة التي تختلف اختلافا بالغا .

ثالثا : والفارق الثالث بين مفهومي الايديولوجية هو أن المفهوم الخاص بالايديولوجية يعمل من خلال سيكولوجية مصالح ، بينما يستخدم المفهوم الكلي للايديولوجية ضربا من التحليل السيكوجي الشكلي الوظيفي ، دون الرجوع الى الدوافع ، مقتصرا على الوصف الموضوعي للاختلافات البنائية في العقول التي تعمل في اطارات اجتماعية مختلفة .

خلاصـــة :

لقد عنينا في هـذا الفصل بايضاح الوجوه النظرية التي يمكن من خلالهـا تناول « الافكـار » على أنهـا ايديولوجيات تستخدمها عناصر القـوة في المجتمع لاقامة أو تعديل أو تغيير النسق الاجتماعي الماته من خلال عمليات وتكنيكات الاتصال التي تخلق الراى العـام وتشكله • بيـد أننـا لم نعرض على سبيل التمثيل لايديولوجية بعينها مبينين اثرها وآثارها في مجتمع معين او على حقبـة تاريخية معينة ، ورأينا ـ على نحو يتسق مع منهجنا في هذا البحث الذي يتوخى القيمـة الحضارية لعلاقات القوة والاتصال والراى العـام دون التركيز على الوسـائل التكنيكية التي تتضـاءل قيمتها في المنظور الحضاري الشامل ـ أن نؤجل ذلك (التمثيل) الى أجزاء هذا البحث التي تعالج قضايا صناعة الراى •

الفصل الثالث

وسائل الاتصال

- تمهيد .
- وسائل الاتصال الجماهيري .

تمهيـــد :

اشرنا فى الفصل السابق الى أن وسائل الاتصال فى حد ذاتهـا لا تعنينا كأدوات فنيـة وانما تعنينا من حيث قيمتها الحضارية ، أى من حيث استخدامها استخداما فعالا فى العمليات الاتصالية التى تستهدف نشر افكار ومعتقدات يمكنها أن تصوغ الرأى العـام على نحـو يؤثر فى كل ما يتصل بحياة الانسان من أمور فـى المواقف الخاصـة والعامـة للافراد والجماعات فى النطاقات المحلية والقوميـة والدوليـة على شتى مستويات المعرفة والممارسة . وما لذلك كله من تأثير على مسيرة البشر عامـــة ٠

ومن الطريف أننى لم أكد أفرغ من كتابة نهاية الفصل السابق ، وبينما أجلس الى مكتبى (١) والاوراق والاقلام لم تزل أمامى ، وسياق الفكر ينحو مناح شتى ليجمع الشاردة الى الواردة ، اذ حركت أصابعى مؤشر وسيلة الاتصال القريبة منى لاسمع التعليق اليومى الذى تذيعه هيئـة الاذاعة البريطانية كل يوم عقب نشرة أخبار الحادية عشر مساء بتوقيت جرينتش ، وتصادف أن كان التعليق يتناول بالمناقشة موضوعا يطرحه مؤتمر « منظمة اليونسكو » فى هذه الآونة فى باريس . ويتناول المؤتمر المشار اليه موضوع الحاجة الى فرض نوع من الضبط على الاخبار والمعلومات التى تتداولها وسائل الاتصال الجماهيرية فى العالم بأسره ، أو بلغـة أدق اخضاع هذه المواد فى كل دولة الى ضرب من الرقابة الفعالة. وذلك بقصد خدمة السلام العالمى والحيلولة دون نشر الافكار التى تؤدى الى النزاع والشقاق الدولى من ناحية ، والى التأثير على القيم السائدة فى المجتمعات من ناحية أخرى ٠

---

(١) مساء الاحد التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ ٠

وخبراء اليونسكو يحاولون اصدار بيـان عالمي بهذا الشأن بعد دراسة بدأت منذ ست سنوات وبعد أن استرعت انتباههم الآثار السلبية الجسيمة التي تقع على مجتمعـات دول العالم الثالث ، نتيجـة للهيمنة الكاملة او شبه الكاملة للمؤسسات الاعلاميـة وقنوات الاتصال الكبرى التي تتمثل في الاذاعـات ووكالات الانبـاء الغربيـة التي لهـا على قلة عددهـا قدرة وفاعلية في مجالات ما يسود العالم الان من اتجاهات وحرب دعائيـة واسـعة النطاق وعميقة التأثـير ٧ وتبـرز أهمية أدوار هذه القنوات الاتصالية اذا ما استحضرنا في الذهن النظـم والاحوال السائدة بعامة في بلدان العالم الثالث من ناحية ، والايديولوجيات التي تستلهم قنوات الاتصال العالمية الوحي منها من ناحية أخرى .

وليس من الغريب ان نرى أن المعلق البريطاني يتخذ موقفا مضادا للاقتراح الذي يطرحه خبراء منظمة اليونسكو . ويقـول أن فرض هـذا النوع من القبط ينطوي فيما يتعلق ببلدان العالم الثالث على شكل من اشكال التمييز العنصري ، اذ أنه يعني أن شعوب هذه البلدان لم ترق بعد الى المستويات السائدة في البلدان الغربيـة ، ويقـول ان وسائل الاتصال الجماهيري في هذه البلدان قام الاستعمار باقامتها قبل رحيله عنها لتحقيق أهداف ثلاثة على التحديد هي : الاعـلام ، والترويـح ، والتعليم ، ويقف عند ذلك دون أن ينتهي الى ما آل اليه أمر هذه الوسائل في ظل النظم التي سادت بعد فترة الاستعمار ، وما لهـذه النظـم من انتماءات أيديولوجية تتأرجح بين شرق وغرب ، ونادرا ما تثبت داخل نطاق تراثها الحضاري .

الاذاعات ودورها في الرأي العام :

ان عنونتنا لهـذا الجزء من الفصل لا تعني اننا نقصر اهتمامنا على الاذاعات فى معالجتنا لوسائل الاتصال الجماهيرى ، فمن منا لا يمكنه أن يلحظ الادوار الفعالة لوسائل الاتصال الجماهيرى الاخرى من كتب وصحف وسينما واشرطة تسجيل وغيرها من كافة المصنفات الاخرى ؟ ولكننا نركز على الاذاعات المرئية والمسموعة لاتصالها المباشر بالجماهـير الغفـيرة بشتى قطاعاتها من الصفوة Elite الى الاميين من العامة ، على ما هنالك من فارق بين الاذاعات المسموعة التى تتعدى النطاقات المحلية والقومية والاذاعات المسموعة المرئيـة التى تلعب دورهـا فـى نطاقات محـدودة .

واذا ما شئنا ان نضرب المثـل باذاعة معينـة فان اختيار هيئة الاذاعة البريطانية B.B.C. يفرض نفسه علينـا ، اذ فيهـا تتمثـل الخدمات التى تخاطب المستويات المحلية من ناحية والمستويات العالميـة من ناحيـة أخرى ، بشكل يوشك أن يبلغ مرتبـة الكمال ، ان كان الكمال فى وسع الانسان . ومعالجة دور الاذاعة البريطانية من الناحية المحلية أمـر لا يتصل بسياقنا الحالى وكذلك فانه لا يعنينا فى كثير الدور الذى تلعبه « جامعـة الهواء » على سبيل المثال فيما تهيؤه من فرص ثقافية للشعب البريطانى .

ودعنا نلقى نظـرة على الخدمة العالميـة World Service لنتبين ما يمكن ان يكون لبرامجها من اثر وخطـر . فهـى تعنى بتتبع مسار الأحداث فى كل بقاع العالم وتذيع أخبارها فى أوقات ثابتة ومتكررة على نحو يضمن وصولها الى شعوب مختلف البلدان فى أوقات تلائمهم .

وهذه الاخبـار تصاغ على نحو ديدنه الحيدة ، وليس من الممكن بالطبع أن تكون الحيدة مطلقة ، اذ أن مثل هـذه الحيدة تجـاوز طوق الانسان ولا أحسب انه مطالب بهـا الا على سبيل الادعاء الذى يتجاهل تركيب الانسان وخلفيته .

ولكى تضفى هذه الاذاعة على أخبارها حيوية تستهدف الاستحواذ على اذن السامع فانها تتبعها عادة إما بتعليقات تتناول قضايا الساعة التى تدور حولها هـذه الاخبار ، أو رسائل صوتية من مراسليها فى مختلف البلدان الذين يتابعون هذه الاحداث عن كثب .

واذا ما انتقلنا الى البرامج الاخرى فانها تتنوع على نحـو ، ليس سياقنا مجالا له . ونكتفى ببرامج قليلة على سبيل التمثيل . ففى المجال الثقافى نجد معالجات اذاعية لنتاج الادب الانجليزى على نحو يتراوح بين القصة البوليسية والاعمال الخالدة للادبـاء العظماء من أمثـال « وليم شكسبير » ، ولا نشير الى مجالات الابداع الاخرى كالموسيقى وغيرها .

وهذا الضرب من البرامج يعكس ولا شك قسمة من قسمات حضارة بعينهـا . وهناك أيضا برامج سياسية تقوم على تحليل الاحداث الكبرى ونمثل لهـا بالبرنامج الذى يذاع فى الوقت الحاضر من حلقات اسبوعية تحت اسـم Many Resons Why فهذا البرنامج يتنـاول بالمعالجـة المستفيضة التورط الامريكى فى فيتنام ، مـن أسبابه ودواعيـه وحتى النتائج المترتبـة على انهـاء هذا التورط بعد اتفـاق باريس وقد عنى مقدمو هذا البرنامج باجراء النقاش مع كل من كانت لهم صلة بهـذه الفترة الهامة فى التاريخ المعاصر . فنسمع فـى هـذا البرنامج آراء اشخاص كالرئيس نيكسون ، والرئيس « ثيـو » آخـر رئيـس لفيتنام

الجنوبية قبل سقوط سيجون ، والمستر « كولبى » الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية الامريكية C.I.A. ووزراء الخارجية المعنيين ، ومستشارى الرؤساء الامريكيين الذين تعاقبوا فى هذه الفترة ، ومستشارى البنتاجون والقادة العسكريين ، واساتذة السياسة والصحفيين والمعلقين ، وغيرهم • كل ذلك على نحو يتيح للمتلقى المادة شاملة لكل جوانب الموضوع وخفاياه •

بيد اننا نلاحظ أن الوجوه السائدة فى البرنامج توشك أن تكون انجلو سكسونية وحسب ، على نحو يمثل وجهة نظر غربية ـ وان كانت محايدة فى نطاق الغرب ـ مع أنها موجهة الى متلقين تتباين اماكنهم على خريطة العالم •

ومن الناحية الدينية فاننا نلاحظ أن هذه الخدمة العالمية تعنى بالبث المنتظم للبرامج الدينية ، بالرغم من انه يفترض انها لا تخاطب أصحاب دين واحد ، بل تخاطب الناس جميعا دون الالحاح على مفهوم دينى معين •

ويتضح من هذا أن هذه البرامج وغيرها تحمل فى مجملها قسمات حضارة معينة ، فى محاولة لتوسيع نطاقات نفوذ ايديولوجية هذه الحضارة • وليس هذا بمستغرب بالطبع ، اذا وجدنا أن مصدرى دائرة المعارف البريطانية ـ وهى اداة اتصالية هامة على المستوى العالمى ـ يقدمون احدث طبعة لها على أنها تمثل التراث الغربى بعامة من المملكة البريطانية وحتى استراليا • ولعل ذلك كما اسلفنا هو السبب فى اختيارنا الجزء الخاص من هذا البحث بالرأى العام للكلام فيه عن وسائل الاتصال الجماهيرى •

هذا من ناحية المنهج ، وقبل أن ننتقل الى النقطة التالية نحب أن نشير الى أن دول العالم المختلفة ، تقديرا منها لما لهذه الوسائل من خطر، سوف تعقد فى هذا العام مؤتمرا فى مدينة جنيف هو المؤتمر العالمى للاذاعات الحكومية . وتستعد لذلك من الان بدراسات مستفيضة اذ بدأ الخبراء فى دول العالم النامى يستشعرون خطرا داهما يتمثل فى أن الدول المتقدمة توشك أن تستنفد النطاق الاليكترونى وهو النطاق الذى تعمل من خلاله الموجات اللاسلكية المستخدمة فى شتى ضروب الاتصال من الاذاعات الى الاقمار الصناعية على نحو قد لا يتيح لهذه الدول الاستفادة بهذا النطاق أو بلغة أدق قد لا تجد لها مكانا فيه ، اذا ما تهيأت لها فيما بعد الامكانيات التكنولوجية التى تستطيع بوساطتها أن توسع مجالات خدماتها فى هذا الاتجاه أو أن تطلق اقمارا صناعية . ونرى مثلا أن احدى اللجان المتخصصة فى الكونجرس الامريكى ترى فى الدراسة التى اعدتها عن هذا الموضوع أن ما تستحوذ عليه الولايات المتحدة الامريكية من حيز فى هذا النطاق الاليكترونى تتمثل فيه اهميات بالغة ترتبط بحياة الشعب الامريكى وامنه القومى ، اذ أنها تستخدمه فى مجالات الاعلام على المستويين الداخلى والعالمى ، وفى شتى المجالات العلمية وغيرها ابتداء من تقدير المحصول العالمى للقمح وانتهاء الى مراقبة مدى التزام الاتحاد السوفيتى فى صنع صواريخه بما أتفق وما يتفق عليه فى مباحثات S.A.L.T. ‏(١) . ومن ناحية أخرى نجد أن بين الدول التى ستشترك فى المؤتمر وعددها يناهز المائة ، دولا سوف تصر على أن يحتفظ

---

(١) مفاوضات تحديد الاسلحة الاستراتيجية .
Strategic Arms Limitation Treaty.

بحيز غير مستخدم فى النطاق الاليكترونى الى ان تتهيا لهـا فيمـا بعد سـبل استخدامه ٠

ولعله ما كان للباحث ان يلم بتفاصيل مثل تلك التى اوردناها فى هذا السياق دون الاستعانة فى استقرائه لمـا يجرى فى عالمنا المعاصر بما هو متـاح الان من وسائل الاتصال التى تتنـاول برامجـا تعكس فى نفس اللحظـة ما يدور هنـا وهناك على المستوى العلمى وغير العلمى عن وسائل الاتصال الجماهيرية ٠

وينقلنا هذا السياق الى ضروب اخرى من الاذاعـات نكتفى هنـا بمجـرد الاشارة اليها ، كالاذاعات التى تقصر جهودها على الدعاية لدين معين او فكر معين والتبشير به ٠ كما أنه لا يفوتنا ان نشير الى الدور الذى تلعبـه الاذاعات الموجهـة على وجـه العمـوم فـى الربط بين اصحاب الايديولوجيات الواحدة وان تبعثروا فى أماكن متفرقة من العالم ٠

ومن الكلمة المسموعة التى آثرنا ان نبـدأ بهـا لاتسـاع نطـاق تاثيرها ننتقل الى الكلمة المسموعة المقترنة بالصـورة كمـا تتمثل فى التلفزيون والسينما ٠ والتلفزيـون على ضيق مجالـه نسبيا بالمقارنـة بالاذاعة ، يلعب فى العصر الحديث دورا بالغ التاثير فى النطاقات المحلية والقومية خاصة ، لقدرته على استهواء الناس ، وهو ولا شك من أهم ، او أهم ، وسيلة اتصال جماهيرية تستخدم على أوسع نطاق فى مجالات الاعلام والتعليم والتسلية ٠ وهذه المجالات جميعا ترتبط ارتباطا وثيقا بعمليات صياغة الرأى العـام من خلال ايديولوجيات القائمين عليها ، وان كان بعضها يترشح باردية التلقائية المفتعلة التى تنأى بهـا عن شبهة الانحيـاز ٠

ولا يزال للسينما دورا تلعبه في الاتجاه نفسه ، وان كان التلفزيون قد حد من دورها نسبيا بقدرته على أن يغزو بيوت الناس من ناحية ، في حين أن السينما تطلب من الناس أن يسعوا اليها ، وان التلفزيون من ناحية اخرى يستفيد من امكانيات السينما ، هذا وقد بدأ التلفزيون في الآونة الاخيرة يستعين في تخطي الحواجز القومية بما أتاحته التكنولوجيا المعاصرة من أقمار صناعية ٠

ومن الكلمة المسموعة والكلمة المقترنة بالصورة ، ننتقل الى أقدم أشكال الكلمة وأبقاها أثرا ، وهي الكلمة المطبوعة ، التي استطاع الانسان بوساطتها أن يحفظ تراثه في شتى المجالات ، والتي كان وسيبقى لهسا من الخطر ما لا يمكن للباحثين أن يقيموه بأي حال من الاحوال ٠ والكلمة المطبوعة تاخذ اشكال الكتب والصحف في مختلف أنواعها ولها جميعا فعالية وسائل الاتصال والاعلام الجماهيرية مع القدرة على استدامة الاثر ٠

ويغرينا هذا بالاشارة أيضا الى الدور الجسيم الذي تلعبه الصحافة في حياة الانسان وحضارته على تدرجها من الصحافة الصفراء الى الدوريات التي تعالج أدق قضايا الفكر والعلم ٠

وخلاصة القول هو أنه لوسائل الاتصال الجماهيرية بشتى اشكالها قيمة حضارية فعالة ، وأن هذه القيمة هي التي تعنينا في هذا البحث لما لها من أثر في صياغة الرأي العام ٠

الــرأي العــام

ان النظر الى الاحوال السائدة في العالم على سعته وفي المجتمعات التي يضمها يوحي ـ مع التأمل ـ بتلك الصعوبات الجسيمة التي تكتنف محاولة وضع تعريف شامل أو جامع مانع لما اصطلح على تسميته بالرأى العــام، وقد يكون النظر الى قضايا الرأى العام امر يقل صعوبة عن استكناه مثل هذا المفهوم الشامل ، ولكن المشكلة تكمن في أن النظر الى الرأى العــام من خلال قضاياه ينتهــي بنــا لا محالــة الى عدد مــن التعريفات للرأى العــام وليس تعريفا واحدا على النحــو الذى تقتضيه المحاولة العلمية للتقنين • وهذا يعنى أن الباحث قد يضطر الى الركون الى ما هو اجرائى فى حين أنه يحاول أن يجمع كل العناصر الداخلة في المساحة شاملة •

ومن ثم فلنحاول بادىء ذى بدء أن نقصر النظرة فى نطاق محــدد فنتناول قطاعا محليا يحاول صناع القرار فيــه أن يتبنوا سياسة معينة ازاء موضوع بعينه ، فانهم ولا شــك لا يستطيعون المقامرة بمكانتهم الاجتماعية Social Status او بهيبتهم ، أو بشعاراتهم المعلنة التي قد تكون من عوامل تعزيز هذه المكانة أو الهيبــة • ولهــذا فقد يعتسفون قرارات تتضاد مع العواطف والاتجاهات السائدة بين الجماهير • وهم هنا يجابهون أحد أمرين : اما أن يحاولوا أولا التأثير فى هذه العواطف او تلك الاتجاهات من خــلال وسائل الاتصــال على نحــو يهيىء الناس لتلقى ما يتخذوا مــن قرارات أو أن يستلهموا هــذه العواطف والاتجــاهات ويحاولوا التوفيق بينها وبين قراراتهم •

ومحاولة التأثير في مواقف النــاس أو تغييرهــا ليس بالامر الهين

اذ أن هذه المواقف ترتبط بعناصر عديدة قد تستمد أصولها من تراث أو معتقدات تدعي لنفسها صفة الدوام ، ويتشكل بمقتضاها ما يمكن أن يسمى برأى عام . ومن هنا تستطيع القول بأن الرأى العام فى تعريف بسيط هو : « حصيلة الآراء والمواقف والمعتقدات التى تعكس اتجاه نسبة مؤثرة من أفراد مجتمع واحد أو مجتمع ما ازاء موضوع بعينه » (١) .

وعلى وجه العموم فان كل رأى يرتأيه الانسان يرتبط أو يتعلق بشىء ما ، وبقدر ما تتعدد الاشياء ، وبتعدد الافراد تتعدد الآراء ، وكون الرأى العام « محصلة » لا يعنى بالضرورة اتفاق الجزئيات لدى الافراد ازاء شىء ما لتنوع خلفيات الافراد وتعددها اذ أن الناس يختلفون ثقافة وفهما بالرغم من تشاركهم فى بيئة واحدة أو نسق اجتماعى واحد . على نحو يوحى بأن الرأى العام ليس مجرد حصيلة بسيطة وانما حصيلة مركبة بالغة التعقيد . ويترتب على ذلك بالتبسيط أننا اذا افترضنا ثبات جماعة معينة فان الافراد الداخلين منها فى محصلة الرأى ازاء موضوع معين ليسوا بالضرورة نفس الافراد الذين يدخلون فى محصلة رأى معين ازاء موضوع آخر ، وان كان الرأى العام فى كلتا الحالتين ينسب الى نفس الجماعة . وهكذا دواليك بحسب تراكب وتعقد البناء الاجتماعى وتعدد موضوعات الرأى فيه . وكون الرأى العام حصيلة متغيرة على هذا النحو يقتضى أن تنصرف به الى قضايا أو نطاقات معينة كلما حاولنا معرفته أو قياسه .

---

(١) انظر : Public Opinion, in : Encyclopaedia Britannca.

ولذلك فاننا نلاحظ أن الباحث في مجـال السياسة يعنى بأوجـه أربعـة يرتبط بهـا الرأى العـام هى :

(أ) النسق السياسى ٠

(ب) النظام السـائد ٠

(جـ) الاطار الدستورى ٠

(د) الطريقة التى تحسم بهـا القضايا ٠

والترابط بين هذه الوجوه الاربعة وترتيب التالى فيها على السابق تتمثـل أهميتـه فى أنه المحور أو الموضوع الذى يتعلق به محصلة آراء النـاس ٠

وهذه الآراء التى قد تكون عميقة الجـذور تشكل اتفاقا عامـا ٠ وبالرغم من أن هذا الاتفاق لا يمكن أن يكون مطلقا الا أنه هو الاساس الذى يضفى الشرعية على النظام القائم ويترتب على ذلك أن الاختلاف البين فيه يؤدى الى انهيار ذلك النظام ٠

الرأى العـام والاغتـراب :

والباحثون فى السياسة والرأى العـام اذ يفصلون فى نظرتهم فى هذا المجال بين ما هو سياسى Political وما هو اجتماعى Social إنما يحاولون التفرقة بين مـا له أثـر مباشر على شرعية النظـام المرتبط بالنظـام وقضايـاه السياسية العامـة وبين الآراء العامـة التى ترتبط بالمشكلات الاجتماعية / والبنـاء الاجتماعى السياسى المتـين هو ذلك البنـاء الذى يستطيع صياغة الحصيلة المركبة للرأى العـام على نحـو

يكفل اتفاقا لا يؤدى فى احسن الاحوال الا الى اغتراب Alienation (١) الحد الادنى من الافراد والجماعات الداخلة فى تكوين المجتمع ٠ اذ أن فى الاغتراب يتجسد النفور واللامبالاة اللذان يعكسان شعور الفرد بعدم الانتماء على نحو يخرب القدرة الانسانية على الاسهام أو المشاركة Participation ومن هذا يستدل على الاهمية الجوهرية للتأثير الاتصالى والاعلامى على نحو يضمن مؤازرة المحصلة المركبة للرأى العام للنظام ٠

فالاغتراب اذن هو النتيجة الحتمية لفشل صناعة الرأى فى النسق السياسى التسلطى . فى صياغة تشكيل الرأى العام ٠

وقد يتصور البعض مما أسلفنا أن الاتفاق العام فى الرأى قد يعنى أن النسق السياسى المعين لا يمكن أن تنبثق عنه الا جماعة سياسية واحدة تتخذ شكل حزب واحد مثلا ، ولكن هذا فى الواقع غير صحيح ، اذ فى بلد مستقر من الناحية السياسية كالمملكة المتحدة ، مثلا نجد أن هناك اتفاقا عاما على الناحية الدستورية أى من حيث كيفية الادارة واتخاذ القرار ، ولم يحل ذلك دون قيام أحزاب متعددة تتبنى أفكار متباينة ولكن فى نطاق الدستور غير المكتوب ، وتستطيع هذه الافكار بالتحاور أن تصل الى أحسن السياسات التى ينبغى أن تطبق فى المجالات الداخلية والخارجية ٠ فالسياسات اذن تختلف من حيث التفاصيل ولكن الممارسة وصنع القرار يرتبطان بأشكال مصطلح عليها ٠

---

(١) انظر : Richard Schacht, Alienation, N. Y. Anchor Books, 1970, PP. 183-199.

بيد ان ذلك لم يحل فى الوقت نفسه دون بروز ظاهرة ، ترتبط بالقرن الحالى وهى تصميم بعض الايديولوجيات على أن تطرح نفسها كمجال وحيد ينبنى من حوله الرأى العام • ويلاحظ هذا فى النظام السائد فى الاتحاد السوفيتى على سبيل المثال ، اذ أن الماركسية ترى أنها وليدة جدل تاريخى تمثلت فيه عبر الحقب كل مراحل الاخذ والعطاء على نحو هيأ ظهور النظرية الماركسية كايديولوجية متكاملة يمكن للبناء السياسى الاجتماعى أن يقوم عليها وحدها دون ما حاجة الى صراع فكرى داخلى . ولذلك فان أجهزة الاتصال والاعلام هناك تلتزم بصياغة المحصلة المركبة للرأى العام على نحو يتمشى مع هذا المفهوم . وان كان قد بقى لهذه الايديولوجية أن تناطح غيرها من الايديولوجيات السائدة فى بلدان اخرى من العالم •

واذا ما انتقلنا بنظرتنا الى الانساق السياسية السائدة فى العالمين الثالث والرابع نجد أن معظم هذه الانساق قد تقوم على شعارات فارغة المضمون ، وتستمد بقاءها من خلال الاستحواذ على السلطة العسكرية كما هى الحال – على سبيل المثال – فى جمهوريات امريكا الجنوبية وبلدان اخرى لا تكاد تخرج من انقلاب حتى تدخل فى آخر ، وسند مثل هذه النظم فى البقاء هو الممارسة المطلقة للقوة كما أسلفنا ، او التبعية للانظمة الامبريالية • ذلك فضلا عن الظاهرة الفريدة التى تتجلى فى بعض دول العالم الرابع التى تضيق فيها دائرة الاغتراب الى أدنى حد ممكن برغم غيبة كل الاشكال التى يتعارف عليها عادة فى الانساق السياسية اللهم على سبيل الادعاء والتى لا تتعرض تبعا لذلك لاضطرابات سياسية تؤدى الى تغيير او قلب النظام - وذلك مرجعه الى الثراء العريض الذى أتيح لهذه المجتمعات على حين غرة . وترتب عليه

رخاء يكاد يعم كل الناس ، فضلا عن الافلاس الفكرى السائد وما يرتبط به من استرخاء عقلى ٠

ويستطيع الباحث السياسى أن يلمح أعراض عدم استجابة الرأى العام لما تطرحه اجهزة بعض هذه الدول نظرا لاستئثار فئة أو طبقة معينة بكل عوائد ما اتيح لهذه البلدان من ثروات ويتجلى ذلك فى الاضطرابات التى نسمع عنها فى الآونة الحاضرة فى ايران (١) ٠

ونعود بالسياق الى ظاهرة الاحزاب ـ طالما اننا نعنى فى هذا الجزء بالنواحى السياسية ، اذ أن الولاء الحزبى فى المجتمع على تعدد تنظيماته يجسد صورة الارتباط الفعال للافراد والجماعات على نحو يمكن من اتخاذ القرار الحاسم فى نهاية الامر ٠ وبالتالى فان هؤلاء الافراد وهاتيك الجماعات تجد نفسها وتتوحد فى الاحزاب ٠ وهذا الولاء الحزبى لا يتأتى الا من خلال الالتفاف حول شعارات تتبنى مصالح هؤلاء الافراد والجماعات الذين لا يستشعرون ذلك على نحو يضمن ولاءهم الا من خلال عمليات فعالة لصياغة الرأى وتشكيله ٠

ويستنتج من هذا كله أنه على الباحث السياسى أن يركز انتباهه على ولاء الفرد للجماعة او الحزب اذا شاء أن يستكنه مفهوم الرأى العام فى جانبه السياسى المؤثر على مجريات الامور ٠ اذ أن الولاء فى التحليل النهائى هو الذى يحدد الاتجاهات العامة التى يترتب عليها تبنى رأى بعينة او سياسة بعينها أو اختيار الناس للزعامة التى يعهدون اليها بادارة شئونهم ٠

---

(١) تكتب هذه السطور خلال شهر أكتوبر ١٩٧٨ ٠

ويقوم اختيار الزعامة أو اختيار الناس للزعيم فـي الاساس على عمليات صياغة وتوجيه للرأى العـام تضيق بمقتضاها دائرة الاختيـار وتنحصر في نطاق أشخاص تتمثل فيهـم من خـلال الخرافة أو الواقع القدرة على تهيئة العوامل والظروف التي تكفل تحقيق مصالح الحد الاعلى من الافراد والجماعات التي صيغ فيها الـرأى العـام على نحـو يكفـل اقناعهم بذلك ٠

الرأى العـام في عملية الانتخاب

ومن الواضح بالطبع أننا لا نعني بالزعامة القادة على المستوى القومي وحـسب وانما يندرج تحت مفهوم القيادة كل اولئك الذين يلعبون دورا قياديا في تسيير مختلف الجماعات الداخلة في المجتمع ٠

ولابد أن تسترعي انتباهنا هنا ظاهرة تواضع الناس في مختلف المجتمعات على أن وجودها يعتبر مؤشرا يدل على أن للديمقراطية مكانا في المجتمع، اذ أن القوة في ظهورها وخفائها تميل الى أن تتوشح بغلالات أردية تخفي ورائها ما تنطوى عليه من قدرة على تحقيق الاذعان على نحو يظهر العبد وكأنه اختار لنفسه بنفسه أن يرزح تحت نير عبودية أو أخرى ، ونعني بهـذه الظاهرة « عملية الانتخاب » (١) التي نرى أن المجتمعات التي تدعى أنها ليبرالية وتلك التي يدعـى الليبراليـون أنهـا شمولية

---

(1) D.E.G. Plowman, "Public opinion and the polls", B.J.S. Vol. XIII, Dec. 1962, PP. 331-345; Paul A. Palmer, The concept of public opinion in Political theory, London, 1938; D. Riesman and N. Glazer, "The meaning of opinion", Public opinion Quarterly. 1948-9, 12, PP. 633-48.

تتمسك جميعها بعملية الانتخاب على أنها سمة من سمات الديمقراطية التى يحاول الانسان أن يدعيها لنفسه منذ عاش فى دولة المدينة city - state الاغريقية (١) وحتى انتهى الى مجتمعات القرن العشرين على اختلاف أوصافها . ومرجع عنايتنا بالوقوف الى حين عند هذه الظاهرة ـ عملية الانتخاب ـ هو أن المحاولة الظاهرة لصياغة الرأى العام ، على مختلف المستويات تتجلى فيهما على نحو كبير سواء أكانت هذه العملية الانتخابية تتم لاختيار أعضاء الكونجرس الامريكى (٢) . أو مجالس السوفييت او مجلس العموم البريطانى أو أى مجلس نيابى أيا كان موقعه فى هذا العالم المدعى .

والدلالة الحقيقية لذلك كله هى أن جموع الناس تسير من خلال عمليات الاتصال والاعلام التى تصوغ الرأى العام الى اتخاذ مواقف تحقق فى التحليل النهائى مصالح الطبقات الضابطة المسيطرة وان كانت هذه الاخيرة اذا أتيح لها قدر من الاستنارة ـ تعمل على رعاية مصالح الناس فى الحدود التى تحفظ لها امنها واستقرارها .

---

(١) أنظر : لطفى عبد الوهاب يحيى ، الديمقراطية الاثينية ، الطبعة الاولى ، مركز التوزيع الجامعى بالاسكندرية ، ١٩٦٦ ، الفصول ١ ـ ٣ .

(٢) من الظواهر الطريفة وذات الدلالة أن أحزاب ما قبل الثورة فى مصر كانت تعمد عندما تكون فى السلطة الى اعادة تغيير الحدود الادارية للدوائر الانتخابية على النحو الذى يكفل شموله لاكبر عدد من أنصار مرشحيها، ويحق للحزب صاحب الاغلبية فى الولايات المتحدة الامريكية أن يعيد تخطيط الدوائر بنفس الطريقة . وهذه العملية ان هى الا محاولة لحصر رأى عام معين فى نطاق معين بقصد تهيئة احدى الركائز الهامة للبقاء فى السلطة .

الرأى العــام والكارزما

ان تاريخ الانسان ، قديمه وحديثه وخاصة فى أشد نقاط التحول اثرا أو خطرا ـ أعطانا أمثلة لاشخاص تتجسد فيهم القدرة على اجتذاب جموع الناس واستثارة الاستجابة التلقائية لديهم لما يطرحه هؤلاء القادة من معتقدات وما يفرضونه من سياسات ·

ووقف الباحثون مليا أمام هذه الظاهرة التى أثرت على مسار الحضارات سلبيا وايجابيا محاولين الكشف عن حقيقة العناصر الداخلة فيها ويبدو أنه بعد أن استنفذوا المناهج التى ترتبط بصرامة التحليل ، ان كان للتحليل فى كل حال صرامة ، جنحوا الى ضروب من التعليل الميتافيزيقى ورأوا أن لهؤلاء القادة قدرة فريدة على استقطاب عواطف الجماهير ومشاعرهم ، وأن هذه القدرة هبة سماوية ، أطلق عليها الباحثون الغربيون لفظة كارزما Charisma ويعنون بها الصفات غير العادية التى يتميز بها القائد المجدد أو الثورى ، والتى تقوم على اعتقاد بأنه له قوى دينية أو سحرية على سبيل المثال · ويمكن ان ينسحب معنى هذا المصطلح الى الرموز Symbols أو النظم institutions التى ترتبط بهذه القيادة (١) · ومصطلح الكارزما ، يشتق من الكلمة اليونانية التى تعنى « هبة العناية الالهية » وتعريف الكارزما على النحو السابق يظهر فى الحقيقة انها تقوم فى الاساس على حسن صياغة الرأى العام على نحو يكفل نجاح العملية الاتصالية بين القائد وما يمثله وبين جموع الناس · ويتضح ذلك من أن هناك ارتباطا بين قدرة الكارزمية على البقاء وبين استطاعتها أن تحقق الآمال التى الهمتها

---

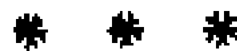
(1) G. K. Roberts, A Dictionary of Political analysis, London, Longman, 1971, P. 28

للجماهير ، ولا تستطيع الكارزمية في حـد ذاتهـا أن تفعـل ذلك دون الاستعانة بقوى المجتمع ، ولكنها تهيىء أكبر الفرص مواتاة وقدرة على توجيـه الرأى العـام في الاتجاه المطلوب ، وهذا في حد ذاته قد يكفل لهـا النجاح في انجاز ما تستهدفه اذا استطاعت أن تحسب هذه القوى حسابا دقيقـا وتحسن استخدامها .

ويلاحظ أنه بعد أن تتهيـأ للقائد الكارزمي فرصة الظهور على سطح الاحداث والامساك بمقاليد الامور ، يستطيع هذا القائد أن يخاطب قلوب وعقول الجماهير التي أصبحت متعلقة به ، وبما يمثله مباشرة دون الحاجة الى العمليات التلفيقية والتوفيقية المركبة التي تقوم عليها صناعة الرأى ، اذ انه لا يحتاج لاكثر من أدوات او وسائل تسهل عليه عملية الاتصال بينه وبين الجموع التي اصبح في مقـدوره أن يحيى آمالهـا ويداعب احلامها .

والتاريخ في عصره الحديث يعطينا هتلر ونكروما وجمال عبد الناصر وملونى تونج وفيدل كاسترو وتيتو كأمثلة للقيادة الكارزمية .

ومن الآثار بالغة السلبية للكارزمية ـ أو للرأى العام اذا استطردنا في التحليل ـ أنهـا تجمع القوى في محصلة سلطة يمارسها قائد واحد بحيث يصبح نجاحه وفشله متوقفين على قدراته ، ويجنى المجتمع بأسره الثمرة في نهاية الامر او يدفع ثمن ولائه .



وكلامنا عن الرأى العـام ودوره فـى الجانب السياسى لابد وأن يفضى بنـا الى شتى الجوانب الاخرى التى يقوم عليهـا النسق الاجتماعى. فانـا نعرف ان القوة السياسية ـ كما اسلفنا فى الفصل الثـانى ـ محصلة لعـدة قوى هى القوة الدينية والقوة الاقتصادية والقوة العسكرية

والقوة العلمية • ونشير هنا الى أن هـذه القوى جميعا ترتبط ارتباطا وثيقـا بالرأى العـام أى بتراكيب عمليات الاتصال •

فالقـوة الدينية ــ على سبيل المثـال ــ تنبنى فى الاساس على نشر معتقد أو معتقدات بعينها تقر فى نفوس الناس مستمدة سلطانهـا من مخول ميتافيزيقى أو عقلى • وتؤثر فى مواقفهـم ازاء بعضهـم البعض كافراد وتنظيمات ونظم وازاء ما يسمى بحقائق الاشياء تأثيرا ضارب الجذور ، وبالغ الاثر فى التاريخ بأسره ولم يقتصر أثر الرأى العـام فى الجانب الدينى على تشكيل معتقدات النـاس على نحو معين فحسب ولكن كمـا هى الحـال فى الجوانب الاخرى للرأى العـام كان لهـذا الرأى اثر فى تشكيل المعتقد الدينى أو تطوره • فاذا مـا رجعنـا الى القـرن الرابع الميلادى والمؤتمر الدينـى الذى عقـد فـى « نيقيـا » عـام (٣٢٥ م) والذى تحددت فيه السمات الاساسية للعقيدة « الكاثوليكية » نلاحظ أنه كانت هناك عدة معتقدات فيما يتعلق بالطبيعةالالهية والتثليث. وكان الآريوسيون (١) : قد صالوا وجالوا وطرحـوا افكـارا لا توافق المعتقـد الكاثوليكى • وناقش مجمع نيقيـا ، كل الافكـار التى كانت مطروحة وانتهى الى مقررات معينـة اصبحت فيمـا بعد أساس العقيدة الكاثوليكية •

وتتضح صلة ذلك بالرأى العـام مما ننقله فيما يلى بنصه عن العلامة

---

(١) تقول دائرة المعارف البريطانية انالآريوسية Arianism هرطقـة مسيحية ، كان آريوس Arius شيخ الكنيسة السكندرى أول من طرحها فى أوائل القرن الرابع الميلادى • وهى تؤكـد ان المسيح ليس فى الحقيقة الهـا ولكنـه مخلوق • (أنظـر الملحق الاول فى الملاحق الانجليزية) •

الانجليزى الشهير "Edward Gibbon" : « ولو اتيح لاساقفة مجمع نيقيا ان يتبعوا مقتضيات ضمائرهم غير المنحازة ، لما كان بوسع آريوس ورفاقه ، أن يمنوا أنفسهم بنيل أغلبية اصوات لصالح افتراض يتضاد مباشرة مع رأيين من اكثر آراء العالم الكاثوليكى شعبية وسرعان ما أدرك الآريوسيون خطورة موقفهم واتخذوا بوحى من العقل ، تلك الفضائل المعتدلة التى يندر ان يمارسها أو حتى يمتدحها فى حماة الخلافات الدينية وغير الدينية غير الجانب الاضعف ، فاوصوا بممارسة المحبة والاعتدال المسيحين واحتجوا بان موضوع الجدل ذو طبيعة مستغلقة واستنكروا اية الفاظ أو تعاريف لا يمكن العثور عليها فى الكتاب المقدس وعرضوا أن يسترضوا معارضيهم بتقديم تنازلات سخية جدا دون تخل عن صحة مبادئهم الخاصة وتلقى الجانب المنتصر كل مقترحاتهم – أى مقترحات الآريوسيون – بارتياب متصال ، وجدوا فى البحث عن نقطة خلاف تستعصى على الاتفاق ويؤدى رفضها الى توريط الآريوسيون فى اثم الهرطقة وما يترتب عليه (١) .

وبصرف النظر عن الخلافات الثيولوجية التى لا تعنينا فى هذا المقام فانه ما كان للآريوسيين وهم يعتقدون أنهم يمثلون وجهة نظر تتفق مع الكتاب المقدس أن يقترحوا التراجع عما يعتقدون . ويستبين من النص المستشهد به أثر الرأى العام فى ذلك .

وان كان العرض السابق يظهر علاقة المعتقد بالراى العام تأثيرا فيه وتأثرا به فان للمسالة جانبا آخر يؤكد اهمية صياغة الراى العام فى معتقد شامل على نحو يكفل لاصحاب السلطان تحقيق ما يستهدفونه

---

(1) Edward Gibbon, Decline and fall of the Roman Empire, Harmandsworth, pelican Books, 1963, P. 313. See Appendix II.

من استقرار النظام القائم (١) . ولذلك فاننا نرى أن الباحثين ينفقون الكثير من الجهد في تناولهم لدوافع تبني الامبراطور قسطنطين للمعتقد المسيحي كدين للامبراطورية الرومانيـة وعلى الاسباب السياسية التي حدت بـه الى ذلك . ولا يفوتنا أن نشـير الى أن العلاقـة بين العقيدة والرأى العـام لا يقف أثرها عند الحدود الاقليمية للنسق السياسى المعـين ، اذ أن العقيدة ـ سواء قامت على أساس من الوحي أو على أساس من الوضع ـ تجـاوز الدعوى اليهـا حـدود المجتمعات المعينـة ، فان الايديولوجيات تحاول دائما أن تخاطب الانسان بعامة .

الرأى العـام والقـوة العلمية

تستند ادارة الدولة بمعناها الحديث الى عديد من المؤسسات ومن بينها مؤسسة قد تتوزع عناصرها في مؤسسات مختلفة . وتتمثل في هؤلاء الافراد الذين لهم من الخبرات العلمية ما يجعل لآرائهم قيمة في تسيير أمور النسق السياسي القائم . وهؤلاء هم الذين نعنيهم في حديثنا عن القـوة العلمية الداخلة في تركيب القوة السياسية . وسواء تفرق هؤلاء الخبراء في أماكن مختلفة في النسق الاجتماعى أو اجتمعوا تحت صفة أكاديمية أو غيرها فانهم في ظل ايديولوجية معينـة يشكلون أداة هامة من أدوات توجيه الرأى العـام . ولنوضح ذلك نفترض مثـلا أن الايديولوجية التى يراد تطبيقها في النسق الاجتماعى تستلهم وحيها من النظرية الاشتراكية ، فانـه ينبغي أن يكون هؤلاء الخبراء جميعـا من المؤمنين ـ حقيقة أو ادعاء ـ بتلك النظرية . اذ أنهـم يشكلون في هذه الحـالة المصدر الذى تنبثق منـه الافكـار التى ستطرح على النـاس

---

(١) أنظر : الملحق الثالث في الملاحق الانجليزية .

وذلك يعنى أن لهؤلاء الخبراء دورا هاما فى صياغة الرأى العام وتوجيهه. وذلك يعنى أيضا أن دور هؤلاء الخبراء لا يقتصر على مناجزة خصوم العقيدة الاشتراكية فى داخل مجتمعاتهم وحسب ، وانما يتعدى الحدود الاقليمية للنسق السياسى ليتصدى لاعداء العقيدة فى العالم بأسره .

ولقد ذكرنا ذلك حتى يمكننا الانتقال الى الدور الذى تلعبه فروع العلم المختلفة فى صياغة الرأى العام العالمى والمحلى ازاء الايديولوجيات ودورها التاريخى . واذا شئنا أن نمثل لذلك فاننا نقول للدارس أن عليه أن يلقى نظرة على تاريخ العالم أو على تاريخ أمة بعينها من خلال الكتابات التاريخية التى قام بها كتاب ينتمون الى أيديولوجيات مختلفة فانك واجد ولا شك أن هذا التاريخ ـ سواء كان تاريخ العالم او تاريخ أمة معينة ـ يصطبغ بطابع الفكر الذى ينتمى اليه كاتب التاريخ . ويتجلى ذلك فى اوضح صورة اذا ما قرأنا التواريخ التى يصدرها العالم الغربى والتواريخ التى يصدرها الشق الماركسى من العالم .

وليس ذلك فحسب فان نعرات التراث القومية أحدثت أثرها فى فوارق نلحظها فى التواريخ التى يكتبها أناس ينتمون الى حضارة واحدة كما هى الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والانجليز والامريكيون .

واذا شئنا أن نضرب مثلا يعبر عن هذه الحقيقة فى واحد من جوانبها ، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى فى معالجته لاحداث الواقع الذى انقضى والتى يفترض أنها تخضع لمنطق التحليل والتعليل ، فاننا لا نعود الى أبعد من السنوات الاولى للحرب العالمية الثانية عندما استقر الامر لهتلر فى بولندا باخضاعها فى أوائل عام ١٩٤٠ ، ثم تقزت قواته بغتة من شرق أوربا للعمل فى غربها ، ووجهت ضرباتها

والعالم لا يكاد يفيق من ذهوله الى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج . وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر . واستبسل النرويجيون دفاعا عن وطنهم بعد ان افاقوا من وقع هذه المباغتة . وفى تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية على عجل لتعين النرويجيين فى صد الهجوم الالمانى . وبدى عندئذ ان نجاح الغزوة الالمانية أمر مشكوك فيه . ولكن الالمان أثبتوا فى نهاية الامر ان البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أندادا لهم . وأكرهت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار الى بريطانيا . وسقطت النرويج فى أيدى الالمان . وعهد بحكمها الى نرويجى خائن هو : فيدكون كويزلنج Vidkun Quisling الذى أضاف اسمه الى قاموس اللغة الانجليزية كلمة Quisling التى تعنى « خائن على استعداد لان يحكم بلاده لصالح غاز أجنبى » (أنظر Oxford) .

وأتاح غزو الدنمارك والنرويج للالمان الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة فى بحر الشمال التى تقع فى مواجهة الساحل البريطانى مما يقوى مركز هتلر بشكل خطير فى قتاله مع بريطانيا ثم عاود هتلر توجيه ضرباته ، وغزت القوات الالمانية فجأة دولتين محايدتين أخريتين، وهما بلجيكا وهولندا ، وسرعان ما قضت على قواتهما . ودفع بقوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين الجديدتين . ولكنها عجزت عن ايقاف الضربات القاصمة والسريعة التى وجهتها مجموعات الدبابات السريعة ــ فرق البانزر The Panzer dvisions ــ التى كانت تؤازرها أسراب كبيرة من الطائرات القاذفة . وتفتت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة .

ويصف المؤرخ الامريكى « سونويرث » ما حدث بعد ذلك قائلا :

« ان ليوبولد الثالث ملك بلجيكا ، وقد عجز عن ان يهضم ان تذبح قواته أمر كل الجنود البلجيكيين أن يلقوا بأسلحتهم » .

...King Leopold III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms,(1) .

وهذه العبارة على بساطتها ترتب خطوة « ليوبولد » الثالث كنتيجة حتمية لنا سبقها من احداث . ولكننا نجد ان المؤرخ البريطاني « هربرت جورج ويلز » يرى رأيا آخر في ذلك ، اذ يقول :

« وخطر للملك ليوبولد ، الذي كان قد لجأ الى فرنسا وبريطانيا ليعيناه عندما غزي بلده ، أن الوقت كان مواتيا عندئذ لعمل من اعمال الجبن الفائق والخيانة »

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of supreme cowardice and treachery".(2)

هذا ما يقوله ويلز ، بالرغم من انه ينعى على الفرنسيين في الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو الى ما وراء الحدود البلجيكية ، وأن خطة الحلفاء للتحرك العسكري من ناحية اليسار المكشوفة كان يعتورها نقص شديد .

---

(1) J.V. Southworthe The Story of the World, p. 436.

(2) H.G. Wells, A short History of the world, Harmondsworth, Pelican Books, 1956, p. 339.

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete".

ونحن نقدر تفهم « سومرفيل » لموقف الملك ليوبولد الثالث ، ونقدر في الوقت نفسه دوافع « ويلمز » في موقفه منه ، والذى يهم هو الحقيقة التى تخرج بهـا من تفهم هذا وموقف ذاك ، وهى أنه اذا كان الامر كذلك فيما يتعلق بحدث سأيا كان مبلغـه من الجسامة ــ له مقدماتـه التى لا ينبغى لمفكر أن يتجاهلها اذا كان يتوخى الموضوعية العلمية ، فماذا ستكون الحال اذا كان الامر يرتبط بالمعتقدات والايديولوجيات وما بينهما من سياسات ؟

وهذا المثال كما قلنا يظهر جانبا واحدا من جوانب المسألة التى تتعقد أيما تعقد اذا حاولنا أن نعدد أمثلتها ومجالاتها على امتداد تاريخ الانسان فى عجزه القديـم عن الحيـدة الموضوعية الـذى تضيف اليـه الايديولوجيات المعاصرة والاتصال الحديث فى كل يوم جدة وحدة ٠

ومن هنا نلاحظ أن فرعا علميا كالتاريخ وفلسفته أصبح لا يعنى فقط بتسجيل الواقع التاريخى كأحداث ، وانما يعنى أيضا بالكيفية التى يكتب بهـا هذا التاريخ ٠ وأن فرعا علميا آخـر كعلم الاجتماع أصبح يدرس ويقارن الظواهر الاجتماعية من خلال منظور الايديولوجية التى ينتمى اليها الباحث ، والفارق بين علم الاجتماع الماركسى ومدارس علم الاجتماع الغربى أوضح من أن نتناوله هنا بتفصيل ٠ وهذه الكيفية التى يكتب بهـا التاريخ أو تعالج بهـا مسائل علم الاجتماع هى التى تنبى عن الخلفية الايديولوجية للباحث ٠

الرأى العام فى منظور التاريخ

ان مصطلح « الرأى العام » الذى لم يتداول الا فى العصر الحديث قد يضفى على مفهوم الرأى العام غلالة من الحداثة توحى بأنه لم يرتبط بحياة الناس الا فى حقبها المتأخرة على حين أن الظاهرة التى يطلق عليها هذا المصطلح قديمة قدم قدرة الانسان على استخدام كلمة تعكس رأيه ٠

ولقد حاولنا حتى الان أن نشير الى بعض العناصر العامة التى يمكن أن يستخرج منها مفهوم للرأى العام ، ولم نجد هذه العناصر فى النطاقات المعاصرة فحسب وانما عدنا الى الوراء خطى محسوبة ووقفنا الى حين عند الفترة التى بدأ فيها معتقد شامل ، يطرح نفسه عبر كيان سياسى واسع يضم عناصر قومية مختلفة وذلك قبل ظهور قوميات العصر الحديث على النحو الذى تجلى ذلك فيه بطرح المسيحية نفسها كعقيدة للبشرية بأسرها ، فابتدأنا كضرورة منهاجية بالقرن الرابع الميلادى وأغضينا عن اليهودية مثلا رغم سبقها التاريخى فى الوجود لكونها ايديولوجية مغلقة تطرح نفسها على قوم معينين يرون أنهم شعب الله المختار ٠

وظهرت فى القرون التى سبقت المسيحية دعوات وفلسفات أخرى كثيرة فى الاتجاه الدينى ترتبط بمحاولة الانسان ايجاد اله له والوصول الى خالق الكون وهذه المحاولات قديمة قدم الانسان منذ أن كان انسانا بلا تاريخ مكتوب وبعد أن أصبح قادرا على تدوين تاريخه على ألواح أو جدران أو أوراق بردى ٠ وطالما أنه كانت هناك آراء تحاول أن تتعدى نطاق العقل الذى انبثقت منه الى عقول أخرى ، ومع نفقد صور اجتماع الناس فانه كانت هناك ولا شك محاولات لاحداث تغيير فى رأى

الآخرين يترتب عليها اعادة توجيه للمواقف التى لم تنحصر فى النطاق الدينى وانما تمدته بالضرورة الى السلوك الاجتماعى · وقراء التاريخ يقفون على هذه المحاولات وما يترتب عليها من آثار فى مسيرة البشرية فى تاريخ مصر القديمة وبابل وآشور وما تلاها من حضارات ·

فنرى مثلا ـ اذا ما رجعنا الى العهد القديم من الكتاب المقدس أن انبيـاء بنى اسرائيل كانوا يحاولون حينا أن يسوغوا ما يصنعه الحكام لدى جمهور النـاس ، ونراهم فى حين آخر يحاولون التأثـير فى هـذا الجمهور على نحو يؤثر فى سلوك الحاكمين ، ثم اذا ما انتقلنا بالنظرة الى اليونان القديمة نجد ان تصريف الامور فيها كان يقوم فى الاساس على ما يراه النـاس ، أى على قدرة هؤلاء الذين كان بوسعهم أن يؤثروا فى هذه الآراء او يغيروها ، ومن هنـا تبرز الاهمية الخاصة للدور الذى كانت تلعبه الخطابة فى ذلك العصر ·

واذا ما تجاوزنا النطاق الضيق نسبيا للمدينة اليونانية التى كانت فصاحة الفصحاء ومنطقهم يضفيان على وجه الحياة فيهـا قسماته ، الى الامبراطورية الرومانية التى كانت كيانا سياسيا Body politic معقدا بالقياس الى دول المدينة اليونانية ، نجد أن « الكلمة والخبـر » كان لهم أبلغ الاثر فى تشكيل الرأى العـام · وكانت الكلمة تنتقل من خلال الاتصال الشخصى من ناحيـة فضـلا عن أن الامبراطورية الرومانيـة استطاعت أن تبنى لنفسها شبكة من الطرق تربط بين أطرافها المتنائية وأقامت على هذه الطرق مراكز لا يفصل بين الواحد والآخر منها ، أكثر من مائة ميـل رومانى ، وكل منها مزود بالجياد وما الى ذلك بحيث يمكن للكلمة سواء أكانت مرسوما امبراطوريا او أمرا عسكريا أو غير ذلك أن تنتقل بسرعة كبيرة من أقصى الامبراطورية الى أقصاها ·

.. وفي مرور حضارة الانسان بما اصطلح المؤرخون على تسميته بالقرون الوسطى كان للحياة على وجه العموم طابع تلعب فيه مكانة الفرد دورا بالغ الاهمية ، وذلك بالنظر الى الترتيب الهرمي الذى كان سائدا على المستويين الدينى والمدنى فى انفصالهما أو تداخلهما • فاذا ما نظرنا الى المجتمع الاوربى فى تلك العصور وجدنا أن هذه الهرمية(١) تزدوج على نحو أدى الى صراع بين البابوات من ناحية وبين الاباطرة والامراء الحاكمة من ناحية أخرى • وكان على كل هذه الاطراف أن تحاول التأثير فى الرأى العام كل بما أتيح له من وسائل تؤازرها السماء أو وسائل تؤازرها الارض • وكانت الدعاية الدينية المليئة بالسياسة تتخذ اشكال المواعظ • وكان رجال الدين والامراء والنبلاء لا يعدمون شاعرا مغنيا يتغنى بمعجزات القديسين وامجاد الحاكمين • وكان هذا الشاعر المغنى الجوال يسمى بآل تروبادور Troubadour (وهى كلمة من التراث الضخم الذى ورثته الحضارة العربية لحضارة الغرب ، اذ أنها مشتقة من الكلمتين العربيتين « دور طرب » اللتين قلبتا فأصبحتا « طرب دور » •

ولما آذنت القرون الوسطى بانقضاء وبدأت اسوار مدنها تنهار كنتيجة مبكرة لظهور الدولة القومية كان العامة قد أتيح لهم قدرا اكبر من المعرفة والالمام بالقراءة والكتابة مما أتاح للكلمة المكتوبة ــ ولو أن ذلك فى نطاق لا يقارن بأى حال بما ساد فى القرون التى تلت ذلك ــ تلعب دورها فى التأثير فى آراء الجموع والمساهمة فى فرض صيغ اجتماعية أو سياسية او دينية بعينها • ونعمق أثر الكلمة باختراع

---

(١) أنظر : اسماعيل على سعد ، نظرية القوة ، الفصل الرابع •

الطباعة ، وازداد هذا الاثر خطورة عندما بدأ « مارتن لوثر » (١) في ثورته البروتستنتية يخاطب العامة بلغتهم بعد أن كانت الصفوة Elite من أصحاب الاتجاه الانساني Humanists تستخدم اللغة اللاتينية في كتاباتها · وهذا يعني أن أفرادا بعينهم بداوا يجتمعون تحت لواء أفكار او مفاهيم بحيث يشكلون جماعات ذات آراء متسقة ومؤثرة تناجز بعضها البعض في كل ما يتعلق بحياة الانسان وفكره من أمور ·

ونلاحظ بعد ذلك ان كلا من السلطة الدينية والسلطة المدنية حاولتا وتحاولان - بالرغم من تماسكهما حينا وانفصالهما حينا آخر - ان تخضعا كل مسالة ذات صلة بالتاثير في الرأى العام لضرب من ضروب الرقابة · ونستدل لذلك من الناحية التاريخية باول مثلين لهاتين السلطتين في اتخاذ الرقابة التي فرضتاها شكلا ظاهرا · ففي عام ١٥٥٩ أصدر البابا بولس الرابع اول قائمة Index Librorum Probitnforum تحظر الكنيسة الكاثوليكية بمقتضاها تداول كتب معينة لا ينبغي للمؤمن في نظرها أن يقرأها · وتتمثل في هذا بالطبع محاولة السلطة الدينية فرض رقابة علنية على وسيلة من اهم وسائل نشر الفكر والتاثير في الراى في ذلك العهد · كما اننا نجد أن شارل التاسع أصدر في عام ١٥٦٣ مرسوما يقضي بأنه لا ينبغي ان يطبع أى شيء دون الحصول سلفا على موافقة خاصة من الملك · وفي هذا تتجلى اول محاولة تقوم بها السلطة المدنية لفرض رقابة علنية على الكلمة المطبوعة ·

---

(١) انظر :

James Atkinson, Martin Luther and the Brith of Protestantism, Harmandsworth, Pelican Books, 1968.

ويلاحظ من ناحية اخرى ان هذه الكلمة المطبوعة كان تداولها فى تلك الآونـة مقتصرا على دوائـر ضيقة نسبيا من الصفوات التى كان الامر بيدها ، وبدات بد ذلك بواكير ما انتهى بنـا الى الصحافة ومراكز الاخبار كما نعرفهـا فى الوقت الحـالى والتى تطلبت ـ كما تتطلب الان ـ اشكالا أو أخرى من الرقابة تتناسب مع ما تتناوله من موضوعات لهـا مساس بشتى جوانب الحياة وبمـا يدور فيها من صراع اجتماعى سياسى وخاصة تلك الانمـاط من الصراع التى تـدور بين الجماعات المؤثرة فى مسيرة المجتمع أو المجتمعات وحروب العقائد والسلاح التى تنشب بينها ٠ وقد تعقدت هذه الرقابة التى بدأت بقرار بابوى وبمرسوم ملكى ، على مـر الايام وبتعقد امور الحكم والسياسة فى عالمنا المعاصر بحيث أصبح الظاهر منهـا والخفى يمارس بأكثر الوسائل علمية وتعقيدا ٠

واذا عدنا بالنظرة الى الوراء لنتـأمل الفترة التى آذنت بانقضاء العصور الوسيطة نجد ان الامراء والنبـلاء كانوا يعتمدون فى حروبهم اول الامـر على اتبـاع Vassals لكنهـم اضطـروا بعـد ذلك الى أن يستاجروا جنودا ليقوموا بالقتال ، وتطلب ذلك مبالغا كبيرة من الاموال التى لم يكن فى طوقهم تدبيرها عند نشوب الحرب ممـا جعلهم يقترضون هذه الاموال ، وكان لابد لمقرض المال من أن يحاول تبين مـدى قـدرة المقترضين على السداد الامر الذى أدى الى العمـل على توفـير المعلومات المتعلقة بالمقترض لدى الاوساط المقرضـة ، فنجد اذن أن هناك رأيا معينا بخصوص افراد معينين يجمع عليه مقرضـوا المـال وكان هذا الـرأى ولا شك يؤثر فى قدرة الحكام على القيام بالحرب أو مواصلتها ٠

واثر هذا الراى الـذى تعلق عند نهاية القـرون الوسطى بافراد يتولون أمور انفسهم او جماعاتهم ، نراه بعد ان تعقد وتعقدت أحـوال

الدنيـا والايديولوجيات من حوله بالغ الاثر فيمـا يتعلق بأمور الدول وخاصة دول العالم الثالث التي أصبحت القروض والتسهيلات التي تمنح لهـا والتي تستخدم في أغراض التنمية والتسليح وما الى ذلك ترتبط ارتباطا وثيقـا بالآراء التي تتشكل عنها في الاوساط المهيمنة على عالم السياسة والمـال (١) في عالمنا المعاصر من ناحية ومن اتجاهاتها الايديولوجي من ناحية أخرى . سواء كان المقرض أو مانح التسهيلات مؤسسة يملكها أفراد أو منظمة من المنظمات كالبنـوك وصندوق النقد الدولي والسوق الاوربية المشـتركة وليست أخبار اللجـان التي يبعث بهـا البنك الدولي للانشاء والتعمير لبحث واقع اقتصاد دولة معينـة ببعيـد عن مسامعنا .

ودون أن نستطرد في ذكر التفاصيل التاريخية التي أعقبت العصر الوسيط ينبغي لنـا أن نشير الى أن الثورة الفرنسية التي قامت بها جموع الشعب تعتبر فيصلا بين رأي واحد يحد في نطاق الطبقة البرجوازية وبين الرأي العـام الذي يسود بين جموع الشعب الفقيرة . وان كان هذا لا ينفي أن الرأي العـام قد يرتبط في الاساس بمصالح الطبقة أو الجماعة أيا كانت تسميتها .

ومن محاولات تعريف الرأي العـام المبكرة ، المعبرة ، التي أوردتها دائـرة المعـارف البريطانيـة تلك التـي قـام بهـا الشـاعر الالمـاني Christoph Wieland اثر قيام الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث جسام في أوربا :

---

(١) أنظر :
Fred Hersch, Money International, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

« انى افهم الرأى العام على انه ذلك الرأى الذى يترسخ بين شعب باسره وخاصة بين اولئك الذين يكون لهم اكبر تأثير اذا ما عملوا معا كجماعة . والذى يكون على هذا النحو صاحب اليد العليا بحيث نلقاه في كل مكان . فهو رأى يستحوذ في خفاء على معظم العقول ، ويمكن التعرف عليه حتى في المواقف التى لا يجرؤ فيها على التعبير عن نفسه صراحة ، من خلال نبرات الهمس المكتوم الذى تعلو نبراته شيئا فشيئا . ثم لا يتطلب حينئذ سوى منفذا صغيرا يتيح له متنفسا ليندفع في قوة . ويستطيع أن يغير كل الامم في وقت قصير ، ويعيد تشكيل أجزاء العالم باسرها » (١) .

وتضيف دائرة المعارف البريطانية أن الفيلسوف الالمانى Christian Garve الذى كان معاصرا للشاعر Christoph Wieland يركز على الجانب العقلى للرأى العام اذا يقول « ان الرأى العام كما يفسره أكثر الكتاب الفرنسيون وضوحا في تناول الموضوع هو اتفاق الكثيرين من مواطنى دولة ما او غالبيتهم فيما يتصل بالاحكام التى يصل اليها كل فرد على حده نتيجة لتدبره أو لمعرفته العملية لمسألة بعينها (٢) » .

ثم تضيف الدائرة أن الفيلسوف الانجليزى Jeremy Bentham وهو أول من تناول مشكلة تعريف الرأى العام بالتفصيل في اللغة الانجليزية راعه ما يكتنف هذه المحاولة من صعوبات ، فرأى أن هذا المصطلح ينبغى أن يراعى في استخدامه العرف العام ، بمعنى أن

---

(١) انظر الملحق الرابع (a) في الملاحق الانجليزية .

(٢) انظر الملحق الرابع (b) في الملاحق الانجليزية .

محاولته تعريف الرأى العام ترتبط بالمجتمع الذى تجرى فيه هذه المحاولة .

ويحسن أن نقف بعرضنا التاريخى المقارن عند هذا الحد لننتقل بعد ذلك الى محاولات التعريف الحديثة للرأى العام ، وينبغى لنا أن نشير قبل هذا الانتقال الى أنه قد يعن لبعض أصحاب المنهج أن يتساءلوا لماذا تأخرنا بهذا العرض التاريخى المقارن الى ما بعد الاشارة الى الرأى العام والايديولوجية ومحاولة تعريفهما وبيان علاقتهما ببعضهما البعض وما تنطوى عليه هذه العلاقة من عمليات اتصالية على سبيل الابتداء ، والرد فى بساطة هو اننا توخينا أن نعطى القارىء مؤشرات يستطيع بوساطتها أن يستكنه بعض جوانب ما يسمى بظاهرة الرأى العام أو ما يمكن أن يكون رأيا عاما على نحو أو آخر من خلال هذا العرض التاريخى المقارن . فهذا العرض اذن فى مكانه وان تأخرنا بموضعه على غير ما هو مألوف .

الفصل الخامس

تعريف الـرأى العـــام

- الرأى العام فى النطاق المحلى .
- الرأى العام فى النطاق الدولى .
- تعريف الـرأى العــــام .

الرأى العام فى النطاق المحلى

ان ظاهرة الرأى العام هى من تلك الظواهر المجتمعية ذات الجوانب المتعددة ، وهى على وضوح أثرها فى موقف معين لا تلبث أن تراوغ منهج الباحث الذى يحاول أن يلم بهـا فى شمول يستجمع كل جوانبها لا فى موقف واحد وحسب ، وانمـا فى كل المواقف التى يرى فيها آثار هذه الظاهرة وهى تحرك الامور أو تفرض عليها مسارا أو آخر .

والانسان فى محاولته المستمرة للملاحظة والتوصيف والتقسيم والتعريف يجب أن يعرف الاشياء فى قوالب ثابتة لهـا من الجمع والمنع ما يمكنه من فهم حقائقها على نحو لا تلتبس فيها ببعضها البعض . وواقع الامر أن ثمة فوارق عديدة بين العلم بمعناه العملى الذى استطاع أن يهيىء لنفسه معايير تقف عند الحجوم والاوزان وما الى ذلك من صفات أو خواص تقاس على نحو يتيح للباحثين فى مجالاته أن يلاحظوا ويقننوا فى يسر نسبى ، وبين ما يسمى بالعلوم الانسانية التى تتعرض بالدرس فى مجالاتها المختلفة لظواهر تجاوز نطاقاتها وأحوالهـا وخواصهـا كل قدرة عملية على القياس ، ويترك الامر فيها الى قدرة الباحث على رؤية العلاقات بين الاشياء واستكناه حقيقتها . وهذه القدرة فضلا عن اختلافها من انسان الى انسان ترتبط أيضا بالمنظور الذى يرى الباحث من خلاله الامر المعين ويعالجه .

ومن هذا يتبين أن العقل الذى استطاع أن يبتدع معايير يقيس بهـا فى العمل قياسات يمكن أن تدعى لنفسها قدرا من الدقـة ، لـم يستطع فى نطاق العلوم الانسانية أن يتيح لنفسـه مثل هذه المعايير .

وتتجلى هذه الحقيقة أكثر ما تتجلى فيما حاوله ويحاوله الباحثون

من تعريف لظاهرة « الرأي العام » فقد انقسموا ولا زالوا ينقسمون بعد طول عناء بين منكر لهذه الظاهرة ، ومعترف بها على قصور في القدرة على تعريفها ومسلم بوجودها متصد لمحاولة تعريفها / والواقع أن هذا الاختلاف البين لا يروعنا في كثير . فاذا كانت المادة ـ Matter ـ التي اعتقد الباحثون لقرون طويلة أنها ثابتة في عناصرها الاولى على الاقل وحاولوا تعريفها على هذا الاساس قد كشفت في القرن الاخير عن امكانية احداث تغيير في تركيبها بحيث يستحيل العنصر الى عنصر آخر، مما جعل الباحثين يعرفونها تعريفات مختلفة في أحوال مختلفة / فما الذي يمنع الباحثين في مجالات العلوم الانسانية أن يتصدوا لتعريف ظاهرة معينة بتعاريف مختلفة اذا اختلف المنظور الذي نتناول منه هذه الظاهرة أو اذا اختلف السياق الذي توجد فيه / ونحن في رأينا هنا لا ننأى عن الاصل في التعريف الذي يقوم على تقصي الصفات أو الخصائص المشتركة للاشياء مع استبعاد ما قد يؤدي منها الى الخلط بين أشياء قد تشترك في سمات وتختلف من حيث الجوهر / فالعبرة اذن ليست في أن الظاهرة تختلف بعض سماتها أو بعض آثارها من مجال الى مجال ، وانما العبرة في أن هناك خطوطا من العلاقات الجوهرية تربط ما بينها بالرغم من اختلاف المنظور أو السياق .

وترتيبا على ذلك فاننا لا نتفق مع هؤلاء الباحثين الذين ينكرون ظاهرة الرأي العام ولا نقتنع بقصور الذين يعترفون بهذه الظاهرة ويحارون ازاء تعريفها ./ ونجد في كل تعريف وضع حتى الآن لهذه الظاهرة شيئا منها وان اختلفت هذه التعريفات ، ولا قيمة اذن للاختلافات الموجودة بينها طالما أنها لا تباعد بين الظاهرة وجوهرها . وحسبنا أن نلقي نظرة على الاتجاهات السائدة في تعريف الرأي العام ثم نحاول أن نضع تعريفا أقرب الى الجمع والمنع بقدر ما تسعفنا الطاقة .

خاصة وانا نلاحظ مع وولتر ليبمان (١) ان الاتجاه السائد ، في النظم الديمقراطية هو أن الباحثين في مسألة الرأى العام يجنحون الى الالغاز من ناحية ، ونلاحظ من ناحية أخرى أن العاملين في مجالات صناعة الرأى لا يعنيهم أن يقفوا ليعرفوا الرأى العام بنفس ما تعنيهم محاولة التأثير في ذلك الرأى ، فالعاملون في مجال العلاقات العامة أو أولئك الذين يحاولون تهيئة رأي عام انتخابي معين في الولايات المتحدة الامريكية وغيرها على سبيل المثال يصرفون جل همهم الى التأثير في الرأى على نحو يهيىء الفرص لخدمة مصالح معينة أو تهيئة رأى عام انتخابي معين .

ونحن نلاحظ أن الباحثين السياسيين وبعض المؤرخين يجنحون في دراستهم لظاهرة الرأى العام الى التركيز على الدور الذى تنعكس آثاره على ادارة الدولة وتخطيط سياستها على نحو جعلهم ينظرون الى الرأى العام وكأنه لا يختلف عن « الارادة القومية » ، وبهذا المعنى لا يمكن أن يكون هناك الا رأيا عاما واحدا ازاء قضية واحدة في وقت واحد .

وتعريف الرأى العام على أنه الارادة القومية ازاء موضوع معين في زمن معين صحيح على الاجمال وان كان لا يتعرض للكيفية التي صيغ بها هذا الرأى ولا للعوامل البيئية والنظمية والتاريخية التي تشكل خلفية الافراد والجماعات الداخلة في تكوين المجتمع الذي يتشكل فيه الرأى العام .

(١) أنظر :

Walter Lippmann, Public Opinion, N. Y. Pelican Books, 1946, p. 191 seq.

ويلاحظ في الوقت نفسه أن علماء الاجتماع يميلون الى النظر الى الرأي العـام على أنه نتاج للتفاعل الاجتماعي والاتصال ، وهذا يعني أنه يرتبط بالمواقف المعينة التي يتخذها الافراد والجماعات ازاء قضية معينة والتي تشكل رأيا عاما أو آراء متعددة ازاء أي قضية أو كل قضايا المجتمع من خـلال العمليات الاتصالية المتنوعة والمستمرة بين الافـراد والجماعات والتي تتعلق بكل شئون الحياة على ما فيها من تفاهة أو مالها من خطـر ، ولا يستطيع أحد أن ينكر على سبيل المثـال أن اتباع نمط معـين في الزي أو تصفيف الشعر يشكل معنى من معاني الرأي العـام وما يصدق على ذلك ينصرف الى أمور كثيرة في حيـاة الناس اليومية • وتناول الرأي العـام بهذه الكيفية ومن هذه الجوانب ينأى بهذه الظاهرة نسبيا عما يتعلق بأمور الحكم ، ونقول نسبيا لان هذه الجوانب ليست بمنـأى تـام عن الاقتصاد وعن أمور قد تكون ذات صلة بمـا هو سياسي، وان كان تركيز علماء الاجتماع لا ينصرف في الغالب الى شئون الادارة والحـكم •

واختلاف الافـراد والجماعات والاذواق يؤدي بالضرورة الى وجود آراء عامة متعددة كما يستخلص ممـا أسلفناه ، وهذه الآراء تتفاوت في الاهمية والخطر ، وقد نستطيع أن نسمي بعضها رأيا عاما مغلقا ، على ما في العمومية من ظهور وما في الانغـلاق من خفـاء • ونقصد بالرأي العـام المغلق مرحلة من مراحل تكوين الرأي يقتصر فيها على الهمس الذي يدور بين أفراد الاسرة الواحدة أو جماعة من الاصدقاء والذي يشكل رأيا عاما ولكنه محدود الاثر وقد يتاتى له أن يخرج الى الناس ويتسع نطاقه أو يبقى حيث هو كما هي الحـال في النظم التي قد لا يتـاح فيها لمثل هذه الآراء أن تطفو وتؤثر في النطاق السياسي أو الايديولوجي •

الرأى العام فى النطاق الدولى

بدأ الانسان مسيرته فى هذا العالم وحيدا ، أو يوشك أن يكون وحيدا ، ثم دفعت به ضرورات الحياة ومقتضياتها الى أن يأتلف فى جماعة بدائية تعقدت أحوالها بمضى الوقت من ناحية ، وتحولت الجماعة الى جماعات متفرقة لم يكن فى وسعها أن تأتلف أو تختلف ، الا فى حدود النطاقات التى تهيىء سبيل البقاء الانسب كما يقول الآخذون بنظرية التطور . ولم تكن هناك وسيلة للاتصال من خلال رموز اللغة التى بدأت بسيطة ومباشرة وترتبط بما هو ملموس والتى قدر لهما بعد ذلك أن تستحيل الى أداة تؤثر التأثير كله فى حياة الانسان على كل مستويات حسه ووعيه وكل ما يتصل بوسائل عيشه وفكره . وقد اوفى القرآن العظيم على كل غاية فى الدلالة البالغة التى تنطوى عليها الآية الكريمة التى تجمل ما نحاول التعبير عنه بهذه السطور :

« يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير » (١) .
فالمتأمل لمعانى هذه الآية الكريمة يستطيع أن يرى فيهما الانسان اذ بدأ وحيدا ، وانتقاله الى الجماعة / والعبرة التى تنطوى عليها هذه الانتقالة من اتصال الناس لتجد الحياة أسبابها وتسعى الى مقاصدها ، وما يترتب على ذلك من حسن ادارة لهذه الحياة اذا استطاع الانسان أن يستلهم المثل العليا المتفقة التى تصلح من شأنه وترتب اوجه حياته .

وبنى هذا الانسان الذى ألقى به على درب الحياة وحيدا الحضارات التى دارت ودالت ثم توالت الى أن انتهت جماعة الانسان الى عالم القرن

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

العشرين الذى أوشك الاتصال فيه أن يلغى ما بين الامم والشعوب من حدود ، وتيسرت سبل هذا الاتصال ووسائله على نحو حدا بقائل أن يقول ان العالم قد تقلص حجمه . وكان على هذه الجماعة الانسانية أن تسمى سميها ، على ما فيها من فوارق الجنس واللغة والمعتقد فى سبيل تحقيق القدرة على الائتلاف وموازنة المصالح بحيث تقل المنازعات وتنتهى الحروب . واستطاع الانسان أن يعطى نفسه قبل الحرب العالمية الثانية « عصبة أمم » ثم أعطى نفسه بعدها « هيئة أمم » يحاول من خلالها أن يتفق على رأى أو آراء يعينه الاجتماع عليها على التقليل من الاخطار التى تهدد أمن الانسان وسلامته وقوته وثقافته وكل مقومات حضارته (١) .

ويستبين مما أسلفنا أنه يستحيل على الانسان أن ينغلق على نفسه فى نطاق الجماعة التى تعودت على تسميتها بالدولة وانه لابد لهذه الدولة أن تعيش وتتبادل المصالح على شتى المستويات فى نطاق مجتمع دولى يتألف من دول العالم كافة / ولما كان لكل دولة أن تحاول تحقيق مصالحها القومية بالتعاون مع دول أخرى كان لزاما على هذه الدولة أن تحترم مصالح هذه الدول / واستطاع الانسان فى مسيرته الطويلة أن يهيىء من الوسائل ما يكفل له تهيئة المناخ الذى يلائم هذا التعاون الدولى فأوجد الاعراف والقيم والنظم والتنظيمات التى تعين على تحقيق ذلك ، والتى تتمثل على سبيل المثال ـ فى الاعلان العالمى لحقوق الانسان (٢) ، والقوانين والاعراف الدولية وهيئة الامم المتحدة والاجهزة التابعة لها .

---

(١) أنظر الملحق الثانى من الملاحق العربية .

(٢) أنظر الملحق الثالث من الملاحق العربية .

واذا ما القينا نظرة على هيئة الامم المتحدة بجمعيتها العامة ومجلس امنهـا نجد ان العمل فى تلك الجمعية وهذا المجلس يقـوم على أساس عملية التصويت ؟ وذلك يعنى ان ثمـة عمليات اتصالية لابد من ان تتم لتشكيل او صياغة راى معـين قبل اتخاذ اى قرار من قرارات الامم المتحدة والتى تتعلق كما هو معروف بكل مـا يهـم الجماعة الانسانية كمجتمع دولى • ويترتب على ذلك ان هناك رأيا عاما دوليـا يستطيع فى احوال كثيرة ان يؤثر فيمـا يسود العالـم المعاصر من نظـم وسياسات وأيديولوجيات •

ولا يقلل من أهمية هذا الرأى أو شأنه أن الانسان هو الانسان - رغم جهده واجتهاده - وأنه كثيرا ما ينزع الى التعدى والعدوان مدفوعا بهوى المصلحة تارة وبعصبية العرق أو تعصب الايديولوجية فى تارات أخرى • فاذا ما تجاوزنا الجمعية العامة للامم المتحدة لنقف قليلا عند مجلس الامن نجد أنه يحق لاى عضو من الاعضاء الخمسة الدائمين (١) فى هذا المجلس أن يستخدم ما يسمى بحق الاعتراض Veto او الفيتو ازاء أى قرار يجمع عليه غالبية الاعضاء الدائم منهم والمنتخب اذا لم يتفق هذا القرار مع مصلحتها أو هواها • والتاريخ القريب بما فيـه من حـرب باردة وسياسات الاستقطاب والاحلاف السياسية والعسكرية خير شاهد على المصلحة والرابطة بينهما وبين الايديولوجيات المعاصرة فى غير ما حاجة الى بيـان فى القرارات التى يتخذها مجلس الامن من ناحية والجمعية

---

(١) الاعضاء الدائمـين فى مجلس الامن الولايات المتحـدة الامريكية واتحاد الجمهوريات السوفيتية والمملكة المتحدة وفرنسـا وجمهورية الصين الشعبية •

العامة لهيئة الامم المتحدة من ناحية اخرى فى شتى الامور التى تتصل بقضايا العالم المعاصر والتى ترتبط ارتباطا وثيقا بأمن الانسان وحريه ٠

وغنى عن البيان بالطبع ان للامم المتحدة أجهزة عديدة استطاعت وتستطيع من خلال الاتصال والاتفاق أن تؤدى خدمات جليلة فى مجالات ثقافة الانسان وتنمية قدراته وصحته وأمنه ورعاية طفولته ولاجئيه من ضحايا الفكر وحروب الطبيعة والانسان الى ما غير ذلك مما يتجلى فى أدوار منظمة « اليونسكو » UNESCO (١) ومنظمة الصحة العالمية WHO (٢) ومنظمة الاغذية والزراعة FAO (٣) والصندوق الدولى لرعاية الطفولة UNICEF (٤) ووكالة الاغاثة والتشغيل UNRWA (٥) ٠

والرأى العام العالمى — سواء انتهى الى قرارات تتخذها أجهزة ومنظمات ولجان الامم المتحدة أو ادى الى التأثير فى مواقف الجماعات الانسانية من خلال قنوات الاتصال الكبرى أدوارا يلعبها العمل على تصفية الاستعمار والتصدى للاتجاهات العنصرية وفرض الجزاءات على الدول كما هى الحال فى حالة جنوب افريقيا وروديسيا ، وان كانت مصالح بعض الدول وجماعات الضغط قد تقف احيانا حجر عثرة فى طريق استكمال

---

(1) United Nations Educational, Scientifi & Cultural Organization.

(2) World Health Organization.

(3) Food & Agriculture Organization.

(4) United Nations International Children's Emergency Fund.

(5) United Nations Relief & Work Agency.

هذه الجزاءات لفاعليتها ، والمثل القريب الدال على ذلك تلك الفضيحة التي أثيرت في هذه الايام في بريطانيا والتي يطلقون عليها اسم : Oilgate قياسا على فضيحة Watergate الامريكية الشهيرة والتي كانت القشة التي قصمت ظهر الرئيس نيكسون ـ عندما تبين أن شركات النفط البريطانية كانت تقوم بامداد روديسيا بالبترول بالرغم من قرار الحظر الذي فرضته الامم المتحدة على ذلك عام ١٩٦٦ · والاستخفاء بعمليات الامداد هذه بالغ الدلالة على اهمية الراى العام الدولي والمحلي معا في السياسات المعلنة للحكومات التي كثيرا ما تضطر الى تبني شعارات تخاطب بها مجتمع الانسان ، ثم تسلك سلوكا مجافيا لروح هذه الشعارات أو ينبي عن الانحياز في اطار فكري أو أيديولوجي معين كما هي الحال عندما نلاحظ أن الولايات المتحدة الامريكية تعلن أنها تتخذ موقفا متشددا ازاء الدول التي لا تحترم فيها حقوق الانسان وتنحى باللائمة على كوبا والاتحاد السوفيتي وتتبنى قضية المنشقين عليه ، ثم لا تلبث أن تطيل اغضاء الطرف عما يجري في ايران أو نيكاراجوا وما يلقاه الانسان من عنت على يدي دكتاتور يهدر كل الحقوق ·

ومن اقرب الامثلة على اضطرار الادارة الى الالتزام أمام الرأى العام السائد بين جماهير شعبها بقيم معينة ، حتى فيما يتعلق بقضايا لا تصطبغ بالصبغة المحلية المطلقة ما نراه من أن الادارة الامريكية لم تستطع قبل انتهاء انتخابات نصف المدة التي أجريت في السابع من نوفمبر ١٩٧٨ Mid - term elections أن تؤيد الحكومة العسكرية التي شكلت في « ايران » على اثر الاضطرابات الاخيرة ، ثم أيدتها هذه الحكومة تأييدا كاملا بعد ذلك · ونحن نورد هذا المثل لدلالته البالغة

١ ـ **الافكار** : من الفكرة الواحدة الى النسق الفكرى (الايديولوجية او العقيدة) ٠

٢ ـ **المواقف** : التى تترتب على الافكار عند الافراد والجماعات فى النطاقات المحلية والقومية ، والداخلية والخارجية ٠

٣ ـ **ونطاقات** هذه المواقف تشمل كل ما يهتم به الانسان أو يمس حياته كفرد ينتمي الى نفسه أو الى جماعته او الى جماعة الانسان او كنسق اجتماعي يشترك في سمات قومية وحضارية تحدد قضاياه وتصل او تباعد ما بينه وبين الانساق السياسية الاجتماعية الاخرى فى مجتمع الدول ٠

٤ ـ **اتفاق او اتساق** : العدد الاكبر من الافكار الكاملة أو المواقف فى حدود موضوع أو موضوعات بعينها هو الحصيلة التي يعتد بها كحكم أو رأى ازاء هذا الموضوع أو هذه الموضوعات ٠

٥ ـ **وفاعلية** هذا الاعتداد نلمس أهميتها على المستوى الرسمي فى النطاقات الداخلية في الغالب وعلى المستوى غير الرسمي فى النطاقات الخارجية فى الغالب ٠

٦ ـ **دواعي المصلحة** الفردية او الجماعية أو دواعي الانتماء الايديولوجي هي الدوافع الحاسمة وراء محاولات صياغة وتعديل الرأى ٠

٧ ـ صياغة الرأى والتأثير فيه يتمان من خلال عمليات **الاتصال**٠

٨ ـ اثر الرأى العام قد يكون **جسيما او محدودا** تبعا لمقدار القوة القادرة على تحقيق الاذعان والمتاحة لدى أصحاب القرار ٠

وهذا يعني أن الحاجة الى القوة اللازمة لتحقيق الاذعان قد تتناسب عكسيا مع كفاءة الاتصال ٠ وليس ثمة قيمة سلبية مطلقة للفشل

التسبب في الاتصال اذا ووزن مثل هذا الفشل بالقدر المتناسب من القوة المحققة للاذعان اذا كانت تلتزم بقيمة أخلاقية او موضوعية ٠

ويعن لنـا بصدد ما انتهينا اليه من اشتراط التزام القوة المحققة للاذعان بالاخلاقية والموضوعية أن تشير الى أن غيبة هـذا الشرط هي الفيصل بين الديكتاتورية المطلقة غير الواعية والفاشية من ناحية وبين الممارسة السياسية الاجتماعية التي تتوخى صالح النـاس الذين قـد لا يتأتى لهم في كل حال أن يعوا صالحهم في نطاق الجماعة كائنا ما قد تكون التسمية التي يطلقها المصنفون على النسق السياسي الذي تتم فيه هذه الممارسة ٠ ومن الواضح أن الكثير من النظم الليبرالية تستعيض بـادىء ذي بـدء بالزيف والتزييف في العمليـات الاتصالية عن اظهار ما لابد لها من أن تنتهي اليه من استخدام لقـوة القهر اذا بـاء زيفها او تزييفها بالفشـل ٠

واحسب انه يحق لنـا بعد أن فصلنا التفاصيل ، ثم حاولنا من خلال التجريد أن نحـدد العناصر الداخلة فـي ظاهرة الـرأى العـام أو المرتبطة به أن نحاول وضع تعريف عام لهذه الظاهرة التي نلاحظ أن الباحثين وقفوا عندها حائرين وترددوا واختلفوا ولم ينته بهم سعيهم الى غاية تشفي غله ٠ لقد توخينا في تعريفنا ضربا من البساطة غير المخلة، اذ تستطيع العين المتأملة أن تنفذ من خـلال صياغتنا الى الحقائق التي أقمنا عليها هذا التعريف خاصة بعد أن جردناها في العناصر الثمانية السالفة ، والتي ننتهي فيها الى أن الرأى العـام عندنا هو :

« حصيلة أفكـار ومعتقـدات ومواقف الافـراد والجماعات ازاء شـأن أو شئون تمس النسق الاجتماعي كأفراد وتنظيمات ونظم ، والتي يمكن أن يؤثر في تشكيلها من خلال عمليات الاتصـال ، التي قد تؤثر نسبيا أو كليـا في مجريات أمور الجماعة الانسانية على النطاق المحلي أو الدولي » ٠

الفصل السادس

الدعاية

- تمهيد .
- الدعاية وتباين نطاقاتها .
- الضغط العاطفي .
- دعاية أم تعليم .
- الدعاية غير المتعمدة .
- الدعاية عن طريق الرقابة .
- تعريف الدعاية .

الاسلحة ودمارها . ولعلنا مع التفاؤل نرجو الا يستعاض عن خراب البنيان بخراب الوجدان .

ولا ينبغى لنا على كل حال أن ندع الصراع الايديولوجى ، وان كان بالغ الخطر في آثاره على مسيرة حضارة الانسان ، يفوت علينا فرصة رؤية الجوانب الايجابية الهامة للعمليات الاتصالية . اذ لا شك أن الفكرة الطيبة والمعتقد الاصيل ما كان ليبلغ اى شان في محاولة المصلحين من بنى الانسان لتهيئة المناخ الملائم لتقدم البشرية على دروب فكرها وحياتها . ولا ينبغي للفظة الايديولوجية أو ما تضطر اليه الايديولوجية من صراع يقوم في الكثير من جوانبه الهامة على الدعاية او ما ارتبط بكلمة الدعاية من مدلولات سيئة ، ان تنسأى بنظرتنا عما قد تنطوى عليه الايديولوجية أو المعتقد من مضمون يستهدف صالح الجنس البشرى . ولا يستطيع احد أن يزعم أن الايديولوجية الدينية على سبيل المثال تستهدف الفرقة بين النـاس . ومـا ارتبط بالايديولوجيات الدينية من صراع وفرقـة صبغت وتصبغ حقبا طويلة من التاريخ لا يرتبط فـى الاساس بمحاولة الانسان الوصـول الى الله الحق بقدر ما يرتبط بما هو سياسى Political أو بما هو ممارسة لقوة سياسية Political Power أو نزوع لسلطان . اذ أننا نرى أن النسق الذى يقوم في أول الامر على التركيز على ما هو روحى يستحيل بعد أن تكفل له القوة الروحية قدرة على التاثير في جموع الناس الى نسق تغرى فيه قلة من الناس أو صفوة منهم ــ مدفوعة بحب الانسان للانسان أو بحبه لنفسه أو بتعصبه أو بعصبيته ــ بممارسة ضرب من القوة لا يقتصر على استلهام ما هو روحى أو الهى . فتبرز الى الوجود أنساق يتمثل فيها سلطان الكهنوت الذى أعطى فى تاريخ البشرية أمثلة واضحة على النأى الكامل عن جوهر المعتقد الخالص . ونلاحظ فى

هذه الاحوال أن الانساق الثيوقراطية قد لا تختلف فيما تحاوله من تبشير عن الانساق التى تقوم على أيديولوجيات وضعية فيما تتخذه من ضروب الدعاية والاعلان · وقد تبقى مشكلة الانسان الفرد هى هى فى اقتناعه وانكاره ، أو فى ضياعه واغترابه ، بما هو أو بين ما هو معتقدى أو سياسى على التباس فى الامر شديد ·

على أنه اذا قدر لصفوة الفكر بين البشر أن تستطيع تخليص نفسها من نوازع الهوى والغرض وأن تلتزم جادة العقل وروح التجرد ، فانها ستخلص ولا شك الى أن الانسان وان لم يستطع فى استكناهه لصفحة الكون المطروحة على عقله ووجدانه أن يهتدى الى الطريق المؤدية الى الله الواحد الحق لا بد له ، حتى يبقى ، من أن يسلم بأن أبناء البشرية ينتمون الى عالم واحد وان تباينت انتماءاتهم المعتقدية عبر التاريخ بين جوبتر وابوللو وآلهة الشرك فى القديم وبين أوثان العصر الحديث التى تجرى فى عروقها الدماء وتستبد بها الاهواء ، مع ضيعة الدين الحق بين فلسفات المتفلسفين وتهويمات المهومين ·

وكلامنا هنا ليس من قبيل التعليق بقدر ما هو محاولة توصيف لواقع تاريخى حيا ويهيىء أنسب مناخ ترتبط به الاهمية القصوى لعمليات الاتصال ·

وننتهى اذن الى أن « الدعاية » ركيزة من ركائز اجتماع الانسان وسمة بارزة من سماته ، سواء التبست امور السياسة والمعتقد أم اتضحت . وسواء اختلفت المصالح أم التقت فما هى هذه « الدعاية » اذن ؟ أهى مجرد الاعلان ، الذى يقدم على أنه اعلان وتصحبه الموسيقى أو الرسوم على شاشات التليفزيون ابن القرن العشرين المدلل والذى

يروج لسلعة أو لاخرى ؟ ام هي ذلك البرنامج حسن الاخراج الذى يتسلل الى وعيك مستهدفا تحييزك أو تحييدك ليضيف قوة الى رأى معين أو ليستلب بعض قوة هذا الرأى ؟ أم أن الدعاية هي الصحافة في اعلانها المباشر أو غير المباشر ؟ أم هي الكتاب او المرجع ؟ أم هي غير ذلك ؟ هي ذلك كله . وغير ذلك كله في آن وفي غير آن .

لننظر الى ما يعرف قاموس اكسفورد الدعاية Propaganda به . بدأ القاموس بتعريف ما اصطلح على تسميته بـ « الدعاية Propaganda معرفة بـ « الـ » على أنه مجمع أو لجنة الدعاية وهي لجنة من الكرادلة يناط بها مهمة التبشير الخارجي ، ثم مضى القاموس في تعريف « الدعاية » على أنها جماعة ، أو خطة منظمة لنشر معتقد او ممارسة ، أو انها جهود وخطط ومبادىء هذا النشر (١) .

ويشير القاموس الى ان كلمة Propaganda لفظة ايطالية مأخوذة عن اللاتينية الحديثة في التسمية "Congregatio de Propaganda Fide" أى مجمع أو لجنة نشر العقيدة . وهي اللجنة التي انشاها البابا Urban الثامن في عام ١٦٣٣ لتتولى مهمة التبشير الخارجي والتي أصبحت كلمة « الدعاية » المقرونة بأداة التعريف The Propaganda تنصرف اليها كما يتبين من التعريف الاول للكلمة وترجع هذه اللفظة الايطالية الى

---

(1) (Congregation, College, of) the propaganda, Committee of cardinals in charge of foreign missions - 2 - Association, organized scheme for propagation of a doctrine or practice; doctrines, information, etc. thus propagated, efforts, schemes, principles of propagation.

الفعل اللاتيني Propagare الذي يعني اعادة غرس المسلوح ليعطي نبتا جديدا في مكان جديد · ولا تزال هذه اللجنة تقوم بعملها في الفاتيكان حتى اليوم ، وينظر الى مهمة التبشير على أنها عمل نافع يتيح الفرصة لغير المسيحيين ليتعرفوا على تعاليم المسيحية ، وأنه لولا مثل هذا التدخل لما أمكن للمسيحية أن تجتذب الى حظيرتها الكثيرين من الاتباع ·

ومن الواضح في هذه الحالة أن الذين يقومون بالتبشير يعمدون الى ذلك بعد تدبر ، بمعنى أنهم يقومون بضرب من الدعاية الواعية المتعمدة والتي كانت ولا شك ترتبط بنية طيبة وقصد حسن ·

الدعاية وتباين نطاقاتها

ومشكلة الدعاية أو الدعوة في النطاق الديني تتمثل في ان الانسان المعين يقف في السياق الحضاري او التاريخي المعين عند حدود مفاهيم دينية معينة ، ولا يسمح لنفسه أو لا يسمح له النظام الكهنوتي بأن يمد نظره الى ما وراء هذه الحدود ، وان قدر له أن يدرس ما مضى كتاريخ فعليه ألا يأخذ بما تلى كمعتقد · ومن هنا ينشأ الصراع بين عقيدة ترى انها أصيلة وعقيدة ترى أنها تضيف وتجري على سنة التطور · ولا نخرج بهذا من دراستنا لدين ودين آخر على سبيل المقارنة وحسب ، وانما نخرج به أيضا من دراستنا للمعتقدات المختلفة والسابق واللاحق في نطاق الدين الواحد · ولهذا نلاحظ من ناحية أن المعتقدات الدينية تجد نفسها مضطرة الى الاستعانة بضروب من الدعاية (١)· ازاء بعضها البعض ، على حين أنه يتعين على هذه المعتقدات من ناحية أخرى أن تتصدى بالدعاية للافكار الالحادية التي تحاول بالدعاية أيضا أن تقضي عليها ·

---

(١) انظر G. Cronkhite, op cit., pp. 79-80, 204.

واذا كان للدين في وجدان الانسان مكان ومكانة فان قدرة الانسان على استقراء صفحات الوجود والكون من حوله تزيدها رعاية وقوة وعمقا وتقيمها على أساس متين ، وما اروع القرآن العظيم فى عمقه واعجازه اذ يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » (١) .

واذا كنا نلاحظ أن بعض أصحاب الايديولوجيات يزعمون أن ما يدعون إليه راسخ فى وجدان الانسان على نحو يجعلهم فى غير ما حاجة الى دعاية ، وأن مسيرة التاريخ ستعكس ما فى الوجدان على الوجود ، فما هذا كله الا من قبيل الدعاية .

ونستطيع مما أسلفنا أن نتبين معالم مجالين أساسيين من مجالات الدعاية وهما مجال الدعوة الى الدين ومجال الدعوة ضد الدين على التباس بين مجالات الفكر ومجالات السياسة ولهذا أعطانا التاريخ ويعطينا أمثلة لا حصر لها من دعاة يمكن ان نفرق بينهم على انهم دعاة دين أو دعاة سياسة . ولا نقول دعاة فكر او اصحاب فلسفة . فالافكار والفلسفات متوزعة هنا وهناك .

وارتبطت كلمة الدعاية كما أسلفنا فى بداياتها الاولى بالدعوة التى تستهدف التقويم كما ترتبط عند بعض المفكرين بحسن الظن فى قدرة الانسان على فهم طبائع الاشياء والحكم عليها اذا أتيح له أن يفهم ويستخلص . فنلاحظ ان William Godwin يرى فى كتابه Political Justice عام ١٧٩٢ أن الانسان كائن تحكم سلوكه آراؤه . فالرزيلة خطأ ، والاخطاء يمكن ان يقومها التعليم . ويقول

---

(١) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ .

جودوين : « أرنى فى جلاء لا لبس فيه أن التصرف على نحو ما معقول فى حد ذاته ، أو أنه موف لغايتى ، فستجدنى التزم بكيفية التصرف هذه طالما بقيت الآراء التى تقترحها على ماثلة فى ذهنى » (١) • ويصل جودوين باستدلالاته الى النتائج المنطقية التى كان لابد أن ينتهى اليها فيقول : « واذا جعلت مقتضيات العدل الواضحة فى متناول كل قدرة •• سيصبح النوع البشرى كله معقولا وفاضلا • وسيكتفى المحلفون عندئذ بأن يوصوا بالطريقة التى نسوى بها المنازعات ••••• ثم انهم سيكتفون أيضا بدعوة المسيئين الى أن ينصرفوا عن غيهم ••• وحيث يعترف الجميع بهيمنة العقل على هذا النحو ،فانه سيكون على المسيىء أن يستجيب لتحذيرات السلطة واذا ما عن له ألا يستجيب فانه ، وان كان أحد لا يتحرش به يستشعر وطأة الضيق ازاء الرفض الواضح لمسلكه وأعين الناس التى تترصده وتحكم عليه على نحو يجعله راغبا فى الانتقال الى مجتمع أقرب الى موافقته فى غيه (٢) •

والقيمة الكبرى التى يربطها « وليم جودوين » بالعملية التعليمية تم بلغة العصر ، بالاعلام فى محلها ولا جدال • ولكن الآمال الكبار التى يعلقها على العملية التعليمية تعكس حسن ظن يوشك ألا يجد له مبررا فى تاريخ البشرية قبل جودوين وبعد عصره بحوالى قرنين من الزمان • ولا يفوتنا أن نستحضر فى الذهن ما سبق أن أشرنا اليه من أن بعض فروع

---

(١) غنى عن البيان أن الغاية فى هذا السياق لا ترتبط بما هو دنيىء •

(٢) بمعنى أنهم لن يضطروا الى اصدار أحكام ، على أساس أنه بعد بيانهم لجوانب الحق ومقتضيات العدل سيلتزم الناس بها •
(أنظر الملحق الخامس فى الملاحق الانجليزية) •

العلم ومناهجه اصبحت في عصرنا ضروبا من ضروب الدعوة او الدعاية .

ولفظة الدعاية التي ارتبطت في أول الامر برغبة خيرة ، أضفى عليها قرننا العشرون غلالة سيئة لا تعدو أن تكون في نظر الكثيرين سوى ضرب من ضروب الكذب المتعمد الذي يقوم بـه الفـرد او الجماعة في شتى مجالات الحياة بقصد التاثير في عقول الناس وتشكيل مواقفهم على نحو يتفق في كل حال مع ما هو صحيح . وانه لمما يؤسف حقـا أن نجد أن الانسان ، وهو المستهدف بكل افانين الدعاية والاعلان أمتحن ويمتحن في صميم معتقده على نحو أدى ويؤدى الى اغترابه من ناحية ، والى توارى القيمـة الحقيقية من ناحية اخرى ويزيد من سوء ذلك أن أصحاب القيمة، بالحقيقة أو بالتوهم قد يجدون أنفسهم وهم في حماة الدعاية والاعلان مضطرين الى اتبـاع مناهج تعمد الى الاخفاء أو الالتواء حتى يستطيعوا أن يجابهوا خصومهم بفعالية وأن يبلغـوا مقاصدهـم . ونمثل لذلك ببعض الايديولوجيات التي تعمد عند طرحها لمبادئها في مجـال معين الى الاستخفاء مرحليا ببعض هذه المبادىء او التعاليم اذا كانت تتناطح تناطحا مباشرا مع معتقد سائد أو ضارب الجذور بين الناس أو في تراثهم الى ان تستطيع أن تجتث شأفة هذا المعتقد آخر الامر ان وجدت الى ذلك سبيلا .

ويستدل من ذلك على أنه في عملية الدعاية اصبحت حقيقة المعتقد في حد ذاتها تأتي في مرتبة من الاهمية تتلو مرتبة الصورة التي يطرح بهـا هذا المعتقد ، أو التي يعن لاصحاب المعتقد أن يطرحوها ، على الناس. والجهل يلعب أهم دور في ذلك ، اذ ما كان يتأتى لاصحاب الراى او الفكر أن يطرحوه على نحو لا يتمشى في كل حال مع واقعه ما لم يفترضوا سلفا أن المتلقى يجهل أو لم يؤت بعد القدرة على ان يعلـم بالرغم من أن مـا يطرح عليه على نحو مغاير موجود في مصادره ، ويحمد أصحاب هذا الراى

او الفكر آلهتهم على ان البشرية فى مجموعهـا ليست من اهـل التقصى أو البحث كما يستدل من ناحية اخرى على أن المتلقى بخلفياته عنصر هام فى حسابات صانعى الرأى ومطوعى العقول •

واذا شئنا أن نحدد على وجه التقريب الفترة الزمنية التى بدأت كلمة « الدعاية » تلتبس فيها بشكل حاد الظلال السوداء التى تكتنفها فاننا نرجع فى التاريخ القريب الى الحرب العالميـة الاولى (١) التى اتسمت فيها حروب الانسان بطابع شامل واستخدمت أساليب الدعاية الكاذبة على أوسع نطاق ، وعمد المتحاربون الى تلفيق ونشر الكثير من الاضاليل والاخبار التى تجرد الخصوم من انسانيتهم وتربط بينهم وبين أكثر صور التعدى والتجاوز بشاعة •

وان كانت هذه الاساليب والمناهج قد لعبت دورها ابان الحرب العالميـة الاولى ، فان الكشف عنها ، خلال الفترة التى اعقبت الحرب العالميـة الاولى وسبقت الحرب العالمية الثانية أدى فى حد ذاته الى احداث تغيير سلبى فى مشاعر الناس ازاء المنتصرين من ناحيـة ، والى جعل المهزومين يعزمون على ان يستخدموا نفس الاساليب والمنـاهج بطريقة أفضل اذا ما اتيحت لهم الفرصـة - وبدأ الناس ينظرون الى الدعاية على أنها شيء خادع يفترض الغفلة فيهم ، ويبتغى السبيل الى عقولهم سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه • وترتب على ذلك محاولات عديدة وخاصة فى الدول التى تقدمت آداتها الفنية لاستنباط مناهج جديدة أشـد خفـاء وأكثر فاعلية تحسن استخدام قنوات الاتصـال ، وانتهـى الامـر الى ارتباط الدولة الحديثة فى صميم بناءاتها بهذه المناهج والاساليب على

---

(١) أنظر : W. Lippmann, Public Opinion, pp. 81-83

النحو الذي بيناه في غير موضع ٠ وبدأت كلمة الدعاية في الحقبة الاخيرة تكتسب معان وظلال معان وتعبر عن مجموعة متنوعة من الاساليب والنظم على نحو يجعل تعريفها أمرا صعبا اذا كان لنا أن نلمح آثارها ونستطيع التغلغل فيما وراء اقنعتها ٠ ومع ذلك فان معناها ظل يرتبط على وجه العموم بظلال السلب أكثر منه بظلال الايجاب ٠

وبعد أن كانت هذه الكلمة تستخدم للدلالة على أن فردا أو جماعة يحاولون طرح شيء ما على افراد آخرين او جماعات اخرى بقصد اخبارهم به وجلاء خصائصه أو نفعه ، باتت اليوم تعني ، فيما تعني ، اضفاء صفات غير حقيقية على شيء يطرح على المتلقي ، وعملية الاضفاء هذه وعملية التلقي ترتبطان الان بتكنيكات تتعقد على نحو انتهى بهما الى ما يطلق عليه « غسيل المخ Brainwashing » ٠

واذا ما استرجعنا ما سبق أن بيناه في هذا السياق من الاهمية التي ترتبط في عملية الدعاية بالمتلقي وخلفياته يتبين على الفور أن التعريف القاموسي الذي سبق أن أوردناه أصبح قاصرا ، اذ أنه لم يتعرض للظلال والجوانب المعقدة التي ترتبط الان بمصطلح « الدعاية » ٠ كما يتبين ان للدعاية خصائص أخرى وأن فعاليتها والشكل الذي تتخذه يرتبطان ارتباطا وثيقا ببناء المجتمع الذي تجري فيه وما هو متاح لهذا المجتمع من وسائل فنية ٠

الضغط العاطفي

ولعل الذي يحدونا الى محاولة الاضافة الى التعريف القاموسي أن الدعاية أو من يقوم بالدعاية لا يتصدى في كل حال بنشر معتقد معين أو ممارسة معينة ، اذ لا ينصرف ذلك الى مضامين ما يحاول نهش عقولنا

من أخبار وإعلان . ولا نستطيع القول بأن الذين يقومون بالدعاية ابان الحروب يحاولون احداث تغيير فيما نعتقد اذ أنهم يوجهون في الحقيقة جهودهم الى التأثير في عواطفنا و كسب موافقتنا أو تحييزنا الى جانب أو آخر .

وهذا يعني أن محاولة التأثير في العواطف أو ما يسمى بالضغط العاطفي ، سواء أكان هذا الضغط يستهدف خلق شعور جمعي ، سلبي أو ايجابي ، ازاء شيء معين سواء كان يستهدف مجرد طرح آراء تقوم على أساس عاطفي ، ليس شيئا عارضا في عملية الدعاية بل هو الشيء الاساسي فيها . اذ من الواضح أن مخاطبة العقل المجرد تتخذ في العادة أسلوبا أو منهجا يختلف في الاساس عن أساليب الدعاية ومناهجها .

ويستدل على ذلك من أن النهج السقراطي في الاقناع ، على سبيل المثال ، والذي كان يقوم على توجيه أسئلة الى تلاميذه تهديهم الى حلول المشكلات والمسائل التي كانوا يثيرونها ، كان ينتهي بهم الى الوصول الى الحقيقة فيما يتعلق بهذه المشكلات و المسائل ويحدث تغييرا فعليا في آرائهم على أساس منطقي ودون ما محاولة للتأثير في عواطفهم . ولا يمكننا في هذه الحالة أن نقول أن سقراط كان يقوم بدعاية بشكل أو آخر ، في حين انه من الواضح أن أصحاب الدعاية لا يلتزمون عادة جانب المنطق الصارم . واذا ما طرحوا أسئلة فانهم يطرحونها وقد تهيأت لها سلفا في أذهانهم اجابات محددة . فضلا عن انهم قد يطرحونها بتكتيك أو طريقة تكفل الوصول الى هذه الاجابات المحددة . وينبغي أن نلاحظ انه لا يمكن لاحد أن يحتج بما كان لسقراط من ثقة على أنه عامل من عوامل التأثير أو الضغط العاطفي . ونستخلص من هذا أن الدعاية لا تأخذ بالمحاباة الاصيلة من جهة ، وانها وان كانت تستهدف تغيير

ما في العقول، فان تغيير الآراء لا يرتبط في كل حال بالدعاية ونلاحظ أثر هذه التفرقة فيما يتوخاه أصحاب الايديولوجيات من استخدام كلمة « الدعوة » بدلا من كلمة « الدعاية » ، على ما هنالك من تلبس واضح بين المعنيين ٠

ونستطيع أن نستجمع الفوارق الواضحة بين النهج السقراطي والمنهاج الذي يقوم في الاساس على الضغط العاطفي اذا ما ألقينا نظرة على أسفار العهد القديم ورأينا كيف يستخدم أنبياؤه فصاحتهم ليصرفوا بني اسرائيل عن عبادة الآلهة الزائفة ويوجهونهم الى عبادة « يهوه » ويحاولون أن ينتزعوهم عما كانوا منغمسين فيه من ممارسات سيئة ، فالواضح هنا أنه كان لهؤلاء الانبياء غاية محددة يدعون اليها وأنهم يستخدمون في سبيل بلوغ هذه الغاية ما يسميه الباحثون « دفاعا خاصا Special Pleading » ، كما انهم كانوا يستخدمون أسلوب الوعظ والتهديد بما ستنزله العناية الالهية من قصاص ٠ ودعنا نتأمل الآيات التالية من سفر اللاويين ، وهو السفر الثالث من البنتاتيوك اى أسفار موسى الخمسة :

« ولا تصنعوا لكم أوثانا ولا تقيموا لكم تمثالا منحوتا أو نصبا ولا تجعلوا في ارضكم حجرا مصورا لتسجدوا له لاني انا الرب الهكم ٠ سبوتي تحفظون ومقدسي تهابون ٠ أنا الرب اذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي وعملتم بها اعطي مطركم في حينه وتعطي الارض غلتها وتعطي أشجار الحقل اثمارها ٠ ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتاكلون خبزكم للشبع وتسكنون في أرضكم آمنين ٠ واجعل سلاما في الارض فتنامون وليس من يزعجكم وابيد الوحوش الرديئة من الارض ، ولا يعبر سيف أرضكم وتطردون اعداءكم فيسقطون امامكم

بالسيف • يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط اعداؤكم امامكم بالسيف • والتفت اليكم واثمركم وافي ميثاقي معكم • فتاكلون العتيق المعتق وتخرجون العتيق من وجه الجديد • واجعل مسكني في وسطكم ولا ترذلكم نفسي • واسير بينكم واكون لكم الها وانتم تكونوا لي شعبا • انا الرب الهكم الذي أخرجكم من ارض مصر من كونكم لهم عبيدا وقطع قيود نيركم وسيركم قياما •

لكن ان لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا وان رفضتم فرائضي وكرهت انفسكم احكامي فما عملتم كل وصاياي بل نكثتم ميثاقي فاني اعمل هذه بكم • أسلط عليكم رعبا وسلا وحمى تفني العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم • واجعل وجهي ضدكم فتنهزمون امام اعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم • وان كنتم مع ذلك لا تسمعون لي أزيد على تاديبكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم • فاحطم فخار عزكم واصير سماءكم كالحديد وارضكم كالنحاس • فتفرغ باطلا قوتكم وارضكم لا تعطي غلها واشجار الارض لا تعطي اثمارها وان سلكتم معي بالخلاف ولم تشاءوا أن تسمعوا الي أزيد عليكم ضربات سبعة اضعاف حسب خطاياكم • اطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الاولاد وتقرض بهائكم وتقللكم فتوحش طرقكم • وان لم تتادبوا مني بذلك بل سلكتم معي بالخلاف فاني انا اسلك معكم بالخلاف واضربكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم • أجلب عليكم سيفا ينتقم نقمة الميثاق فتجتمعون الى مدنكم وارسل في وسطكم الوبا فتدفعون بيد العدو بكسري لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم في تنور واحد ويرددن خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون •

وان كنتم بذلك لا تسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف فانا اسلك معكم بالخلاف ساخطا وأؤدبكم سبعة اضعاف حسب خطاياكم . فتاكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تاكلون . واخرب مرتفعاتكم واقطع شمسانكم والقى جثثكم على جثث اصنامكم وترذلكم نفسي . واصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا اشتم رائحة سروركم . واوحش الارض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها . واذريكم بين الامم واجرد وراءكم السيف فتصير ارضكم موحشة ومدنكم تصير خربة .

حينئذ تستوفي الارض سبوتها كل ايام وحشتها وانتم في أرض اعدائكم . حينئذ تسبت الارض وتستوفي سبوتها . كل ايام وحشتها تسبت ما لم تسبته من سبوتكم في سكنكم عليها . والباقون منكم القى الجبانة في قلوبكم في أراضي أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضهم ببعض كما من امام السيف وليس طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين الشعوب وتاكلكم ارض أعدائكم والباقون منكم يفنون بذنوبهم في أراضي أعدائكم . وايضا بذنوب آبائهم معهم يفنون .

لكن ان اقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم في خيانتهم التي خانوني بها وسلوكهم معي الذي سلكوا بالخلاف واني ايضا سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم الى ارض اعدائهم الا ان تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم (١) .

ثم الآيات التالية من « سفر العدد » وهو السفر الرابع من البنتاتيوك أيضا :

---

(١) سفر اللاويين ، الاصحاح السادس والعشرون ، الآيات ١ ــ ٤١ .

« او اقام اسرائيل في شطيم وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب . فدعون الشعب الى ذبائح آلهتهن فاكل الشعب وسجدوا لآلهتهن . وتعلق اسرائيل ببعل فغور . فحمي وغضب الرب على اسرائيل فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن اسرائيل . فقال موسى لقضاة اسرائيل اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور واذا رجل من بني اسرائيل جاء وقدم الى اخوته المديانية امام عيني موسى واعين جماعة بني اسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع . رأى ذلك فينحاس بن العازار ابن هرون الكاهن قام من وسط الجماعة واخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الاسرائيلي الى القبة وطعن كليهما الرجل الاسرائيلي والمرأة في بطنها . فامتنع الوبا عن بني اسرائيل . وكان الذين ماتوا بالوباء اربعة وعشرين الفا .

فكلم الرب موسى قائلا : فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن قد رد سخطي عن بني اسرائيل بكونه غار غيرتي في وسطهم حتى لم افن بني اسرائيل بغيرتي » (١) .

ولئن كنا قد اكتفينا في الاستشهاد بايراد النصين السالفين من الاسفار الخمسة الاولى في العهد القديم ، فان بقية اسفار هذا العهد توفي في مجموعها على الغاية في هذا الصدد . وواقع الحال ان اسلوب الدعوى ، الذى ينطوى على الضغط العاطفي بوسائله المختلفة يتناسب ولا شك مع حال الانسان ومع سلوكه الذى لم يعكس في كل حال عبر

---

(١) سفر العدد ، الاصحاح الخامس والعشرون ، الآيات ١ ــ ١١ .

تاريخه الطويل القدرة على الاستجابة الى منطق العقل ومقتضيات الضمير.

وينبني ما استشهدنا به ، وكما هي الحال دائما فيما قد نعرفه بالايديولوجية ، بأن الداعية اذ يتصدى لخلق مواقف معينة لدى المتلقين ، يحاول في الوقت نفسه أن يزيغ غيرها من المواقف التى لا تتفق مع دعواه أى أنه بقدر ما يعنيه أن ينشر معتقدا معينا أو ممارسة بعينها يعنيه في الوقت نفسه أن يجتث شأفه ما يتضاد مع هذا المعتقد أو تلك الممارسة .

دعاية ام تعليم

ويترتب على ذلك أننا لا نستطيع أن نستخدم لفظة « الدعاية » فى مجالات ما يعرف على أنه ايديولوجي الا اذا توافرت بدائل تتجه الدعاية الى ازاغتها أو القضاء عليها . أما الدعوة الى معتقد في نطاق يهيمن فيه هذا المعتقد دون بديل لا يمكن أن تكون من قبيل الدعاية ، وانما تكون من قبيل التعليم .

وهذا يلفت نظرنا ، اذا ما نحينا الجانب الايديولوجي جانبا الى أنه من الممكن أن نستخدم لفظة الدعاية فى الحالات التى يستهدف فيهما محاربة ممارسات أو عادات أو اعراف سيئة كالتدخين مثلا أو شرب الخمر أو ما يصاحب بعض الممارسات الاجتماعية من تقاليد ما أنزل « الله » بها من سلطان ، وكلنا يلمس ذلك فى الحملات التى تقوم بها الاجهزة المختلفة بين حين وآخر للدعاية ضد شيء معين ، أو للدعوة الى شيء قد لا يكون له بديل ظاهر وانما يكون متضمنا فيما يقوم به الداعين من دعوة أو دعاية .

ولا جدال فى أن سبيل الاتصال الحديث ووسائله أضافت كما سبق أن اسلفنا فعالية غير محدودة الاثر أو النطاق للدعاية . واذا قصرنا النظرة على الكلمة المطبوعة كوسيلة من أهم وسائل الدعاية وأبقاها أثرا ،

خاصة بعد انتشار الالمام بالقراءة والكتابة والمحاولات الدائرة للقضاء على الامية ، فانه يحق للكتاب ، ونحن ابناؤه أن يتصدر قائمة ما نهتم به ، ولا يعبر ذلك عن انحياز من جانبنا اذ ان الكتاب بالفعل هو أكثر أشكال الكلمة المطبوعة دواما وإبقاءا أثرا برغم مـا للاشــكال الاخرى كالصحافة مثلا من قدرة على الابهـار واحداث الاثر المباشر •

الدعاية غير المتعمدة

وقضية الكتاب تثير مسالتين . اولاهما مسالة ما يسمى بالدعاية عن غير وعي أو دون عمد . والثانيـة مسالة الرقابـة • وهمـا مسالتان لا ترتبطان بالكلمة المكتوبـة وحسب ، وان كانت الرقابـة على الكلمة المطبوعة أيسر منها على الكلمة المتداولة بين الناس • ولكي نمثل لذلك فاننا نلاحظ أن الكتاب الاقدمـين التبسوا انتشـارا أوسع بعـد عصر الطباعة من ناحية وأن مؤرخـا « كهيرودوت » ، من ناحية أخرى ، اكتسبت له كتاباته اسم ابى التاريخ ، ويرى البعض في عصرنا الحديث أنه لم يكن سوى داعية منحاز الى الدولة الاثينية ، شانه في ذلك شأن المرتزقة من صحفى القرن العشرين • وواقع الحال أن هيرودوت لم يكن على وعي بانحيازه لدولة مدينته ، ولم يكن يستطيع في تلك الحقبـة أن يعطينا معلومات موضوعية عما سواهـا من بقـاع العالم التى كانت غير معروفة آن اذن أو التى لم تكن مربوطة ببعضها البعض بوسائل الاتصال المختلفة التى طورها الانسان في مسيرته الطويلة • وهذا يعنى أنه كان يقوم بدعاية عن غير وعي للدولـة الاثينية • وهـذا الضرب من ضروب الدعاية عن غير وعي يقوم كما هو واضح على جهل الداعية النسبى بما هو واقع خارج نطاقات اتصاله أو قدرته على الاتصال • على أن أصحاب بعض الايديولوجيات في عصرنا الحديث يعمدون الى تعقيد هذا المفهوم البسيط

للدعاية عن غير وعي اذ يرون أن ما يعتقدون منبث في وجدان الانسان وسوف يتيح له سير التاريخ أن ينعكس في عالم الواقع • وهم بذلك ، وان كانوا يميلون الى الاعتقاد بانهم أصحاب عقول تقف عند حدود المنطق ، يجنحون الى ضرب من ضروب الغيبية الواضحة •

والكلام في مسألة الدعاية عن غير وعي على النحو الذي أسلفناه يجرنا بالضرورة الى المسألة الثانية وهي مسألة الرقابة ، اذ من الملاحظ أن التعبير الحر عن الافكار كان عبر التاريخ شيئا بالغ الندرة ، ولا يزال كذلك ، وان هذا التعبير الحر لم يكن بأي حال مرادفا للموضوعية التي يدعيها الكثيرون ولا يلتزمها أحد • اذ من الواضح أنه لم يكن من المتاح في ظل ما يسمى بالنظام القديم ، في تاريخ الانسان أن يعبر احد عن رأيه خارج نطاق معين أو خلفية معينة ترتبط بالسلطة والسلطان وأنه عندما سادت أنساق أفكار معينة في فترات معينة كانت الحقيقة في نظر الناس هي تلك التي تطرحها هذه الانساق ، خاصة وأن عملية الطرح هذه ، أو الدعاية ان شئت ، كان يقوم بها المتعلمون أو الصفوة المسيطرة في مجالات السلطة بالمعنى المعتقدي أو السياسي • ونستطيع أن نقرأ ذلك كله في جلاء في صفحة التاريخ القديم والوسيط على قصور أداته ، وأن نستشفه في عناء من صفحة التاريخ الحديث على تقدم أساليبه • وتبقى الآصرة التي تربط ما بين الانسان والجهالة صديقته القديمة هي من حيث القوة والقدرة على وضع القيود على العقول ، على نحو لا زال يظهر ويدل على أن الحقيقة بالنسبة للجماهير تنبع من السلطة ولا ترتبط الا في القليل بما يقيم وعيهم الدليل عليه أو بما ينتهي اليه التفكير المستقل • وعلى هذا فقد مورست ضروب الرقابة المختلفة في القديم

والحديث مع اختلاف في الحجة والتبرير ، وكلنا يعرف أنه قد قضى على سقراط بأن يموت بالسم لاتهامه بافساد الناشئة ، بينما كان يحاول في حقيقة الامر أن يعلمهم كيف يفكرون ويستقلون بآرائهم ٠

ويتضح من هذا أن الدعاية ترتبط ارتباطا وثيقا بأشكال الرقابة التي تحاول الا تفسح أي مجال لظهور افكار بعينها أو القضاء عليها لصالح أفكار أخرى تقوم عليها أو تتبناها السلطة المهيمنة (١) ٠

وكلامنا هذا ، مع دلالته على غيبة التدفق الحر للافكار لا ينطوي بالضرورة على معاني الجور في جانب السلطة أو معاني الفساد في جانب الافكار ٠ وانما هو اشارة لصراع القوى الداخلة في تركيب المحصلة التي نسميها بالقوة السياسية ، ازاء بعضها البعض في النطاق الواحد وبين المحصلات المختلفة في النطاقات المختلفة ، أما الجور والفساد فيقاسان بمعايير أخرى ٠

واذا كانت الدعاية ترتبط كما بينا بحظر نشر بعض المعلومات عن طريق فرض رقابة ، فان ذلك لا يعني أن مثل هذا الحظر يرتبط دائما بالدعاية كما هي الحال فيما نلاحظه في تاريخ الانسان من انغلاق بعض الطبقات والانظمة الهنوتية ومحاولتها حجب أسرارها عن العامة الذين قد يضارون — في أي أصحاب الكهانة — اذا اتيح لهم أن يطلعوا على ما لا يستطيعون فهمه ٠ ومن ناحية أخرى فان الدول جميعا تحتفظ في العادة

---

(١) أنظر في محاولة السلطة أو النظام الدفاع عن نفسه عن طريق الدعاية :

G. Mosca, The Ruling Class, U.S.A. Mc Grow-Hill, 1939, pp. 315 - 319.

بأسرار معينة تحول دون تسربها حفاظا على مصالحها القومية • بيد أن هذه الوصاية الفكرية التى يفرضها الكهنوت من ناحية أو الرقابة على الاسرار القومية من ناحية اخرى ، كثيرا ما يساء استخدامها على نحو لا تتنادى معه الاغراض المعلنة التى تبرر اتباعها •

وهذا الذى نقول انطبق وينطبق على ما ساد المجتمعات البشرية منذ عهودها الاولى ، ولا عبرة فى ذلك لما طرأ على هذه المجتمعات من اختلاف فى أبنيتها الاجتماعية السياسية ، فان رجعنا الى وراء والقينا نظرة على مصر القديمة وبابل وآشور نلاحظ صدق ما نقول • واذا تقدمنا الى أمام حتى قرننا العشرين فاننا لانعدم كهانات الكهان واستغراق الاجهزة الاتصالية فى عمليات توعية لا تعدو أن تكون تعمية •

الدعاية عن طريق الرقابة

يتبين مما سبق أن « الدعاية » ، تتم فى العموم باحدى طريقتين ، اما بنشر المعلومات أو بحجبها جزئيا أو كليا • وهذا الحجب يتم من خلال العمليات الرقابية المتنوعة ، وتتمثل هذه الرقابية فى اتجاهين أساسيين ، أولهما ما يسمى بالضبط الانتقائى للمعلومات الذى يترتب عليه طرح وتعزيز وجهة نظر معينة ، وثانيهما التلفيق المتعمد للمعلومات على نحو يكفل احداث انطباع يغاير القصد الاصلى منها •

ويتمثل الضبط الانتقائى للمعلومات ، فيما سبق الاشارة اليه عن قائمة حظر الكتب Index librorum Prohibitorum الشهيرة التى ترجع الى القرن السادس عشر والتى تشمل كل الكتب التى ترى لجنة القائمة ، أنها تشكل خطرا على المعتقد الروحى الكاثوليكى والتى تضم كتبا تعد من معالم الطريق فى تطور الفكر الانسانى • وبعض هذه الكتب وضع فى هذه القائمة ثم أزيل الحظر عنه بعد ذلك جريا على

مقتضيات الضرورة· بيد انهقدر لكتب كثيرة لعدد كبير من أعلام الفكر الغربى وغيرهم أن تضاف الى هذه القائمة دون رجعة ، وأصبح من المتعين على أى كاثوليكى ألا يقرأها · وغنى عن البيان أنه قد يسمح اى انسان أن يزعم أن فلسفات « كانت وهيوم » ، على سبيل المثال لا تعدو أن تكون مجرد هراء ، ولكنه لايستطيع أن يدعى بأى حال أنه يلم بالفلسفة او تاريخها دون أن يعرف شيئا عن هذه الفلسفات ·

كما يتمثل التلفيق المتعمد ، فيما يلاحظ فى القديم والحديث من أن أصحاب الايديولوجية أو السياسة يعمدون فى عرضهم الافكار أو الآراء أو مواقف خصومهم ومعاضيهم الى حجب بعض الحقائق أو الامور بحيث يتركون لدى الناس انطباعات تخالف تلك التى يستهدفها هؤلاء الخصوم أو المعارضون ·

وهذان الاتجاهان السائدان فى مجال الدعاية بواسطة الرقابة يتبعان فى كل المجالات المرتبطة بالنشاط والصراع الدائر فى مجتمع الانسان ، وان كان عرضنا يجنح دائما الى تناول الامور فى منظورها الحضارى الشامل ، فانه ينبغى أن نلفت النظر الى أن ما يصدق على البناءات النوعية فى المجتمعات يصدق أيضا على الافراد كافراد ، ولعل ذلك لا يغيب عن بديهة القارىء ، على أن يربط بين ذلك كله ـ من حيث الاثر ـ وبين ما طرأ ويطرأ على الاتصال وقنواته ووسائله من تطور جسيم عبر القرون ·

ولئن كنا قد فضلنا فى تناولنا للكلمة المطبوعة أن تبدأ بالكتاب لسبقه التاريخى ولبقاء أثره ، فاننا ينبغى أن نثنى بالكلام عن الكلمة المطبوعة كصحيفة وليس لنا فى هذا المجال أن نتتبع تطور الصحافة

ونشأتها لان هذا التطور سلك دروبا مختلفة الى حد كبير فى المجتمعات المختلفة بصرف النظر عن السمات المشتركة التى تميز هذه الوسيلة الاتصالية الهامة والمتداخلة مع وسائل الاتصال الاخرى فى عصرنا الحاضر . ولكن الذى يعنينا على وجه العموم هو أن الصحافة التى بدأت ضيقة النطاق والاثر اتسعت مجالاتها الآن على نحو يجعلها تلعب أدوارا بالغة الاهمية فى الدعاية وصياغة الرأى العام على المستويات المحلية والقومية والدولية فى شتى مجالات النشاط الانسانى الواسع . ويعنينا فى هذا السياق أن نشير الى الضوابط التى تفرض على ما تتناوله الصحف بأنواعها المختلفة . والضابط القديم الجديد يتمثل فى الرقابة التى تفرضها النظم المهيمنة من ناحية والضوابط التى تفرضها ضرورات الاعلان أو الدعاية التجارية من ناحية أخرى . فالمعلنون يهتمون عادة بشراء مساحات فى الصحف ويهمهم أن تكون هذه الصحف واسعة الانتشار . وقد لا يتأتى للصحيفة السيارة التى لا تستند فى الاساس الى مؤازرة ايديولوجية بعينة ، أن تكون واسعة الانتشار ما لم تحاول تحقيق نوعا من الحيدة النسبية التى تسوغها لدى القراء على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم ، مما يحدونا الى تأمل أثر الدعاية التجارية فى الحيدة الفكرية النسبية لبعض الصحف واسعة الانتشار . ولنا أن نلاحظ انه كلما اتسع نطاق توزيع الصحيفة المعينة بحيث تشمل النطاق القومى وتتعداه الى ما خارجه ، كلما ازدادت الحيدة النسبية لهذه الصحيفة . ولكننا نلاحظ فى الوقت نفسه أن هذه الصحف قد تربط نفسها بمصالح المعلنين تبعا لقوتهم ونفوذهم على نحو يجبر هذه الصحف نسبيا الى اتجاه أو آخر أو الى ايديولوجية أو اخرى . والصحافة كظاهرة على وجه العموم ترتبط فى الاساس بالسياق الحضارى الذى تنبع منه وتمثله .

تعريف الدعاية

يظهر العرض السابق أن الدعاية لها سمات وترتبط بعناصر غير تلك التي يستطيع المرء أن يخرج بها من التعريف القاموسي لها التي أوردناه في مستهل هذا الفصل • وعلينا لذلك أن نلتقي على بعض التعريفات الاخرى للدعاية التي وضعها بعض الباحثين في علم النفس الاجتماعي الذين اهتموا بتناولها تناولا علميا • فالباحث الامريكي Kimball Young يعرف الدعاية على أنها : « ••• هي استخدام الرموز على نحو متعمد ، منظم ومخطط ، من خلال الايحاء أساسا وما يتصل به من تكنيكات نفسية ، بقصد تغيير وضبط الآراء والافكار والقيم وتغيير الافعال الظاهرة في نهاية الامر عبر خطوط حددت سلفا • وقد تكون الدعاية واضحة والقصد منها معلنا أو قد تستخفي بمقاصدها • وهي تقع دائما في نطاق اجتماعي ثقافي لا يمكن بدونه أن تفهم ملامحها النفسية أو الثقافية (١) •

أما الباحث Leonard W. Doob فيعرف الدعاية على أنها : « هي المحاولة المنظمة التي يقوم بها فرد أو أفراد ذووا مصلحة لضبط مواقف مجموعات من الافراد باستخدام الايحاء (٢) وبالتالي ضبط أفعالهم»(٣) •

ثم يعرفها بعد ذلك متناولا مضمونها على أنها : « هي محاولة التأثير في الشخصيات وضبط سلوك الافراد في اتجاه غايات تعتبر غير علمية

---

(١) أنظر الملحق السادس (a) في الملاحق الانجليزية •

(٢) لما كان الايحاء وما يرتبط به من أهم ميكانيزمات الدعاية رأينا أن نورد نصا منفصلا له ، أنظر الملحق السابع في الملاحق الانجليزية •

(٣) أنظر الملحق السادس (b) في الملاحق الانجليزية •

أو مشكوك فى قيمتها فى مجتمع ما فى فترة معينة » • والتعريف على هذا النحو يبدو غير كاف ، اذ من هو الذى سيقرر ما هية الشىء الذى يشك فى قيمته فى وقت معين ، والواضح أن المجتمع نفسه هو الذى يفصل فى ذلك ، اذ أن « دوب » يستطرد قائـلا : « ••• ان نشر وجهـة نظـر يعتبرها البعض سيئة أو غير عادلة او قبيحة أو غـير ضرورية هو دعاية بمعايير هذا البعض » (١) •

وان كان مثل هذا التعريف يعرض مفهوما من مفاهيم الدعاية كما يراها البعض الا أنه من الواضح لا يستوفى كل جوانبهـا ، فـاذا مـا استحضرنا فى الذاكرة حملات الدعاية التى تستهدف غايات فيها صالح المجتمع ، وكذلك الاشكال المختلفة التى تأخذها الدعاية نجد أن هذا التعريف لا يوفى على الغاية •

أما القول بان الدعاية تتم فى نطاق اجتماعى ثقافى يربط فيما يبدو بين الدعاية والتعليم • وسبق أن بينا أن المـادة المطروحة لا يكون غرضها من قبيل التعليم الا اذا كانت تطرح وحدها دون بديل لهـا ، أما اذا كان القصد من طرحها اذاعة بديل أو بدائل لهـا فان عرضها يكون من قبيل الدعاية والكلام عن الشىء الواحد يمكن أن يكون تعليما فى حين ، ثم يصبح بعد ذلك دعاية • ومثال ذلك أنه عندما تسود نظرية معينة فى وقت معين فان محاولة نشرها بين الناس تكون من قبيل التعليم طالمـا أنه ليس هناك بديلا لهـا ، فاذا ما أتت الايام بنظرية أخرى تغايرها فان عرض هذه النظرية الجديدة يجعل الكلام عن كلتا النظريتين من قبيل الدعاية •

---

(١) أنظر الملحق السادس (ج) فى الملاحق الانجليزية •

والتفرقة بين التعليم والدعاية (١) فى هذا المجال قد تكون امرا ميسورا ، اذ أن التعليم يستهدف خلق القدرة على الحكم المتجرد ، بينما تقدم الدعاية لهؤلاء الذين لا يعملون تفكيرهم احكاما او آراء اعدت سلفا . وبينما يحاول المربى أن يطور فى المتلقى قدراته التى يستطيع بها الحكم على الاشياء وقد يستغرق ذلك وقتا طويلا ، فان الذى يقوم بالدعاية يستهدف تحقيق نتائج عاجلة . فالمربى اذن يعلم الناس كيف يفكرون ، اما الداعية فيطرح عليهم ما ينبغى من وجهة نظره أن يفكروا فيه . فمهمة الاول هى خلق المسئولية الشخصية والعقل المتفتح ، ومهمة الثانى محاولة جعل العقل ينغلق من خلال أساليب الدعاية التى تسمى بالتاثيرات الجماعية وينبغى لنا أن نشير الى أن التفرقة بين التعليم والدعاية ليست ميسورة فى كل حال اذا أخذنا فى الاعتبار المناهج والمواد والفروع المختلفة التى تقوم عليها العملية التعليمية فى الانساق الاجتماعية المتباينة .

ويتضح من ذلك كله أن حرية الاختيار لا يمكن أن تتأتى للمتلقى الا اذا عرض عليه الشيء المعين وكل بدائله واستطاع أن يستوعبها جميعا ويقيمها ثم يختار . ولما كانت السمة البارزة فى الدعاية ، أيا كانت هى أن تحد هذا الاختيار فى نطاق معين أو لصالح شيء معين من خلال الوسائل الدعائية المختلفة ، النفسى منها وغير النفسى ، فانه قد يحق للبعض من ناحية ان يحس أن الدعاية تحاول التاثير فيه بوسائل ملتوية لا تلتزم جانب ما هو صحيح دائما ، ويحق لنا من ناحية أخرى أن نقول انه سواء أكانت المادة المطروحة صادقة او غير صادقة ، وسواء

---

(١) أنظر تعريف مقتضب للدعاية فى :
C. Wright Mills, The Seciological Imagination, Harmondsworth, Pelican Books, 1977, p. 212.

أكان الداعية مخلصا او غير مخلص وسواء حسنت أهدافه أو ساءت فان ذلك كله ليس الفيصل في تعريف الدعاية · ولكن الشيء الذي يجعل السلوك دعائيا هو الطريقة التي تعرض بها المادة ، وأن هذه الطريقة في حد ذاتها لها أهمية المضمون ·

وتوظف الدعاية بالمعنى الشامل وما يرتبط بها من عمليات اتصالية في النسق الاجتماعي السياسي المعاصر على نحو يعبر عن الصراع والخلل أو التوازن في علاقات القوة التي تضفي على النسق صورته الكلية في احوال الثبات والتغير أو التحول · واتصال هذه الوظيفة أو الوظائف ببناء القوة في المجتمع يجعلها بالغة الاثر في خلق الاطر العقلية المهيأة لتلقي أفكار بعينها تشكل رأيا او آراء عامة ازاء كل ما يرتبط بنشاط الانسان وتفاعل هذا النشاط داخل النسق الواحد الذي يلتزم بسياسات تستلهم ايديولوجية معينة ·

ويرى بعض الباحثين ان الدعاية بهذا المعنى لا يمكن أن تكون كاملة القدرة من الناحية السيكولوجية على احداث الاثر لارتباط الفرد والجماعة بتراث وخلفية يشكلان جزءا اساسيا في تكوينه او تكوينها · لكننا نميل ـ بالنظر الى واقع التاريخ المعاصر وأنساقه السوسيوسياسية ـ الى أن نختلف مع هؤلاء الباحثين ، فالايديولوجيات المعاصرة في صراعها من أجل البقاء وازاغة ما سواها توشك ان تحيل الانسان الى كائن منبت الصلة بتراثه ، واقرب شاهد على ذلك هو أن التفرقة بين التعليم والدعاية التي اشرنا اليها سلفا توشك ان تصبح مستحيلة في ظل الهيمنة السياسية على نحو أحال فروع العلم بما فيها المعملي والبيولوجي الى مدارس ذات صبغات ايديولوجية · والزعم بأن التعليم والدعاية لا يترادفان الا في الانساق الشمولية حيث يطرح معتقد واحد ، يرد عليه

فى بساطة بأن الديموقراطيات فى محاولة تصديها للايديولوجيات التى تصفها بالشمولية صبغت هى الاخرى فروع العلم فيها بصبغات ايديولوجية (٢)

والعملية التعليمية هى ولا شك واحدة من أهم العمليات الاتصالية وابلغها اثرا فى تهيئة الاجيال القادمة التى ستتولى ادارة شئون المجتمع ولقد بينا ما يكتنف هذه العملية التعليمية فى قرننا العشرين من هيمنة أصحاب السلطان أو أصحاب الايديولوجية . ولا يقف الامر عند هذا الحد ولكننا نلاحظ أن هذه العملية التعليمية التى كانت تتجه فيما مضى الى خلق الشخصية ذات القدرة المستقلة على الحكم على الاشياء ، أصبحت تتجه على وجه العموم فى الوقت الراهن الى خلق فئات من المهنيين القادرين على الاسهام فى ادارة عملية الاقتصاد الذى أصبح وثيق الصلة بالايديولوجية . وأوشك الانسان الحديث أن يحرم بالفعل من مقومات ما يمكن أن نسميه بالثقافة على نحو يجعله مجرد أداة من الادوات المستقلة فى وسائل الانتاج لا للوفاء باحتياجاته واشباعها على النحو الذى يكفل سلامته النفسية وصحته العقلية ، بل على نحو يفى فى المقام الاول بمصالح الصفوات الحاكمة التى أصبحت من القوة بحيث لا يمكن أن يحال بينها وبين استخدام وسائل الاتصال استخداما أوشك أن يخل بكل معايير ما هو صادق أو صحيح . وقد ترتب على ذلك من الناحية السيكولوجية الكثير من الآثار التى نلاحظ فيما يعانيه انسان العصر من هم وقلق واغتراب .

واذا تركنا التعليم لنلقى نظرة عامة على أثر وسائل الاتصال الجماهيرى التى سبق أن أجملنا الاشارة اليها فى فصل سابق ، فالملاحظ أن انسان العصر اصبح محكوما تماما بما تمليه هذه الوسائل فى كل جوانب حياته وما يتعلق بها من اختيارات . وليس ثمة داع للتدليل

على ذلك بالتمثيل اذ كلنا يحيـا تجارب هذا العصر والنظرة العابرة فى أى اتجـاه تكفى لبيـان ذلك ٠

ولقد تأثرت أشكال الفن المختلفة بذلك كله ، فنراها وقد ابتذلت على نحو أو آخر فى العمليات الدعائية المستمرة التى تفيض بهـا وسائل الاتصال الجماهيرى المختلفة ٠ وبـدأت الكلمة والنغمـة والصورة تفقد معانيها والقصد الجمالى منها فى هذا التوظيف الدعائى لهـا ولا يعنينا فى هذا السياق أن نتناول ذلك كله بالشرح والتفصيل ٠

وخلاصة القول فيما يتعلق بالدعاية أو الدعوة هى أن الانسان قد أصبح فى العصر الحاضر تحت الهيمنة الكاملة لصفوات القوة فى المجتمع سواء وصفت هذه الصفوات بأنها سياسية أو اقتصاديـة أو عسكرية او فكرية من دينية وغير دينية ، بمعنى أن كل هذه الصفوات تستهدف من خلال الدعاية تغيير مواقف الافراد والجماعات او التأثير فيها على نحو يتوخى تحقيق اهداف او مصالح هذه الصفوات ، وان محاولة ضبط هذه المواقف تتخذ أشكالا خفية وظاهرة ٠

الفصل السابع

تشكيل المواقف وتغييرها

- المواقف الأولية .
- الآراء والمواقف وخصائص الشخصية .
- تغيير المواقف .
- الدعاية الحربية والحرب النفسية .
- الدعاية السياسية .

انتهينا في الفصل السابق الى أن الصفوات الحاكمة التي تستحوذ على القوة الحقيقية في النسق الاجتماعي السياسي تستهدف ضبط مواقف الفرد والجماعة عن طريق عمليات الاتصال بقصد تحقيق التوازن في علاقات القوة في المجتمع أو المحافظة عليها ٠

لما كان الفرد هو الوحدة الاساسية في التفاعل الاجتماعي والمجتمعي ، فان مواقفه ترتبط عادة بمحاولته اشباع حاجاته المباشرة على شتى المستويات من ناحية ، وبالخلفية العامة التي يكتسبها نتيجة لانتمائه الى بيئة معينة وتراث معين ومحاولة تكيفه مع هذه البيئة والتزامه بانماط القيم السائدة في تراثه من ناحية أخرى ٠ واذا كانت الحال كذلك فهل يمكن حقا ضبط مواقف الافراد بالتأثير فيها أو تغييرها الى حد بعيد على نحو أو آخر ؟

علينا أن نحاول في اول الامر أن نعرف ماذا نعني بكلمة « موقف Attitude » ولنبدأ بالتعريف الذي أورده قاموس أكسفورد الذي يعرف الموقف ، ضمن معان اخرى بانه : « سلوك ثابت يدل على الرأى ، ثم يعرف الموقف العقلي على أنه طريقة التفكير الثابتة (١) ٠ وهذا التعريف لا يبعد كثيرا عما يرد تلقائيا في أذهاننا عندما نفكر في مضمون هذه الكلمة التي يعرفها الباحثون في علم النفس الاجتماعي على أنها : حالة استعداد عقلية أو عصبية تتهيأ من خلال الخبرة ، ويكون لها أثر توجيهي أو دينامي على استجابة الفرد للاشياء والاحوال التي ترتبط بها ، أو أنها الميل الى الاتفاق أو الاختلاف مع عامل بيئي يصبح تبعا لذلك قيمة ايجابية أو سلبية ، أو أنها مجمل ما ينشأ اجتماعيا في الانسان ٠

---

(1) Attitude settled behaviour, as indicating opinion;

والواقع أن هذه التعريفات جميعها توشك أن تشير الى مضمون واحد مؤداه أننا في استجاباتنا للاحوال والاشياء التي نلقاها في حياتنا اليومية نتأثر بآراء وقيم نكون قد تبنيناها أو اكتسبناها سلفا من الخبرات التي مررنا بها من قبل ، وأن هذه الخبرات تتصل بكل جوانب حياتنا كأفراد يعيشون ويتفاعلون في بيئة معينة لها تراثها وخلفياتها. والكلام عن التراث أو الخلفية يأتي بنا الى مجموعة متنوعة من المقومات التي لبعضها صفات الثبات والتواتر وللبعض الآخر صفات التغير والتفاعل الايجابي أو السلبي مع ما تأتي به الايام من خبرات يلعب فيها اتصال الانسان بالانسان ومحاولات التحيز والتحييد أدوارا بالغة الاهمية ، وقد لا يكون التراث مرتبطا ببيئة معينة بقدر ارتباطه ببيئة الانسان ، وقد يكون على النقيض من ذلك • ونمثل للحالة الاولى بالموقف الذى تأخذه الآداب العالمية على سبيل المثال من اليهودى • وارتباطه في أذهان الناس على اختلاف بيئاتهم وارتباطه بسلوك اقتصادى معين شكل دائما عاملا سلبيا في مواقف الناس ازاء اليهود (١) • ونمثل للحالة الثانية بالفارق في رد الفعل الذي تحدثه كلمة زنجي لدى مواطن يعيش في جنوب الولايات المتحدة الامريكية وآخر يعيش في شمالها • ويتبين من هذا أن الموقف يمثل ضربا من ضروب الانحياز بصرف النظر عن سلبيته أو ايجابيته ، أو عن دلالته على ما هو غير صحيح أو صحيح • ولا شك في أن لكل منا مواقفا ازاء ما يحيط به من الاشياء والاحوال على اختلافها ، وأن هذه المواقف قد تكون ودية أو غير ودية ، وقد تعكس هوانا ومصلحتنا أو تعكس تجردنا • قد تعيننا على الفهم أو تنأى بنا عنه • كما انها ترتبط

---

(١) أنظر على سبيل المثال : مسرحية تاجر البندقية لوليم شكسبير ورواية أليفر تويست لتشارلز ديكنز •

كما المحنا بسياقات الزمان والمكان على النحو الذى يتبين من ردود الفعل المختلفة لدى الافراد المختلفين ازاء مفاهيم مثل الراسمالية والشيوعية والليبرالية والشمولية والمساواة والتفرقة العنصرية ومضادات السامية واليهودي الزنجي ومنع الحمل والدعارة والجنسية المثلية وما الى ذلك - ومعنى ذلك أن هذه المفاهيم أو الكيانات تثير فينا مشاعر معينة تجعلنا نفكر أو نتصرف بطريقة بعينها ويتمثل فى هذه الطريقة الموقف الذى نتخذه وهذا يتمثل لدى الفرد فى استجابة ترتبط فى خبراته بالثواب والعقاب أو بما يرضى أو لا يرضى أو بالنجاح او الفشل • وقد لا ترتبط هذه الاستجابة بخبرات الفرد بقدر ما ترتبط بما هو سائد ، من حيث التراث أو غيره، فى مجتمع معين• ففى البلدان التي ينظر فيها ـ على سبيل المثـال ـ الى الزنوج على أنهم جنس أدنى لا تتشكل استجابة الفرد ازاء الزنوج على أساس من صلة هذا الفرد لهؤلاء الزنوج بقدر ما تعكس ـ الاستجابة ـ ما هو سائد فى المجتمع بعامة ازاءهم • وهذا يوضح كيف أن الموقف يعبر عن استجابة ترتبط بالخبرة الفردية او المجتمعية أو عن كليتهما معـا •

وهذه التفرقة تعين الباحثين فى الاتصـال على تبين الجوانب التى يسهل فيهـا ضبط المواقف باعـادة التشكيل أو التغيير • ويمكننا أن نلحظ عملية تكوين او تشكيل المواقف فى مراحلها الاولى ، وأثر القيم السائدة فى المجتمع فى ذلك من قصة بسيطة كانت تتكرر فى مصر ما قبل الثورة . حيث كان المنتمون الى طبقـة الاقطاعيين لا يفوتهم أن يذكروا أولادهم بين الحين والحين بالفوارق التى تفصل بينهم وبين « أبنـاء الفلاحين » على سبيل المثـال . فما يكاد الطفل الصغير يتعامل مع اقرانه من أبنـاء الفلاحين بفطرة الطفولة المنطلقة حتى يزجره والده أو والدته وينهاه عن ذلك . ومن هنـا يبدأ تشكيل موقف معين ، والنظرة المهنية

التي كانت سائدة ، وربما لم تزل ، بين المثقفين ازاء العمل اليدوي ، مثال آخر على ذلك .

وليس من الغريب أن نلاحظ في خبراتنا الشخصية أن المواقف التي تتشكل على هذا النحو ، والقيم التي ترتبط بها لا يسهل تغييرها فيما بعد بالرغم من اضافة خبرات أخرى اليها ومرور الفرد بمراحل تعليمية يفترض أنها تعينه على التخلص من الانحياز ، اذ يعلل لذلك سيكولوجيا (١) . وبالرغم من أن الباحث في علم النفس الاجتماعي يولي اهتمامه عادة للمواقف التي يتخذها الافراد والجماعات محاولا الكشف عن مصادرها وتتبع الآثار التي قد تترتب عليها ، دون أن ينصرف همه الى تحليل الكيفية التي تنشأ بها هذه المواقف داخل الفرد ، إذ أن ذلك يقع في نطاق مجالات فروع أخرى لعلم النفس ، بيد أن الاهتمام بدراسة كيفية تكوين هذه المواقف داخل الفرد بدأ يكتسب في الآونة الاخيرة أهمية متزايدة بالنظر الى أن العاملين في صناعة الرأي يستهدفون كما أسلفنا التأثير في هذه المواقف أو تغييرها ، فلا بد لهم اذن من فهم متكامل لطبيعتها حتى يلموا بالاسباب التي تحدو بالافراد الى تبني مواقف معينة ، ويستخلصوا السبل التي تعينهم على هذا التأثير أو التغيير .

المواقف الاولية

وتتأثر مواقف الفرد على الاغلب بالخبرات التي يكتسبها في سن الطفولة الاولى من خلال علاقته بأبيه وأمه ، وبالخبرات التي يكتسبها مع

---

(١) أنظر Ransom J. Arthur, an Introduction to social Psychiatry, Harmondsworth, Penguin Books, 1971; George A. Miller, Psychology, Harmondsworth, Pelican Books, 1970.

يحيطون به في تلك السن وما يضاف اليها بعد ذلك على امتداد حياته من تجارب قد تتشابه أو تتباين مع بعضها البعض ٠

واذا كان الباحثون في علم النفس يضفون أهمية بالغة على الخبرات التي يكتسبها الطفل في سنوات عمره الاولى على أساس أنها تشكل مواقفا قد تؤثر أو تتحكم في المواقف التي يتخذها بعد ذلك في مراحل نموه المختلفة . فاننا نرى أن هذه المواقف المبكرة ذات أهمية قصوى من الناحية الايديولوجية ٠ ذلك أن الخبرات العادية التي يكتسبها الطفل يسهل تغييرها بعد ذلك اذا ارتبط هذا التغيير بتحقيق قدر أكبر من المصلحة أو المنفعة أو بأية قيمة تثبت ايجابيتها من خلال تفاعل الفرد مباشرة مع بيئته ٠ ومعنى ذلك أن التأثير الثقافي الاجتماعي المباشر قد يستطيع أن يزيغ الاثر الثقافي الاجتماعي الذي اكتسبه الفرد بالوساطة في سنوات عمره الاولى ٠ أما فيما يتعلق بالناحية المعتقدية . فان هذه الازاغة قد تعسر أو تستحيل نتيجة للممارسات التي يمر بها الفرد والقيم التي يكتسبها خلال فترة تلقيه بالوساطة ٠ وهذه الحقيقة هي التي تكسب بعض التعاليم أو المعتقدات . وان شئت قل الشعوذات . عنادا لا يتأتى لاكتساب الخبرات بعد ذلك وأن يتعامل معه في يسر ٠ وتلك هي مشكلة المشكلات التي يتعين على مروضي العقول أن يجابهوها وهذا يفسر بصرف النظر عما يستقيم في أمور المعتقدات . كيف أن الكثيرين ممن أتيح لهم أن يصلوا الى أعلى مراتب العلم أو التعليم لا يستطيعون أن يتخلصوا من الارتباط بممارسات السحر أو الشعوذة أو محاولة معرفة الغيب على النحو الذي لا نلحظه في حياتنا اليومية وحسب ، وانما نسمع عنه في بعض الشخصيات التي يتاح لها مكان الصدارة في صفوات القمة الحاكمة في عالمنا المعاصر . وما يقال عن « قوامي نكرزوما » ٠ وأمثاله في هذا الصدد معروف لنا جميعا ٠

ويستخلص من ذلك ان نوع الثقافة الذى يتاح للفرد ذو اهمية بالغة فى بناء شخصيته • ونظرا لان الثقافات تختلف باختلاف البيئات والاصول . فان القيم التى تسود فى مجتمع معين او بين جماعة معينة والتى يضفى عليها قداسة أو أهمية قد لا تعنى شيئا فى نظر الافراد الذين يعيشون فى مجتمع آخر • ويترتب على ذلك ما سبق أن أسلفنا ذكره من ان العمليات الاتصالية التى تستهدف تغيير المواقف أو المعتقدات أو صياغة الرأى العام تعمد فى كثير من الاحايين الى الاستخفاء ببعض مقوماتها أو ما تنطوى عليه حتى يتسنى لها أن تحدث الاثر المطلوب . مما يحيل الكثير من عمليات الاتصال الى ضروب من التعمية والتجهيل •

الآراء والمواقف وخصائص الشخصية

ويحسن بنا بعد ذلك ان نفرق بين اشياء ثلاثة هى : الآراء والمواقف وخصائص الشخصية • فالآراء يتبناها الافراد لفترات قصيرة وتعكس الشعور العام السائد • وكثيرا ما تعكس هذه الآراء ما قد يرى الفرد أنه ينبغى عليه ان يتوخاه وليس ما يتوخاه بالفعل ، ولذلك فان الآراء قد تستجيب للتغيير متأثرة بالدعاية أو بالمنطق • أما المواقف فتتخذ لفترات قد تطول ، ولا تعكس بالضرورة أو فى كل حال الشعور العام السائد بالرغم من انها قد تعكس مشاعر الفئة أو الجماعة التى ينتمى اليها الفرد • ونمتد جذور هذه المواقف عادة الى خصائص الشخصية التى تجعل الفرد يستجيب أو لا يستجيب الا للمعروضات التى تتسق مع معتقداته الاصلية . من بين المعروضات الكثيرة التى تؤثر فى حواسه • ومن الممكن تغيير هذه المواقف . ولا ينطوى هذا التغيير على قيمة حقيقية الا بالمعنى الاجتماعى . اى أنه يجنح فى العادة الى تغيير

السلوك الظاهرى بصرف النظر عن تأثير ذلك على الخصائص عميقةالجذور فى تكوين الشخصية ٠

فالانتقال من نظام سياسى الى نظام سياسى آخر ـ على سبيل المثال ـ قد يجعل الفرد يتسق من حيث السلوك الاجتماعى ، أو المواقف ، مع مقتضيات النظام السياسي الجديد بصرف النظر عن المقومات الاساسية لشخصية الفرد ، الا ما يتفق منها مع اعتبارات المصلحة و توخى أسباب الامان على نحو قد يعين على تحقيق التوازن النفسي أو يفسح المجال للاغتراب (١) ٠

وهذه الحقيقة تكتسب أبعادا أخرى فى حالة الاقتناع الفكرى ، فقد تكون بالغة الاثر فى تغيير المواقف ، لا من حيث المدلول الاجتماعى الظاهر وحسب ، بل من حيث بناء الشخصية أيضا ـ وان اختلف معنا بعض علماء النفس ـ ، وهذا لا يعنى بأي حال أن الافراد سيتطابقون تماما من حيث السلوك الاجتماعى من ناحية أو من حيث سمات الشخصية من ناحية أخرى ، فالفوارق فى هذا الشق الاخير بالذات ستبقى وتتعدد ما بقى الناس وتعددوا ٠

ولئن شئنا أن نمثل لأثر المعتقد فى جعل الفرد يتسق اجتماعيا وسياسيا مع معتقد جديد ، وفى التأثير على كيانه ووجدانه بحيث لا تبقى الا تلك المقومات والسمات التى تشكل الفارق بين شخصية وأخرى ، فاننا نستحضر فى الذهن الصورة التى كان عليها « الفاروق عمر » ، قبل اسلامه وبعد أن تعلم فى المدرسة المحمدية ، وقدر له أن يكون علامة من ابرز علامات الفكر والقيادة فى تاريخ الانسان (٢) ٠

---

(١) أنظر : نظرية القوة ، صفحات ٢٨ ـ ٣١ و ٢٧٨ ٠

(٢) أنظر : عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ٠

وتزداد الصورة وضوحا فيما يتعلق بالمقومات التى تشكل الفارق بين شخصية وأخرى ، اذا ما قارنا بين شخصية « ابى بكر » وشخصية « عمر » ، وكل منهما هو من هو ، وله مكانه ومكانته فى المدرسة المحمدية الواحدة وفى تاريخ الاسلام والعالم ، على ما بينهما وبين الآخرين من قادة العالم طلاب القوة على العموم (١) من فوارق جسام ·

وينتهى هذا بنا الى أن عناصر القوة ، وخاصة ما يرتبط منها ، بالايديولوجية تتكامل بالانسان وفى الانسان ، وتؤتى كلها اذا استقام أمره وغلب هواه ، وصح عزمه وحسن مرماه ·

تغيير المواقف

حاولنا فيما سبق أن نبين الفوارق بين الآراء والمواقف، لنقول بعد ذلك ان الموقف على الاجمال تتدرج من التعبير العارض عن رأى معين الى مجموعة من المواقف تتداخل بحيث تشكل مفهوما عاما يسود فى مجتمع من المجتمعات أو بين جماعة من الجماعات · ونلحظ التعبير العارض عن الرأى فى أبسط صورة عندما نبدى إعجابنا بشىء ما ، وقد لا يتكرر هذا التعبير عن الاعجاب أو تتباعد فتراته فلا نبديه الا عندما نلقى هذا الشىء مرة ثانية وهكذا دواليك · وقد نرتبط فى ممارستنا لحياتنا اليومية بشىء أو آخر ، بحيث نطلبه دائما اذا كان سلعة ، على سبيل المثال ، من تلك السلع التى نعتاد استهلاكها ونرتبط بها لسبب أو لآخر ، وفى هذه الحالة يكون سلوكنا تعبيرا عن موقف بسيط ، وهذا التعبير قد يتكرر

---

(١) انظر : د· طه حسين ، الشيخان ، دار المعارف بمصر ، وعباس محمود العقاد ، عبقرية الصديق ، وعبقرية عمر ، دار الهلال بمصر ، د· محمد حسين هيكل ، الفاروق عمر ، دار المعارف بمصر ·

فـى فتـرات متقاربـة . ونحـن نمهـد بالمثلين السابقين لنوعين آخرين من المواقف هما اللذين نهتم بهما فى هذا السياق . اولهما الموقف الذى قد يثبت لدى الفرد ازاء قضية معينة ويعبر عن رايه فيها وقد يحكم سلوكه الظاهر ازاءها ، كموقف الفرد الذى ينادى بحرية المرأة أو بتقييد حق الطلاق أو بالتزام نهج سياسى معين . وثانيهما الموقف الاجتماعى أو السياسى العام الذى يتشكل باتفاق مواقف أفراد الجماعة ازاء قضية أو قضايا معينة . وقد تشكل هذه المواقف كما أسلفنا مفهوما عاما يرتبط هذا المفهوم بالمواقف الاولية التى يكتسبها الافـراد من بيئتهم أثنـاء تنشئتهم ، التى تؤثر على ما يليها من خبرات ومواقف ، بحيث تكون هذه المفاهيم فى نهاية الامر مستعصيـة على التغيير على النحو الذى سبق أن أشرنا اليـه .

والشقان الاولان البسيطان من هذه المواقف التى حددناها همـا اللذان تحاول عمليات الدعاية بالمعنى التجارى التعامل معهما ، وتحاول الاتجاهات الحديثـة فيهـا ربطهما بنواة الشخصية أو بسماتها من خلال ما يفيض به فن الاعلان الحديث من وسائل تخاطب الصغير والكبير من المواقف التى ذكرناها، فهما اللذان تستهدف صياغتهما والتأثير فيهما العمليات الدعائية بالمعنى الاجتماعى والسياسى ، أو بالمعنى الايديولوجى ، مستخدمين فى ذلك كل ما يتيحه العصر من وسائل اتصال تخاطب الكبير والصغير فى آن واحد .

وواقع الحـال أنه لم تعد هناك ، مع وسائل الاتصال الجماهيرى الحديثة فواصل يمكن أن تحدد فى وضوح بين المتلقين الذين تستهدفهم العمليات الدعائية ، والذين تتفاوت أعمارهم ومشاربهم ومواقفهم . وهذا

بمعنى أن سياسات الاتصال وتكنيكاته المعاصرة ، اذ تضع فى اعتبارها مساحات معينة من المتلقين بقصد احداث أثر معين ، أو أقصى درجة منه فيهم ، تضع فى اعتبارها أيضا المساحات الاخرى للجماهير على اختلاف فى درجات التأثير المقصودة • ويظهر هذا مدى التعقيد الذى تنطوى عليه عمليات صياغة الرأى والتأثير فيه فى زمن أوشك الصراع فيه أن يكون صراع كلمة أو فكرة أو معتقد •

الدعاية الحربية والحرب النفسية (١)

واذا كنا نلاحظ أن العقود الاخيرة قد اتجهت بالصراع الى التركيز فى نواحيه الايديولوجية ، فننا أن نلاحظ فى الوقت نفسه أنه لا تزال هناك « حروبا محدودة » تدور رحاها ، أو يمكن أن تدور ، فى بقاع مختلفة من العالم ، على ارتباط وثيق لهذا النوع من الحروب المحدودة بالصراع الدائر بين الايديولوجيات المهيمنة فى العالم •

وهذا يلفت نظرنا الى ما يسمى « بالدعاية الحربية » و « الحرب النفسية » اللتين بدأتا فى اتخاذ طابعهما المحدد ومداخلهما العلمية ابتداء من الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) حتى يومنا هذا • وهذا النوع من الدعاية لا يعنينا فى هذا المقام الا من حيث استهدافه تغيير مواقف الافراد أو الجماعات أو الدول لصالح من يقوم بها من الاطراف المتحاربة ولرفع الروح المعنوية لديها واستنفار قدراتها القتاليةمن ناحية، ولكسب تعاطف الناس هنا وهناك مع قضية أو قضايا بعينها من ناحية أخرى • كما أن هذا الضرب من الدعاية أو الحربالنفسية يستهدف أيضا تخذيل الخصوم واضعاف روحهم المعنوية ، من خلال تكنيكات لا ترتبط دراستها أو دراسة تاريخها بمنهاج هذا البحث •

---

(١) أنظر كلامنا عن الحرب العالمية الاولى فى الفصل السادس •

الدعاية السياسية

وتنحصر أهداف الدعاية السياسية كما بينا في غير موضع ، في تشكيل المواقف أو تغييرها على وجه العموم في مستويات تتصل بحياة الانسان في كل جوانبها ٠

وعلى هذا فاننا اذا حصرنا النظرة في نطاق النسق الاجتماعي السياسي الواحد ، نجد ان الدعاية التي تمارسها الصفوة السياسية ، الحاكمة بقصد تثبيت أركان حكمها وابقاء زمام السيطرة في يدها ، هي ما يمكن ان يسمى « الدعاية السياسية » في النطاق المحلي ، وقد ترتبط هذه الدعاية بنسق فكري يتصل بتراث ديني أو محلي ، أو بواحدة أو اخرى من الايديولوجيات التي تحاول ان تهيمن في أكثر من نطاق أو في نطاق النوع البشري على اتساعه ، ولقد اصبحت الدعاية السياسية بهذه المعاني سمة من سمات الدولة الحديثة بكل ما يدخل في تكوينها من جماعات ومؤسسات تتفاعل من خلال العمليات الاتصالية المتنوعة التي سبق تناولها في هذا البحث ٠

وتكتسب الدعاية السياسية لذلك ، وللمعنى الشامل الذي تنطوي عليه ، اهمية بالغة في نظر الباحثين في مجالات العلوم الاجتماعية والسياسية ، واذا شئنا أن نرى هذه الدعاية في أشد اشكالها فعالية ، فعلينا أن نتجه بنظرنا الى تلك الاماكن من العالم التي ساد أو يسود فيها ما يسميه الباحثون « بالتغير الثوري » ٠ وتنصرف الثورية عادة الى وصف التغييرات السريعة أو الشاملة ، وان لم تنطو بالضرورة على استخدام شكل أو آخر من اشكال « القوة الفيزيقية » ٠

والتغيير بالمعنى الذي نتعرض له قد ينطوي على انتقال السلطة في

مكان ما من فئة الى فئـة ، أو على تسييد اتجاه ثقافي مغاير للاتجاه الذى كان سائدا من قبـل ، أو على تغيير طابع الحيـاة نفسها نتيجة للتقدم التكنولوجي • والسرعة والشمول اللذان يميزان ما يسمي بعملية التغير الثوري نسبيان ولا شك ، تختلف معايير قياسهما باختلاف المجال والاثر • فالثورة التي حدثت في عالم الطيران على سبيل المثال ابتدأت مع بداية القرن العشرين تقريبا ولا تزال مستمرة ، والعقود التي تمت هذه الثورة خلالها طويلة بمعيـار عمر الفرد ، وقصيرة بالقياس الى تاريخ الحضارة البشرية •

وقد ترتب على هذه الثورة آثار بالغة الجسامة ، لما أضافته من امكانيات في جانب هام من جوانب اتصال الانسان من ناحية ، ولاسهامها الكبير في بلوغ الممارسة الفيزيقية للقوة حدا مروعا كما هي الحـال في أحوال الحروب الحديثة من ناحية أخرى • وتنعكس آثار هذا التقـدم الثـوري في الجانب الآلي أو التكنولوجي على الجوانب السياسية في النطاقات المحلية وغير المحلية • وآية ذلك في نظرنـا أن هـذا الضرب من التغير الثوري في الجانب الآلي آذن بانقضاء عصر الثورات الشعبية في الجانب السياسي والاجتماعي ، على النمط الفرنسي أو الروسي مثلا ، كما أنه يوشك ان يؤذن بانقضاء عصر الحروب العالمية الشاملة ليحل محلها عصر الصراع الايديولوجي ، وليس ثمـة بديل لذلك سوى فنـاء الجنس البشري •

وفي نطاق الثورة السياسية ، يرى الماركسيون أنه لابد للتغيير او الثورة أن تأتي من القاعدة العريضة التي يرتبط الانتاج بها وليس من البناء الفوقي • ولا تتأتي الثورة الا من خلال تهيئة يصطلح الماركسيون على تسميتها « بالموقف الثوري » ، وأية ثورة تقوم بها فئة من الفئات

ولا ترتبط بما يسمى بالقاعدة (١) ، ان هي الا من قبيل الثورات المضادة التي تحاول الرأسمالية بوساطتها أن تبقى على نفسها ومصالحها . وتلعب الايديولوجية من وجهة النظر الماركسية دورا بالغ الاهمية في قيادة وتوجيه القاعدة ، بالرغم من أن الايديولوجية عندهم تقع في « البناء الفوقي » على النحو الذى سنوضحه فى الفصل الاخير من هذا البحث . وذلك يعني في نظرنا أن الدعاية السياسية ذات أثر بالغ في تهيئة الجماهير للثورة .

بيد ان الثورة لا تجيء في كل حال في نطاق النسق الاجتماعي السياسي المعين، ولا أحسب أن الماركسيين يختلفون معنا في أن طبقة البروليتاريا ، في العالم بأسره تشكل في نظرهم مجالا يكاد يكون واحدا للثورة كما يعرفونها . ولنا أن نضيف أن تاريخ العالم في مسيرته الطويلة أعطانا أمثلة متعددة لضروب من الثورات الفكرية « كالبروتستنتية مثلا » التي بدأها قادة لا يوضعون في مصاف السياسيين المحترفين ، ثم انعكست آثارها بعد ذلك على النظم السائدة في الانساق الاجتماعية السياسية من خلال ما يمكن ان يسمى « بالدعاية السياسية » وليس الدعاية الدينية وحسب .

وخلافا لمقتضيات القالب المعين الذى يضع الماركسيون الثورة فيه على نحو يجعل ما عداه من قبيل الثورة المضادة ، نستطيع ان نقول في بساطة أن الجماهير الساخطة بمدن ولا شك أن تستجيب، اذا استطاعت، لأية دعوة أو حركة تتوسم فيها القدرة على تحقيق امانيها أو الوفاء بمصالحها . ولا يمكن لنا ، من وجهة نظر تاريخية ، أن نطمئن الى أن

---

(١) أنظر شرح مفهوم القاعدة في بداية فصل (دعوة الاسلام) .

كل ما مرت البشرية به وتمر من تقلبات وتغييرات فـي شتى المجالات يرتبط في الاساس بالاقتصاد او يمكن أن يفسر بلغته أو بلغته وحدها . ونستطيع أن نمثل لاستجابة الجماهير الساخطة بان الشعب المصرى كان قبل الثالث والعشرين من يولية ١٩٥٢ مهيئا للاستجابة لاية دعوة الى تغيير النظام ، كائنا ما كان القائمون بهـا ، فلو أن أفراد آخرين ، غير الضباط الاحرار الذين تهيأت لهم فرصة استخدام أداة القوة التى كانت متاحة لهم ، استطاعوا أن يقوموا بالثورة لوجدوا الاستجابة نفسها من الجماهير بصرف النظر عن انتمائهم العقائدي . وتبدأ الدعاية السياسية عادة بعد اي تغير يطرأ على النظام السياسي في لعب الدور الذي يربط الجماهير بالنظام أو المعتقد الجديد الذي تسيد ، ولا حاجة بنـا فى هذا المقـام الى معاودة الاشارة الى الدور الذى تلعبه الدعاية السياسية بادىء ذي بدء في تهيئة جموع الناس للثورة . وليس من الغريب أن تقوم جماعة أو جماعات بالعمليات المهيئـة للثـورة ، ثم يستعصي عليها بعد ذلك أن تصل الى السلطة السياسية لافتقادها مصـادر القـوة التى تمكنها من ذلك ، وتأتى جماعة اخرى لتتولى السلطة بفضل ما هو متـاح لهـا من أسباب القوة . وكان المجتمع المصرى على سبيل المثال يموج قبل الثورة بفئات متعددة ، قد تتفق مصالحها أو تتضارب ، ولكنها جميعا دعت الى التغيير على النحو الذى مكن جماعة الضباط الاحرار من الاستيلاء على السلطة .

الفصل الثامن

دعوة الاسلام والايديولوجية

• • •

« ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا »

• • •

- تمهيد .
- الفروع العلمية والصراعات الفكرية .
- المادة والمنهج وأداة البحث .
- حيرة لها مغزى .
- الايديولوجية عند الماركسيين .
- أسس الدعوة في الاسلام .

تمهيـــد :

تبين الفصول السابقة من هذا البحث الدور الحضارى للاتصال فى ايجابه وسلبه وخطورته وخطره • وقد أوشك هذا الدور ـ على تمدد وتعقد جوانبه وتباين صوره وارتباطها بكل محاولات التفاعل البشرى ـ أن يحد صراع الانســان العاقل homo sapiens كما يقولون فى نطـاق المجابهة « الايديولوجية » بحيث يصبح « آخر الحرب الكلام » أو ، ان شئت ، « هى الكلام » على غير ما قصده اليه شاعرنا العربى القديم :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون له ضرام
وان النــار بالعودين تذكـى وان الحـرب أولهــا الكلام
لئن لـم يطفهــا عقلاء قــوم يكون وقــودها جثث وهــام

والجثث فى عصرنا الحديث هى ما سوف تستحيل اليه « الافكار » أو « انساق الافكار » التى تعوزها مقومات البقــاء ، أو تلك التى تخلو « هامات » أبنائهــا من العقول القادرة على تبين مواطن قوتها ، أو التى يحــال بينها وبين ذلك بقطع صلاتها بتراثها •

الفروع العلمية والصراعات الفكرية

ويعنينا هنا ان نتجه الى ما أشرنا اليه من أدوار تؤديها فروع العلم المختلفة فى مجالاتها المتعددة وتتصل بشكل او آخر بمــا يدور فى العالم على اتساعه من صراع أيديولوجى ، على أن نحد نظرتنا العاجلة فى نطاق يمس حضارتنا من ناحية ويلقى لمحــة من ضوء على ما ينبغى أن تتجه اليه عقولنا من ناحية أخرى •

فنحن لا نعيش وحدنا فى هــذا العالم ولا أحســب أن أحدا من المشتغلين بصناعة الرأى ، فى شرق العالم أو غربه ، يستثنى عقولنا

أو يمحى تراثنا مما تستهدف به العقول والتراث من تعتيم وتعقيم ٠ بل لعله — على النقيض من ذلك — يحق لكل متجرد منصف أن يرى أننا ، وأننا على التخصيص ، وما نمثل ، وما يمكن أن نكون ، نحظى فى استراتيجيات أصحاب الايديولوجيات ، الغربى منها والشرقى على حد سواء ، وفى سياساتهم الاتصالية ، بمكان أي مكان ٠

المادة والمنهج وأداة البحث

قلنا ان طبيعة الصراع الدائر الان جعلت السمات الفكرية هى الغالبة فى وجه الحضارة المعاصرة ، ومن ثم الاهمية البالغة لادوار فروع العلم ومجالات البحث الاكاديمى ٠ والفرع العلمى المعين مجال أو مجالات تتناول فيهما مادة هذا العلم من خلال منهج أو مناهج معينة تفرضها طبيعة مادة البحث أو هدفه . وتهيىء فروع العلم فى مسيرتها أدوات أو وسائل تستعين بها ٠ ولم يفت الصراع الفكرى أن يستغل هذه جميعا ٠ واذا اردنا ان نمثل لذلك فى المجال الذى اخترناه فى اقتضاب شديد ، فاننا نقدم لذلك بحقيقة من تلك الحقائق التى لا يزال القرآن الكريم يكشف عنها كلما تقادم به العهد ، ليعطى — ان وعت العقول — الدليل المستمر والمتجدد على اتساق الزمان وان طال وتباينت حقبه والمكان وان تعدد أو اختلفت بيئاته مع هذا القرآن وما أتى به ٠ وهذه الحقيقة التى يوقفنا القرن العشرين عليها هى ما سبق أن أشرنا اليه من انتهاء الصراع الى المناجزة « بالكلمة » ٠ الكلمة التى أقام القرآن معجزته عليها قبل اربعة عشر قرن من الزمان . وتحدى بها عقول الانسان وقدرته ، فوقف عاجزا أمام بنائها ومضمونها . وان جاء التحدى — وهذا هو اعجاز الاعجاز — فى نطاق ممارسة العقل

لنشاطه ، وليس في نطاق الفاته يخرق ما يستطيع أن يلحظه من القوانين السارية من حوله ٠

وكان لابد لفروع العلم الغربي من أن تتناول هذا القرآن من خلال مناهج تحكمها ما تستهدفه من محاولات الدحض ، تحت ستر من موضوعية علمية مدعاة وتجرد لم يستطعه دون اعتسافه من جانبنا - أي من المشتغلين منهم بالدراسات الاسلامية على اتساعها ، وشاهدنا على ذلك تراث ضخم من الدراسات التي قام ويقوم بها المستشرقون ولا يختلف الجديد منها عن القديم في الاخطاء والاباطيل التي تتواتر فيه ٠

واذا كنا لا نستطيع أن نوفي على بعض غاية في هذا الحيز الضيق ، فلا باس من أن نعرض لبعض ما يلقاه القرآن الكريم على أيدي هؤلاء :

ترك المسلمون عامة ، مع استثناءات قليلة يمكن اهمالها ، والعرب خاصة مهمة ترجمة معاني القرآن ليتولاها الفرنجة عنهم مستخدمين في ذلك مناهج عدة وسبلا مختلفة تمكنهم من محاربة النص القرآني في خفاء من خلال اختيارهم للمعنى الذي يرون ، وانتقائهم لالفاظ بعينها (١) وهم لا يقفون عند ذلك ، بل نرى بعضهم يعيد في ترجمته ترتيب سور القرآن مدعيا انه يقوم « بتغيير الترتيب التقليدي ليزيد من متعة المبتدىء وفهمه » ٠

"alteringthe truditional arrangement to increace the pleaure and understand,ng of the uninitiated"

---

(١) لكم نحس بالاسى ونحن نشير الى هذه الحقيقة ، اذ لا يتفق التمثيل لها والتفصيل مع مقتضيات منهج البحث الحالي . ونعد بتناولها في بحث مستقل انشاء الله ٠

وتحمل هـذه الترجمـة التي ظهرت اول مرة عام ١٩٥٦ اسـم N.J. Dawood كما تحمل من حيث معالجة النص كل سمات الترجمات الاخرى التي أشرنا اليها ، على نحو يؤكد أن الذى قام بها ليس مسلما ، ولكن لا بأس في هذه الحالة من أن يكون الجزء الظاهر من الاسم عربيا أو شبه عربي (١) حتى يسهل خداع الناس ٠

وليس هذا فحسب بل هناك من المستشرقين من أعاد في ترجمته ترتيب آيات القرآن كما هي الحال في ترجمة Rodwell التي نشرت أول مرة عام ١٨٦١ . بدعوى ضرورات منهاجية معينة تعين على تفهم النص لا محل لتناولها هنـا ٠

واذا انتقلنا الى بعض وسائل البحث التي تتيحها فروع العلوم لنفسها لنلقى نظرة على دوائر المعارف والقواميس . والدور الذي تلعبه في هذه المجالات جد خطير ، يكفي لن نشير الى دائرة المعارف الاسلامية التي سنفها المستشرقون في عصر الغفلة التي لا تزال مهيمنة على عقولنا، وليذهب من شاء اليها ليرى بنفسه ولنفسه صورنا الشائهة في مرآة الغـرب ٠

وأما عن القواميس العام منها والنوعي فحدث ولا حرج ، ويكفي أن نشير الى ما ارتبط بألفاظ : « عربي » ، و « محمد » . وغيرها في معاجم الغرب لتتبين بعدا آخر من أبعاد السعار الفكري الذى تتناول مخالبه كل ما يمت الى الاسلام بصلة ٠

---

(1) N.J. Dawood, The Koran, Harmondsworth. Penguin Books, 1974.

وقد يحق لنا ان نورد في هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينية في المواقف التى يتخذها الغرب من خلال الأداة الاتصالية العلمية ، فاننا اذا ما نظرنا الى تعريف كلمة « يهودي Jew » في قاموس أكسفورد في كل من طبعته الرابعة والخامسة على التوالي ، نرى فارقا في التعريف لا تحتاج دوافعه الى تعقيب ويكفي أن نورد التعريفين كما هما :

التعريف الاول (١) : يهودي (اسم) شخص من الجنس العبراني . مرابي مبتز (معنى دارج) . عاقد الصفقات المجحفة غنى كيهودي (تركيب) . يهودي لا يؤمن = شخص لا يصدق . قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... . تصيد اليهود = اضطهاد اليهود .

يهودي (٢) : (فعل) : يغش . يحتال (دارج) .

التعريف الثاني (٣): يهودي (اسم) : شخص من الشعب العبراني

---

(1) Jew, Person of Hebrew; (transf., colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; rich as a Jew, unbelieving Jew, incredulous person; tell that (an unlikely tale) to Jews; Jew — baiting, persecution of Jews. The concise oxford Dictionary, Fourth Edition. 1954, p. 640).

(٢) المرجع السابق Jew:. v.t. (colloq). Cheat, overreach.

(3) Jew, one of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism: (transf., detrg., vulg.) usurer, trader

أو اليهودى او شخص يعتنق اليهودية ، مرابى
(معنى مهين ومبتذل) ، التاجر الذى يعقد
الصفقات المجحفة . تصيد اليهود = اضطهاد
اليهود .

وأحسب أننا لسنا فى حاجة الى بيان أوجه التغيير التى أدخلت على المعانى من حيث التعديل والاضافة والحذف ولباقة استخدام الكلمة ، كما نلاحظ أن استخدام الفعل Jew بمعنى « يغش أو يحتال » قد اسقط نهائيا فى الطبعة الاخيرة ، بالرغم من وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة السابقة .

ولئن كنا قد توخينا القلة فيم أوردنا من أمثلة تمشيا مع منهاج هذا البحث ، فان الامر الذى يعنينا ن نبينه عنيا ، اضافة لما يعنى به البحث فى مجمله من علاقة بين القوة والايديولوجية والاتصال والرأى العام ، هو أن الهجمة القديمة الجديدة على الاسلام لا تزداد ضراوة وحسب فى تخفيها بين ثنايا المنهج وآداة البحث ، وانما تحاول فى تخفيها بين ثنايا المنهج وآداة البحث ، وانما تحاول فى الوقت نفسه أن تكسب أرضا داخل نطاق معسكر الاسلام نفسه ، وهى لا تعدم بيننا من لا يستلهمون فى فكرهم وجهدهم سوى وحيها الخادع ولالائها الزائف .

واذا كان « اتصال » الشرق العربى باوربا يفسح المجال للعديد من القضايا التى لا تدخل فى نطاق البحث الحالى ، فلعل لنا أن ننهى

= who drives hard bargains, Jew — baiting, persecution of Jews. (The concise oxford Dictionary, Fifth Edition, 1968, p. 652).

هذه النقطة بكلمات للمستشرق « جيب » اختار المستشرق الكبير « نيكلسون » أن ينهي بها تاريخه الشهير : A Literary History of the Arabs وعسانا أن نخرج منها بشيء :

« ··· ان الادب العربي الجديد ليس وريثا للادب العربي الكلاسيكي القديم الا في نطاق محدود . بل وحتى يجنح الى نبذ تركته كليــة · وقادة هذا الادب في الغالب رجال نهلوا من ينابيع أخرى وينظرون الى العالم بعيون مختلفة · ومع ذلك فان الماضي لا يزال يؤدى دورا في خلفيتهم الفكرية ، وله على فريق منهم قبضة لا تهزها التأثيرات الجديدة الا فيما ندر · وقد اشتبك اشياع القديم والجديد ، لعقود عدة . في صراع يستهدف روح العالم العربي ، ولم يتأكد فيه النصر بعد لفريق دون فريق · وابطال هذا الصراع ··· هم الطبقات التي تعلمت في أوربا من المصريين والشوام من ناحية والطبقات الاخرى ، في مصر وغيرها من البلدان العربية الاقل تقدما ، التي تلقت تعليما تقليديا من ناحية أخرى · وأيا كانت النتيجة التي سينتهي اليها هذا الصراع ، فلا شك في أنه نزع العالم العربي من مرساه القديم ، وفي أن الادب المعاصر في مصر والشام ينفث في تطوره الحالي روحا غريبة عن التراث القديم » ·

والى الذين قد يعن لهم أن يردوا ذلك الى الادب خاصة ، على ما في ذلك من تجاهل لوجه من أشمل وأخطر وجوه الاتصال ، نسوق العبارة التي شاء « نيكلسون » أن يعقب بها هذا الكلام مباشرة :

Hitherto western culture has only touched the surface of Islam ·

« ان الثقافة الغربية لم تمس الاسلام حتى الان الا من عند السطح » · ثم مضى يتساءل « عما اذا كانت هذه الثقافة الغربية ستضرب في نهاية

الامر في الاعماق وتخترق الحواجز الداخلية لهذا النظام الكلامي Scholastic discipline والتراث الادبي المتأصلين في وجدان الشعوب الاسلامية (١) ٠

واحسب أن كلام « جيب » و « نيكلسون » يغنينا عن التعقيب في هذا السياق وان كان لا يعفي الباحثين منا في مجالات العلوم الاجتماعية والسياسية وبقية فروع العلوم الانسانية من أن يطوروا مناهج جديدة تستلهم تراثنا وتجلوا عبقريته ، وأن يستحدثوا أداة بحث تخلصه مما علق به ٠

حيرة لها مغزى :

وكان من الطبيعي أن تنتهي مناهج البحث الغربي في مجالات الدراسات الاسلامية ، بعد مسيرة سبعة قرون طوال ، الى مواجهة معضلة يستعصي على العقلية الغربية فهمها ، وان سلمت بها ، وهي أن للاسلام جذوة روحية تزداد اتقادا أو هي لا تخبو ، تحت ما تعرض ويتعرض له الشرق المسلم عامة والشرق العربي خاصة من قهر يطول وظلم يقيم ٠ وهم اذ يقفون عند هذه الظاهرة ويطيلون الوقوف تأبى عليهم عقليتهم او تأبى عليهما مناهجهم ومقاصدهم ألا يتجاوزوا مقارنة عقيدة الاسلام وحضارته بغيرها من العقائد والحضارات التي لا يقعون فيها على مثيل لهذه الظاهرة الفريدة ، الى نظرة متجردة تعينهم على فهم خصائص في عقيدة الاسلام تقيم هذا الفارق وغيره بينها وبين المعتقدات التي تتناول بالدرس في علوم الاديان وتواريخها ومقارناتها ٠

---

(1) R.A. Nicholson, A Literary History of the Arabs, Cambridge University Press, 1956. pp. 469-70.

ولهذه الظاهرة الفريدة فى ذاتها دلالة بالغة على ما يستقيم فى مسالة الاعتقاد وما لا يستقيم ، وعلى ما يقوم على عقل الانسان وينسجم مع فطرته وما لا يقوم أو ينسجم ٠

ونسوق لمن يريد أن يتأمل هذه الظاهرة الفريدة ، حقيقة أخرى لا نحسبها تجاوز ادراك من يقرأ تاريخ أو تواريخ العالم : مؤداها أن جيوش المسلمين ـ ما دمنا بصدد القوة وأنساق الافكار ـ لم تجز بلدة لتتركها وقد حل بها الخراب وانتهبت يد السلب كل ما فيها على نحو ما هو مشهود به للتتار والمغول والصليبيين (١) ، وانما ارست على النقيض من ذلك كله أسس تحضر أقامت البنيان وحررت العقل وقومت الوجدان٠

فاية قوة تلك التى استطاعت فى اول أمرها أن تغير المواقف البعدية التى تتداخل لتكون المفاهيم ، ثم شكلت بعد ذلك المواقف الاولية التى تكون نواة الشخصية (٢) ؟ ٠

فعلى من يشاء أن يفهم هذه وتلك،ان يتدبر أمر الاسلام أول ما يتدبر من خلال القرآن . فان أوفى على غاية فى ذلك بتوخى روح التجرد ، فانه ولا شك مدرك بعقله صفة الاعجاز فيه ، على نحو يقيم الدليل بعد ذلك على وجود ما ليس لعقل انسان قدرة على الاحاطة به ٠

---

(١) انظر الدراسة التى تكاد تكون الوحيدة فى شمولها للحروب الصليبية من مقدماتها وحتى نهاياتها ، وهى واحدة من الدراسات القليلة التى تجلو ما اشرنا آنفا عند رنسيمان :
Steven Runciman, A History of the Crusades, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, in three Volumes.

(٢) انظر الفصل السابع من هذا البحث ٠

واذا كان منهج هذا البحث يصل ما بين القوة والايديولوجية بوشائج توحدها وان اختلفت الاوجه البادية ، واذا كان للايديولوجية كما يصطلح عليها التربيون معاني وخصائص محددة ، فما مبلغ انطباق ذلك أو عدم انطباقه في نطاق ما هو اسلامي ؟

ولعلنا نستهدف بذلك أن نظهر جزئيا كيف ان الركون الى الانماط والقوالب ـ التي تصب بعض فروع العلم الظواهر المختلفة فيها ثم تربط بينها وتحاول أن تعلل ـ مضلل الى حد بعيد ويفسح المجال للاعتساف والتجني تحت ستار العلمية أو يضع العوائق ـ اذا خلصت النوايا ـ في طريق القدرة على توخي الموضوعية العلمية • ويصدق هذا أكثر ما يصدق في مجالات مقارنة العقائد وتصنيفها •

لعل لنا أن نعود في هذا السياق الى تناول الايديولوجية (١) من زاوية تحددها النظرة الماركسية ، اذ ان استخدام لفظة الايديولوجية ، وان كان يرجع من الناحية التاريخية الى أيام الثورة الفرنسية ، يرتبط الان ارتباطا ظاهرا بالماركسية ، ولا تكاد التعريفات الاخرى للايديولوجية تنأى بها في كثير عن المفهوم الماركسي لها اللهم الا في نطاق محاولة استحداث فوارق بين ما هو ماركسي وما هو مضاد للماركسية في الفكر الغربي ولذلك فان هذا البحث لا يأبه كثيرا لتلك الفوارق •

والامر الذي يعنينا في الاساس يجمله سؤالان يترتب أحدهما على الآخر :

اولهما : هل الاسلام ايديولوجية لها نفس الخصائص التي تحددها التعريفات الغربية لهذا المصطلح ؟

---

(١) أنظر الفصل الثاني من هذا البحث •

وثانيهما : اذا كانت فلسفة الايديولوجية تحدد طبيعة أسس مجابهتها لغيرها من الايديولوجيات ، فهل تتفق هذه الاسس فى الاسلام مع غيرها من الاسس أم تختلف ؟

وواقع الحال اننا نجد أنفسنا مضطرين الى أن نجمل فى نطاق حيز محدود ما لا يمكن أن يوفى على غاية فيه الا فى بحث مستفيض . وعلينا مع ذلك أن نحاول على وعى بأن الاجمال لا يغنى فى هذا المقام بالذات عن تفصيل وتفصيل .

الايديولوجية عند الماركسيين

لابد لنا ، حتى نفهم المعنى الدقيق للايديولوجية عند الماركسيين ، من أن نلقى نظرة على مفهومى « القاعدة Basis » و « البناء الفوقى Superstructure » عندهم . فهم يرون أن هذين المفهومين من مفاهيم « المادية التاريخية » يظهران الصلة بين العلاقات الاقتصادية الاجتماعية وكل العلاقات المجتمعية الاخرى . وتتمثل القاعدة فى مجموع علاقات الانتاج Production Relations التى تشكل البناء الاقتصادى للمجتمع . ومفهوما « القاعدة » و « علاقات الانتاج » يترادفان ولكنهما لا يتطابقان . ويتلازم مفهوم « علاقات الانتاج » مع مفهوم « قوى الانتاج » او القوى المنتجة Productive Forces ، بينما يتلازم مفهوم « القاعدة » مع مفهوم « البناء الفوقى » ، ويشمل البناء الفوقى الافكار والتنظيمات والمؤسسات . وتشمل الافكار البنائية الفوقية الآراء السياسية والقانونية والاخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية ، التى يصطلح أيضا على تسميتها بـ « اشكال الوعى الاجتماعى » Forms of Saciel Consciousness . وتعكس كل

اشكال الوعى الاجتماعى العلاقات الاقتصادية بطريقة أو بأخرى • فبعضها كأشكال الوعى السياسية والقانونية ، يعكس العلاقات الاقتصادية مباشرة، والبعض الآخر، كالفن والفلسفة، ان هو الا انعكاسات غير مباشرة لها • وتضم علاقات البناء الفوقى للعلاقات الايديولوجية • وعلى حين تتشكل علاقات الانتاج مستقلة عن وعى الانسان ، فان العلاقات الايديولوجية لا تتشكل الا بعد دخولها فى هذا الوعى • وتستقل ظواهر البناء الفوقى نسبيا فى تطورها بالرغم من تحكم القاعدة فيها وترتبط بكل شكل من اشكال الوعى الاجتماعى تنظيمات ومؤسسات بعينها ، فترتبط الاحزاب السياسية بالافكار السياسية ، وترتبط مؤسسات الدولة بالافكار السياسية والقانونية ، وترتبط الكنيسة وتنظيماتها بالدين وهلمجرا • **فلكل تكوين اجتماعى اقتصادى قاعدة محددة وبناء فوقى يقابلها** (١) •

ويفرق المؤرخون الماركسيون بين القاعدة والبناء الفوقى فى المجتمعات التى تتميز بتملك العبيد أو بالاقطاع أو الرأسمالية أو الشيوعية • وتترتب التغييرات التى تطرأ على القاعدة والبناء الفوقى على التحول من تكوين اجتماعى Social Formation اقتصادى الى تكوين اجتماعى اقتصادى آخر • كما يتطور البناء الفوقى فى نطاق التكوين الاجتماعى الاقتصادى الواحد بانتقال هذا التكوين من مرحلة الى مرحلة ، كما هى الحال عندما ينتقل التكوين الى الامبريالية مثلا ، اذ يظهر البناء الفوقى عندئذ علاقات الجنوح المتزايد الى الرجعية •

Social Formation

(1) V Afanasyev & Others. Fandamentals of Scientific Socialism, Moscow, Progress Publishers, 1959, pp. 258-285

والبناء الفوقي ، الذي تأتي به القاعدة الاقتصادية الى الوجـود والذي ان هو الا انعكاس لها ، ليس سلبيا ، اذ انه يلعب دورا فعـالا في العملية التاريخية ويؤثر في كل جوانبهـا ، بمـا في ذلك الجانب الاقتصادي الذي يدين له هذا البناء الفوقي بوجوده . ففي المجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة تنطوي القاعدة والبناء الفوقي على بناء متضاد Structure Antagonistic . ويسود المجتمع الراسـمالي ، على سبيل المثال ، صراع ايديولوجي عنيف بين البرجوازية والبروليتاريا وبين وجهات النظر السياسية والاخلاقية والفلسفية وغيرها لهذه الطبقات . وتحدد طبيعة البنـاء الفوقي المتضادة مع القاعدة الاقتصادية في المجتمع الطبقي ، الادوار المتعارضة لايديولوجية الطبقات . ففي المجتمع الراسمالي يقوم البناء الفوقي السياسي ، بأفكاره البرجوازية عن الحرية والمساواة وغيرها ، على خدمة القاعدة الاقتصادية الراسمالية ، في حين تتجـه الايديولوجية والتنظيمات البروليتارية الى القضاء على القواعد الاقتصادية الراسمالية ولا يتأتى الا في المجتمع الاشتراكي ـ حيث تخلو علاقـات الانتاج من التضاد ـ أن يصبح البناء الفوقـي أكثـر تجانسـا بالمعنى الاجتماعي ويستهدف خدمة قضية عامة ، هي اصـلاح وتطوير القاعدة الاقتصادية للاشتراكية .

ولقد عمدنا الى بيان هذه المفاهيم بدقة على النحو الذي يطرحها به الماركسيون اذ ان ذلك يبين من وجهـة نظرهم الاسس التي يقوم عليهـا النسق الاجتماعي السياسي وعوامل تغييره ودور الايديولوجية في ذلك .

ويعرف الماركسيون الايديولوجية ـ بعد ذلك ـ على أنها نسق من الآراء أو الافكار السياسية أو القانونية أو الاخلاقية أو الجمالية او الدينيـة

أو الفلسفية (١) • والايديولوجية جزء من البناء الفوقي ، وهي بهذا المعنى تعكس في النهاية العلاقات الاقتصادية ، ويمثل الصراع الطبقي في المجتمع الذى تصطرع فيه الطبقات (٢) • وقد تكون الايديولوجية علمية أو غير علمية ، وقد تكون انعكاسا حقيقيا أو زائفا للواقع ، حيث تغذي مصالح الطبقات الرجعية ايديولوجية زائفة ، بينما تعين مصالح الطبقات التقدمية والثورية على تشكيل ايديولوجية علمية •

ولقد استطردنا في هذا العرض بأمانة وبالمصطلح الماركسي نفسه الى هذا الحد لاننا لسنا من أنصار اغلاق القضايا بالتعمية أو بمنطق خاص لا يلبث زيفه أن يثير نفور العقول ، ولاننا نريد من ناحية أخرى أن نصل مع الماركسيين الى ما انتهوا اليه من أن للايديولوجية ـ بالرغم من أنهم يرون أن الاقتصاد هو الذى يحكم تطورها ـ استقلالا نسبيا معينا يرد الى استحالة تفسير محتوى الايديولوجية عن طريق الاقتصاد مباشرة من ناحية ، والى كون التطور الاقتصادى والتطور الايديولوجي النسبي هذا يزداد وضوحا اذا ما لاحظنا آداء القوانين الداخلية التى تحكم لتطور الايديولوجي والتى لا يمكن ارجاعها مباشرة الى الاقتصاد في المجالات الايديولوجية البعيدة كل البعد عن القاعدة الاقتصادية •

ونحن لا نحب أن نختلف كثيرا مع الماركسين فيما انتهوا اليه

---

(1) Clemens Dutt, Fundamenatls of Marxism — Leninism Moscow. Progress Publishers, 1964 p. 141 Seq.

(2) G. Kursanov. Fundamentals of Dialectical Materialism. Moscow, Progrees Publishers, 1967, pp. 5-17.

او فيما كان لابد لهم من أن ينتهوا اليه والا استحال نتاج عقل الانسان ، عبر التاريخ كله ، الى مادة يحكمها قالب واحد ذو صفات معينة تحدد سمات هذا الفكر وما يرتبط به من سياسة وتشريع وأخلاق وفن ودين وفلسفة . وانما نحب أن تستخلص في وضوح أن النسق الفكري — ولا نقول الايديولوجية — يمكن أن يكون غير ذلك •

واذا كان حظ الماركسيين الاول من المعرفة الدينية قد ارتبط بقدرتهم على التعرف على معتقداتهم الاصلية والذهاب معها مذاهب شتى بحيث ولزوما في نهاية الامر ادبارهم ، فان حظهم هذا قد ارتبط في الوقت نفسه بقصور أداة عصرهم عن أن تنقل لهم صورة صحيحة للدين الذي يوفي على كل غاية فيما يستهدفونه في جانب المادة ، وفي الجانب الذي تفتقد حياة الانسان بدونه كل مغزى لها وهو جانب الروح •

وهذا يعني أن قدرتهم على فهم ما تطرحه حضارة الغرب من معتقدات وفلسفات آلت بهما مسيرة القرون الى الافلاس (١) وارتبطت بادىء ذي

---

(١) يقول برتراند رسل في تقديمه لكتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية ، والذي نتفق معه تمام الاتفاق على أنها فلسفة غربية :
« ... ان معظم الاسئلة التي تولبها العقول المتأملة جل اهتمامها هي من ذلك الضرب الذي لا يستطيع العلم الاجابة عليه ، والاجابات الواثقة التي يعطيها أصحاب اللاهوت لم تعد تبدو مقنعة كما كانت في القرون الخوالي ... » ثم يمضي بعد ذلك قائلا : « أن العلم يخبرنا بما نستطيع أن نعرف ، ولكن الذي نستطيع أن نعرفه قليل ، واذا ما تناسينا مقدار ما نجهل نصبح مستغلقين ازاء الكثير من الاشياء بالغة الاهمية • وعلم اللاهوت من ناحية أخرى يجعلنا نعتقد اعتقادا تعسفيا أننا نعرف على حين أننا في الحقيقة نجهل ، وهو يولد بذلك ضربا سخيفا من الاهانة للكون •

بدو يعجزهم عن الالمام بما تستقيم عليه وبه طبيعة الانسان ، ولا نحب أن نستطرد في التعليل لذلك بالقصور الاتصالي من ناحية وبالحروب الضارية التي شنتها المعتقدات الاخرى ضد الاسلام من ناحية أخرى ، على وعد بأن نعود الى ذلك في مبحث آخر ٠

والفلسفة الماركسية تأتي متأخرة في تاريخ الفلسفة الغربية ، لتعكس مع غيرها من الفلسفات الغربية المعاصرة ما يسود الفكر الغربي بعامة من افكار ٠ ولا يرد ذلك ـ كما يحلو للمتمصرين أن يزعموا ـ الى قدرة على توخي موضوعية علمية تتميز بها العقلية الغربية أو الاوربية دون العقلية الشرقية ، وانما يرد ذلك الى أن مادة الفكر التي طرحت على هذه العقلية لم يكن لها من الخصائص ما يستقر بها على يقين منطق أو طمأنينة قلب ٠ ويشهد على ذلك الواقع التاريخي والاجتماعي للغرب على النحو المطروح في مختلف مجالات فروع العلوم الانسانية ٠

ولنا بعد ذلك وقفة نجمل فيها الامور التي يحق معها للناظر في تجرد الى النسق الفكري الاسلامي أن يخلص الى أن عقيدة الاسلام كدين ودولة تعكس اتصال هدى السماء بجهد الانسان الذي قدر له أن يسعى على هذه الارض ليبلغ بنفسه غايتها عبر حياة لا يمكن أن تستقيم لـه

ان عدم اليقين ، ازاء الآمال والمخاوف الواضحة ، مؤلم ولكن ينبغي أن نحتمل اذا كان لنا أن نحيا دون أن نستعين بما يروج من أقاصيص العفاريت ٠٠٠ والشيء الرئيسي الذي لا زالت الفلسفة تستطيع في عصرنا أن تفعله لدارسيها هو أن تعلمهم كيف يحيون دون يقين ودون أن يشلهم التردد بالرغم من ذلك » :

(B. Russell, History of Western Philosophy; London; George Allen & Unwin Ltd. 1946, pp. 10-11).

أنظر الملحق السابع من الملاحق الانجليزية ٠

أو به الا على أسس من العدل والخير والخلق تقوم عليهـا الصورة للتنسيق لاجتماع نوعه وتفاعله بتحقيق التوازن بين ما ركب فيه وجبل عليه كفرد وبين ما يقتضيه هذا الاجتماع .

« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »
(٩ ـ الحجر)

« انا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا »
(٢٣ ـ الانسان)

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمـة وبشرى للمسلمين » (٨٩ ـ النحل)

« يا أيها النبي انـا ارسلناك شـاهدا ومبشرا ونذيرا * وداعيـا الى الله باذنه وسراجا منيرا » (٤٥ ، ٤٦ ـ الاحزاب)

« وما ارسلناك الا كافة للناس »
(٢٨ ـ سـبأ)

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكـر وانثـى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكـم عند اللـه اتقاكم ان اللـه عليم خبـير » (١) . (١٣ ـ الحجرات)

---

(١) لم نشأ أن نورد آيات القرآن العظيم التي نستشهد بها موزعـة داخل السياق ، ورأينا أن نجعلها عقب كل مسالة تعالجها ، اذ أن ذلك أوفى على الغاية وأبين ، فالنظرة الى هذه الآيات مجتمعة تظهر ما قصدنا اليه من دلالة قدمنا لها قبل الاستشهاد ، وقد اتبعنا مع ذلك ، نهجا يعين على ايضاح الفكرة ، وهذه الآيات ـ على سبيل المثال ـ تبين حسب ترتيبها : ١ ـ أن الله سبحانه وتعالى هو الذي نزل القـرآن ، ٢ ـ وأن هـذا

أولا :

اذا كان الماركسيون يفسحون المجال للاستقلال النسبي للايديولوجية على النحو الذي أسلفناه ، واذا كان الواقع الحضاري الذي ينتمون اليه قد انتهى بالعقل الغربي الى الحد الذي له تاريخ في أوربا والى التبشير « بموت الرب » في الولايات المتحدة الامريكية (١) • على تعدد واختلاف في المذاهب والفلسفات لا يكاد يقر معهما العقل المعاصر على قرار ، اذا كان هذا ، وكان ذاك ، فانه يحق لنا أن نقول للحضارة الغربية : ان ايديولوجية الاسلام ، اذا صح أن نستخدم هذه اللفظة، لم تنبثق من خلال واقع تاريخي معين أيا كانت تسميته ، وانما طرحت من عل على عقل الانسان ووجدانه لتأخذ بيده عبر كل واقع يرتبط بحياته على اختلاف بيئاته وتنوعها من حيث الخصائص والمكان والزمان ؟

ثانيا :

ان طرح المعتقد الاسلامي على هذا النحو ينطوي على اعجاز فريد ، أو هو وحيد ، في كونه لا يلغي أو يجافي قدرة العقل بوضعه ازاء معجزات تخرق القوانين التي استطاع أن يلحظ منطقها أو اضطرادها في الاشياء من حوله ، ولكنه ــ على النقيض من ذلك ــ يحيي في هذا العقل

= التنزيل كان على مهبط وحي الله محمد صلى الله عليه وسلم ، ٣ ــ وأن لهذا التنزيل وظيفة معينة يؤديها ، ٤ ــ وأن مهمة الدعوة تناط بالرسول العظيم ، ٥ ــ وأن هذه الدعوة موجهة الى الانسانية بأسرها ، وليس ثمة معيار للتفرقة بين أناس وآخرين سوى الالتزام بمقتضيات هذه الدعوة •

(١) أنظر الملحق الثامن في الملاحق الانجليزية •

كل قدرة على النفاذ والاستقراء والتامل ، ويفتح لـه صفحات الكون والنفس ليقرا فيها ما شاء له ان يقرأ .

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق او لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد » .

(٥٣ ـ فصلت)

« وكاي من آية في السموات والارض يمرون عليها وهـم عنها معرضون » .

(١٠٥ ـ يوسف)

« ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » .

(٢٢ ـ الانفال)

(٤) « هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شـجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسـخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ان فـي ذلك لآيات لقـوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الارض مختلفا الوانه ان في ذلك لآيات لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . والقى في الارض رواسي ان تميـد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله غفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . الذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا

وهم يخلقون • اموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون • الهكم اله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون •

(١٠ ـ ٢٢ النحل)

« انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور» •

(٢٨ ـ فاطر)

ثالثـــا :

لم تتحدى معجزة الاسلام عقل الانسان الا فى خصيصة يرتبط بها صميم نشاطه • فتحـدى القرآن الناس أن ياتـوا ، استطاعوا بآيات كتلك الآيات المحكمات التى آتى بهـا •

« أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » •

(١٣ ـ هود)

« وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين • ام يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعـوا من استطعتم مـن دون اللـه ان كنتم صادقين » •

(٣٧ ، ٣٨ ـ يونس)

« وان كنتم فى ريب ممـا نزلنا على عبدنا فاتـوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » •

(٢٣ ـ ٢٤ البقرة)

وهذا يعنى أن القرآن تاجزهم بسلاح « الكلمة » وهو سلاح متاح لهم ، ومن طوقهم أن يبلغوا فى حسن استخدامه آمادا بعادا ، فهل استطاعوا ؟ وهل يستطيعون ؟ كلا ... لا نقولها فى ثقة الذين يجهلون ما يرددون ، ولكننا نقولها فى يقين من يستطيع ويستكنه خصائص عبقرية اللغة ، ثم يقف فى حيرة اذ يتأمل هذا البناء القرآنى الشامخ ، الذى استعصى فهمه ويستعصى على المستشرقين والمبشرين الذين لا يحق لهم او لأيهم ان يزعم أنه يجمع فى فهمه القاموسى المنقوص للعربية مقومات النشأة والفطرة والقدرة ، فضلا عن ان يدعى روح التجرد التى نستطيع أن نقول أننا لم نقع أبدا عليها عندهم على طول رحلتنا على دروب المستشرقين والمبشرين الملتوية .

رابعـــا :

ولا ترتبط معجزة الكلمة فى الاسلام بالبناء اللغوى القرآنى وحسب ، بل اتصلت الكلمة بالكلمة لتعطى ، فيما تعطى ، تشريعا يتسق مع جميع مقومات الانسان فى انفراده واجتماعه .

« ا لر كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

(١ ـ هـود)

« ا لر كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » .

(١ ـ ابراهيم)

« ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » .

(٨٩ ـ النحل)

« وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .

(٤٨ ـ المائدة)

« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »

(٥٢ ـ الاعراف)

« كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب ».

(٢٩ ـ ص)

« انا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انت عليهم بوكيل » .

(٤١ ـ الزمر)

ولا احسب أن منهج هذا البحث يفسح المجال للتوسع فى عرض ذلك .

خامسا :

وحسبنا أن نشير الى ان اكتمال القضاية القرآنية فى تناولها للمفهوم الالهى ،ولمفهوم النبوة ، والكون وللانسان وفطرته ، وما يتصل به ، وفى تناوله للعلاقة بين هذه القضايا جميعا يدل مع النظرة التى تتجرد وتستقيم ـ على أنه يستحيل على عقلية واحدة عاشت فى القرن السابع ان تاتى بهذا القرآن من عندياتها وان أتيح لها ـ جدلا ـ كل ما

أتيح عبر التاريخ ، وحتى القرن العشرين ، من معرفة بشرية أو من قدرة بشرية على المعرفة . والثابت أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاءنا بالقرآن ولم يستطع المستشرقون والمبشرون أن يشككوا فى صحة نسبة القرآن أو أى جزء منه الى مهبط وحى الله : محمد صلى الله عليه وسلم .

والواضح اذن أن هذا القرآن لم يأت به رسل متعاقبون على امتداد زمنى واسع على تشكك فى النص أو فى نسبة جزء منه الى هذا الرسول أو ذاك ، فضلا عن أنه أنزل الى البشرية فى مجموعها . فالاسلام لا يحمل قوما معينين على رؤوس البشر اجمعين ، ولا يختار من بينهم مختارين .

« وما ارسلناك الا كافة للناس » .

(٢٨ ـ سبأ)

« قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

(١٠٨ ـ الاعراف)

« ان أكرمكم عند الله اتقاكم » .

(١٣ ـ الحجرات)

« هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

(٣٣ ـ التوبة)

« بعثت الى الاحمر والاسود » .

(حديث شريف)

« لا فضل لعربى على اعجمى الا بالتقوى » .

(حديث شريف)

ولعلنا نستخلص مما تقدم أن المعانى التى ترتبط بلفظة

« الايديولوجية » فى الفكـر الغربـى لا يمكن أن تنصرف على الاجمال والتخصيص الى عقيدة الاسلام ، وعلينا أن نبحث عن لفظة أخرى اذا كان لنا أن نعبر عن النسق الفكرى الاسلامى فى مفهومه الصحيح ، واحسب فى نهاية الامر أننا فى غنى عن ذلك • وليس لاى اطار أو قالب مستجلب أن يفرض نفسه علينا فى نظرتنا الى عقيدتنـا اذا كان ذلك سيجعلها تلتبس بمعـان نحن أحرى بأن ندفعها عنها •

اسس الدعـوة فى الاسـلام

وبعد أن انتهينا الى أن للاسـلام خصائصا تغايـر تلك التى تميز « الايديولوجية » كما تعارف عليها الغربيون على الاجمال ، نجد أن معانى الآيـات والاحاديث التى أوردناهـا فى الفقـرة السابقـة تنتهى بنـا بالضرورة الى معالجة السؤال الثانى الذى طرحناه حول اسـس الدعـوة فى الاسـلام •

فللاسلام ، اذن ، دعوة يتوجـه بهـا الى البشرية فـى مجموعها ، ولهذه الدعوة من الخصائص ما يجعلها قادرة على أن تفى بغايـة انسان القرن العشرين فيما ينشده من تكامل ، لا على مستوى الجماعة بالمعنى الضيق وحسب ، بل على مستوى جماعـة الانسـان على تباين البيئـة واختلاف المكان • وحسبنا فى هـذا المقـام ان نعالج هـذه المسالة من خلال نظرة واحد من أكبر الثقـاة الغربيين كمـا يقولون فى مجـالات الدراسات الاسلامية وهو Mountgomery watt اذ أن ما ينتهى اليه هذا المستشرق ، على ما به من انحياز لم تستطع حركة الاستشراق فى عمومها أن تخلص نفسهـا من ربقتـه ، يمثل مـا اضطر الباحثون الغربيون الى التسليم به بعد طول عناد وجنوح الى التعمية والالتواء •

فنراه يخصص في نهاية كتاب له عن الاسلام وتكامل المجتمع » صفحتين للحديث عن مستقبل الاسلام يسلم فيهما فى وضوح كامل بهذه الحقيقة التى طال تجاهلها ، وان كان هذا التسليم لا يقصد به احقاق ما هو حق ، بقدر ما يقصد به تنبيه الغرب الى ما يمكن ان يكون من امر هذا الدين ، اذا استيقظ أصحابه من سباتهم وافاقوا من غفلتهم ، وعادوا الى الاستمساك بالعروة الوثقى ، وقرر لهم أن يعاودوا ابراز الدور الحضارى للنسق الفكرى الاسلامي • فهو يرى ـ W. M. Watt ـ » أن النقطة الاساسية فى هذه المسالة هى التجديد الروحى أو استعادة القوة المحركة "The fundamental Point is poi nt is spiritual renwel or the recovery of dynamic" ويتساءل عما اذا كان ممكنا بالنسبة للاسلام وعما اذا كان من الممكن اعادة الحياة والحيوية اليه بعض قرون من الازدهار والانحسار• ونراه يضطر الى التسليم بأن كل شيء يوحى بأنهم ـ اى الدارسين الغربيين ـ ليسوا فى وضع يمكنهم من القطع باستحالة ذلك ، وان كان دون تحقيقه خرط القتاد • ومن الغريب حقا ان نجده يحاول أن يعلل فى الوقت نفسه لعدم قدرته على القطع برأى فى هذه المسالة بأنه لا تتوفر للانسان فى الوقت الحاضر المعرفة الكافية التى تمكنه من ان يدلى برأيه ، ويشكك حتى فى امكانية توفر هذه المعرفة مستقبلا ، ثم يقول : » ان حرية الحياة فى قلوب أفراد الجماعة تبدو فى الأساس خفية بمعنى أنها ليست من حيث المبدأ فى متناول علم الانسان « • ويزعم أن اى جهد مهما بلغ لن يمكنهم والحال كذلك من التكهن بما سيكون عليه امر الاسلام ، كما لو كانت المسالة لا تناط الا بالنيات التى يعول فى الحكم عليها على ما تنطوى عليه القلوب ، وكما لو كان الاسلام دينا

بلا تاريخ يعبر ما مضى معه الى ما يحتمل فى مستقبل أيامه ، وكما لو كانت مقوماته من الخفاء بحيث لا يستطيع الباحث أن يقف منها على أثر ٠

ولسنا ندرى ، أو لعلنا ندرى ، ما اذا كان ذلك سذاجة منه أو تساذجا !

واعجب معى ، وأطل العجب ، اذ تراه بعد ذلك يقرر « أن الاسلام فى سعيه الى كسب العالم كله سيتصرف على نحو يتسق مع سجله القديم » ٠ فصاحبنا ــ M. Watt ــ يعى ، اذن ، أن للاسلام سجلا تاريخيا قديما يجلو واقعة كممارسة . ولا شك فى أن سمات هذه الممارسة ترتبط بخصائص النسق الفكرى الاسلامى ، وما قيمة التاريخ بعامة ، وما قيمة علم الاجتماع بخاصة ، اذا لم تستطع مناهجها أن تعين الباحث على تقييم الظواهر على نحو يصل الماضى بالحاضر ويخرج من هذه العلاقة بما يمكنه من استشراف أمور المستقبل واحتمالاته ؟

ثم يصل « وات » بعد ذلك الى حقيقة لا نحسب أنها تخفى على اى ناظر الى واقع عالمنا المعاصر ، وهى أنه من غير المحتمل أن ينجذب الناس ، فى هذا العالم الذى أصبح عالميا واخذا بالمعتق المادى ، الى اى دين سوى ذلك الدين الذى يتوجه بـ « رسالة » الى العالم كله ٠ ثم يستطرد قائلا بالحرف الواحد : « ولو أننا نظرنا الى الاسلام ، اذن ، من وجهة النظر هذه ، نرى أنه ليس غير مناسب لان يكون دينا للعالم كله :

If we look at Islam, then, from this point of view we see that it is not unfitted to be a religion for the whole world" (1)

---

(1) W. Montgomery watt, Islam and the integration of society. London. Routledge & Kegan Paul, 1970, pp. 282-3.

وكان بوسعه بالطبع ان يقول في بساطة « نرى انه مناسب » بدلا من « نرى أنه ليس غير مناسب » التي تنبى ـ بالرغم مما يحاوله من تملل ـ عن الغصة في حلوقهم أو ان شئت فقل في عقولهم وقلوبهم من هذا الدين • وواقع الحال ان دعوة الاسلام وما تتميز به ليست في اى حاجة الى قولة يقولها من الفرنجة او اشياعهم قائل ، او يلتوي بها او يحول دونها حائل ، كائنا من قد يكون ، أو كائنة ما قد تكون مكانته على الحقيقة أو الادعاء ، ولكننا نجري هنا على ما تقول به العرب من أن الحق ما شهدت به الاعداء • والحق في دعوة الاسلام بين وقائم بمقوماته وصفاته ، وان حاول الخصوم أن يوهنوا من عزمة دعاته ، وهيهات لهم أن يبلغوا الغاية في ذلك ، وان تيسرت لهم أسباب النجح الى حين :

« يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويابى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٢ ـ التوبة) •

ولعله ليس من معاد القول في غير ما محل ان نذكر وقد شارف هذا الفصل على نهايته أننا لا نحاول ، ولا يدخل في منهج هذا البحث أن نحاول ، دفاعا عن الاسلام ، وانما قصدنا الى القاء لمحة من ضياء على الدور الحضاري للنسق الفكري الاسلامي وقيمته الاتصالية الكبرى التي ترتبط بقدرته على جعل التفاعل الاجتماعي السوي يؤدي الى التكامل الاجتماعي لا على مستوى الجماعة بالمعنى الضيق وحسب ، بل على مستوى جماعة الانسان •

ونعود هنا الى watt الذي يقول ، « لقد كان الاسلام عبر تاريخه دينا ذا رسالة عالمية • وفي سعيه لكسب العالم كله سيعمل على نحو يتفق مع سجله القديم وسيلقي أمره قبولا ، ايضا ، باعتبار أن فكرته عن

المجتمع الديني ـ الذى يقوم على أساس من الوحي والـذي يتبع شرعة سلوكية منزلة من السماء ـ هى الاساس المرضى الوحيد لمجتمع العالم ٠

It has throughout its history been a missionary and universalistic religion. In seeking to win the whole world it would be acting congruently with its past record. It would make a good case, too, for thinkinking that its idea of a religious cammunity based on revelation and following a divinely — given code of conduct is the only satisfactory basis for a world Society (١).

فلـ « دين القيمة » أصول اعتقادية تقيم الايمان على سواء الحجة فى العقل والوجدان ، وأحكام تشريعية تهيىء السبل المثلى لاجتماع الانسان ، على اختلاف المكان أو الزمان . وتتكامل هذه الاصول وتلك الاحكام لتناغم بين ما يعتمل داخل الانسان فى انفراده وما تقتضيه دواعى اجتماعه ، فتقـر النفوس بلا قلق أو اغتراب ، وتنسق الجهود فى غير ما خلل أو اضطراب ، ويستطيع الانسان أن يمضى فى بناء حضارته وائرائها فى كل مستوياتها ٠

واذا كانت الاصول الاعتقادية للاسلام تستطيع أن تقيم حجتها على كل أساس سوى يستقيم فى عقول اولى الالباب من أصحاب الموضوعية والتجرد ، واذا كانت أحكام الاسـلام التشريعية تهيىء سـبل اجتماع الانسان على أساس العـدل المبين المطلق التى لا يستطيع معهـا دعى أو مشعوذ أن يسعى بظلم أو يسوغه دون أن يخرج من دائـرة المسلمين

(١) أنظر الملحق التاسع فى الملاحق الانجليزية ٠

الذين تتكافأ دمائهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، نقول اذا كانت هذه وكانت تلك ، كان على دعاة الاسـلام أن يستلهموا روحـه ويسترشدوا بهدى قرآنه الذي يقول :

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن »

(١٢٥ ـ النحل)

« لا اكراه في الدين » .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارکم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين » .

(٨ ـ الممتحنة)

هذه في اقتضاب الاسس المكينة التي تقوم عليهـا الدعوة التي تضع عقل الانسان حيث ينبغي له أن يوضع وتناجـزه بالكلمة والمنطق الذي يستقيم دون عنت ، ثم هي بعد ذلك لا تقيد حرية من شـاء في أن يعتقد فيما يشاء ثقة منها في غلبة المنطق السوي اذا أتيح له أن يصل الى افهـام الناس .

فما بالنـا نتقاعس ونفسح المجال لغيرنا ممن ليست لايديولوجياتهم مقومات عقيدتنا كي تعلو أصواتهم بالباطل اللجلج ، وتركنا عقول شبابنا نهبا مشاعا تتناهشه مخالب سياسات الاتصال التي يرسمها أصحـاب هذه الايديولوجيات ، وكيف ندع انتماءاتنا الثقافية أو الفكرية تتوزع هنـا وهنـاك ، والحق بين لا يتطلب تسيده سوى أن يتـاح له الطرح الخالص النقي الذي لا تطوعه مصلحة أو منفعة ، بل الذي يطوع العقول والقلوب جميعـا لما فيـه صـالح الانسـان ، وسبحان الذي « خـلق الانسان . علمه البيـان » .

الملاحق العربية

الملحق الاول

دور اللغـة العالميـة في الاتصالات العـامة وفي التفاهـم الـدولي *

يستخدم العالم قرابة من ٢٩٠٠ لغـة . ويمكننا أن نقـدم الهند كمثال في هذا الصـدد حيث توجـد ٥٠ لغـة تقريبـا . وفي القـارة الافريقية وحدها هناك ما يقرب من الفي لغـة مستخدمة ، ذلك بخلاف العديد من اللهجـات المنبثقة عن هذه اللغـات المتعددة .

ولعلنا ندرك مـدى الخسارة فـي الوقت والمـال التي تنجم عن الافتقار الى لغـة موحدة . ونظرا لان المتحدثين لا يستطيعون أن يتفاهموا مباشرة فان الترجمة الفورية والتحريرية في المؤتمرات المختلفة ، لكل وثيقة الى عدد من اللغـات ، يضاعف التكاليف والطاقة المبذولة ضعفين أو ثلاثة أضعاف . وقد كشفت الوثائق التي نشرتها الامم المتحدة عن جزء من المبالغ الضخمة التي انفقت بسبب تعدد اللغـات المستخدمة في الحياة الدولية .

ولا يخفى أن الاساليب المستخدمة في المنظمات الدولية الحكومي منها وغير الحكومي يقوم على أساس تفرقة لغوية : فهناك خليط من اللغات بعضها يعرف باللغات الرسمية (وهي كثيرة) وبعضها يطلق عليه « لغات

(*) اوتون باتسي ، دور اللغـة العالمية في الاتصالات العامة وفي التفاهم الدولي ، أنظر : ندوة لوبليانا عن وسائل الاتصـال الجماهيري والتفاهم الدولي ، ١٩٨٦ ،وزارة الاعلام ، كتب مترجمة ، ص ٩٠٧ .

عمل » وهناك لغات لا تحمل أيا من هذه الاوصاف • ولعل ذلك يتعارض مع مبدأ تحقيق المساواة بين الامم الكبير منها والصغير •ويجدر بنا ان نشير في هذا الصدد الى اي مدى يشعر الانسان عندما يتحدث الى أجنبي لا يلم تماما بلغته باحساس بالنقص ولعل ذلك هو ما يفسر الحاجة الى لغـة دولية •

ولكن الا تقوم هذه اللغـة بالفعل منذ ثمانين عاما اثريت خلالهـا بصفة متصلة بتراث عالمي فعلي ، وهكذا فان لغـة « الاسبيرانتو » تبرز في أيامنا هذه باعتبارها الوسيلة الوحيدة القـادرة على توفـير الاحترام الكامل لمبادىء التعاون الثقافي •

لقد قررت اللجنة التنفيذية لليونسكو عام ١٩٥٩ أن تخلد عـام ١٩٦٠ سنة من أكبر الشخصيات العالمية من بينها زامنهوف أبو لغـة الاسبيرانتو •

لقد حظيت هذه اللغـة بالتأييد لانها كانت ولا تزال لغـة عالمية في عناصرها وفي استخدامها وفي طابعها الانساني ولعل ذلك يرجع أولا الى اختيار الكلمات ذات الاستعمال الدولي والتي ينتشر استخدامها في عدد كبير من اللغـات •

ان مـن يعرفون الفرنسية والانجليزيـة والاسـبانية والروسـية والالمانيـة سوف يعثرون في يسر وبسهولة على بعض الكلمات المنبثقة من هـذه اللغـات • وسوف يهتـدون بسرعة الى هـذه الحقيقة وهـى أن الاسبيرانتو لغـة أوربية ؛ غير أن الاسبيرانتو ليست ـ رغم ذلك ـ لغة اوروبية وذلك لانها تشتمل أيضا على عدة خصائص تقربها من اللغـات المستخدمة في آسيا وافريقيا •

ان الاسبيرانتو ليست كذلك لغة هندية ـ أوروبية • والمعروف أن جميع اللغات الهندية الاوروبية هى فى الواقع لغات مطاطة من حيث استخداماتها • وبمعنى آخر فان المقاطع التى تستخدم فى تبيان العلاقات النحوية أو فى تكوين مجموعات متجانسة من الكلمات عن طريق المشتقات المختلفة ، ليس لهـا أى وجود مستقل ، ولكنها ستبرز دائما مرتبطـة باصولها • اما فى الاسبيرانتو فان العلاقات المتبادلة القائمة بين الكلمات لا تعبر عن وحـدة الكلمات الثابتـة • ان هذا التكوين اللغـوى ينتشر استخدامه فى اللغـات التى تحتفظ بمشتقاتها الاسـاسية • ولعلنـا لا نندهش اذا عرفنا أن المجريين واليابانيين شعروا بشيء من الارتياح منذ استخدموا هذه الطريقة التى تعتمد على الاصول والكلمات المتناهية فى القصر •

ولقد ظهر عـام ١٩٥٩ أول مؤلف لدراسة الاسبيرانتو باللغـة الصينية ولقد نشرت الصين الشعبية عددا وفـيرا ورائعا من المؤلفات الادبيـة بهـذه اللغـة •

لقد كانت الاسبيرانتو فى الاصل لغة أدبيـة • وكان أول عمل اضطلع به زامينهوف هو ترجمته امهات الكتب القومية فى الآداب لهذه اللغـة • فقد ترجم لشكسبير وموليير وشيللر وجوجول الخ ••• ومن بين الترجمات الحديثة عدد من مؤلفات جان بول سارتر وترجمة كاملة للكوميديا الالهية لدانتى • ومما لا شك فيه أن الاسبيرانتو أكثر ثـراء بالمؤلفات المترجمة منها بالمؤلفات التى كتبت مباشرة بهـذه اللغـة وهكذا بفضل هذه اللغـة يمكن لمؤلفات ولانباء احدى الامم الصغيرة أن تعرف على المستوى العالمى •

بيد أن تعميم استخدام اللغة الدولية في العلاقات الدولية لن يحول بأية حال من الاحوال دون ان تولى أية دولة من الدول وفقا لموقعها الجغرافي واحتياجاتها الفعلية اهتماما خاصا في نظامها التعليمي لتدريس هذه اللغة الاجنبية أو تلك وأن تكفل للاشخاص المولعين بتعلم اللغات أن يدرسوا اللغة التي تروق لهم ·

ولتسهيل مهمة التعرف على الآداب العالمية فقد أعد قاموس للاسبيرانتو أطلق عليه «بلينا فيرنارو» ويضم هذا القاموس ٧٨٦٦ كلمة تؤلف ثروة لغوية تشتمل على ٨٠٠٠٠ كلمة · كذلك أعدت قواميس متخصصة خاصة بالمصطلحات التي تستخدم في المجالات الفنية والعلمية المختلفة · وبلغ عدد هذه القواميس ١٢٠ قاموسا تتناول ٤٨ فرعا من الفروع العلمية أو الفنية ·

ان اللغة العالمية تلعب دورا تتزايد أهميته من حيث كونها لغة معاونة بين الثقافات الشرقية والغربية - فمثلا نجد أن المؤلف الياباني « رعب الجحيم » ومؤلفه أوجيرا ثيوفومي الذي يتحدث بطريقة واقعية عن الهجوم الذي تعرضت له بعض مدن اليابان عام ١٩٤٥ قد ترجم الى الالمانية وقد استعان المترجم الالماني بالنسخة التي صدرت بالاسبيرانتو لهذا المؤلف الياباني ·

حققت اللغة العالمية لدى من فقدوا نعمة البصر انتشارا واسع النطاق وان النسخ التي طبعت بطريقة بريل والتي لا تزال باهظة التكاليف بسبب قلة من يشترونها على المستوى العالمي تثير اهتمام من فقدوا نعمة البصر وهكذا فانه أمكن بفضل استخدام هذه اللغة العالمية افساح الآفاق أمام مكفوفي البصر وهي آفاق كانت محدودة الى حد بعيد في الماضي ·

ولقد ادركت منذ فترة بعض المؤسسات التجارية والصناعية الكبرى (وفي مقدمتها شركة فيليبس وشركة فيات) تلك الآفاق العريضة التي يمكن أن تقدمها لغة الاسبيرانتو بالنسبة للدعاية على المستوى العالمي · ولقد أخذت المطبوعات الدعائية تظهر في كثرة متزايدة بالاسبيرانتو كما أخذت تظهر المنشورات السياحية والنشرات الجوية المكتوبة بهذه اللغة وقد أعلن الاتحاد الدولي للغة الاسبيرانتو بمناسبة عام التعاون الدولي تأييده للجهود التي تبذلها الامم المتحدة وتقديره لقرار اليونسكو الذي (··· اعترف بالنتائج التي أمكن تحقيقها بفضل الاسبيرانتو في مجال التبادل الفكري العالمي ومن أجل تحقيق التقارب بين الشعوب) ولقد قام هذا الاتحاد بجمع التوقيعات لتأييد الاقتراح الخاص بأن تتولى الامم المتحدة حل مشكلة اللغة الدولية المحايدة « الاسبيرانتو » وبأن توصي أيضا الدول الاعضاء فيها بأن تولي اهتماما بتدريسها وتشجيع استخدامها في العلاقات الدولية بين الشعوب ·

وقد حاز هذا الاقتراح الذي ظهر عام ١٩٦٥ موافقة ٤٦٣ عضو اشتركوا جميعهم في التوقيع عليه بالتاييد · ومن بين الموقعين ١٤ دولة ووزيرا (رئيس جمهورية النمسا ، رؤساء وزراء النرويج وايسلندا و ١٣٥٧ عضوا برلمانيا و ٩٩٣ لغويا و ٦٨٧٩ من الحائزين على جائزة نوبل للسلام فضلا عن عدد من أعضاء الاكاديميات العلمية والمعاهد واساتذة الجامعات و ٦٦٢٠ كاتبا وعددا من الفنانين والصحفيين و ٥١٦٧٤ من المعلمين ··· الخ · وقد اشترك في التوقيع كذلك ٣٨١٣ منظمة تضم ٦٤ مليون عضو ·

واذا تحقق ادخال تدريس واستخدام اللغة الدولية في المدارس والعلاقات الدولية واحلالها محل اساليب الترجمة الصعبة للغات المختلفة، فان كل دولة ستتمكن بطريقة أكثر فاعلية من ان تكرس طاقاتها ومواردها المالية لتحقيق التقدم على أرضها خاصة وأن جهودها لن تتبدد فى النضال ضد الصعوبات المنبثقة عن النواحى اللغوية .

الملحق الثاني

الامم المتحدة والرأى العام العالمى (*)

ان الموضوع الثالث المقترح فى هذه الندوة هو الامم المتحدة والتفاهم الدولى ولقد تناول هذا الموضوع فى الواقع مجالين مختلفين : احدهما خاص بالعلاقات العامة بين الدول والثانى خاص بالعلاقات بين الامم المتحدة والرأى العام العالمى .

اما فيما يتعلق بهذا المجال الاخير فان أحد التقارير الدولية التى اقرتها الامم المتحدة خلال دورتها التى عقدت عام ١٩٤٦ تنص على ما يلى :

ان المنظمة لا تستطيع ان تبلغ الاهداف التى أسست من أجلها اذا لم تكن شعوب العالم قد أحيطت علما وبقدر واف بأهدافها وبدورها . وقد ذكر يوثانت السكرتير العام للامم المتحدة فى تقرير حديث بعث به الى الدورة الحادية والعشرين للجمعية العامة « ان قوة المنظمة ومقدرتها على الخدمة وبلوغ الاهداف التى كانت الحافز على انشائها ، تتوقف على مدى فهم شعوب العالم لاهداف ومجالات نشاطها ومدى استفادتهم من انضمامهم الى عضويتها » .

وبعد مضى عشرين عاما على انشاء الامم المتحدة وجدنا أن هذا الاصرار لم يتغير اذ اعتمدت الامم المتحدة اكثر من اية مؤسسة سياسية اخرى على عامل الرأى الذى يحرك هذه المنظمة باكثر مما تحركها ارادة بعض الدول العظمى . انه الرأى العام الممثل دائما فيها بوجود عناصر صحفية تمثل العالم أجمع ... فضلا عن العديد من المصورين والمراسلين

(*) جان دارسى ، الامم المتحدة والرأى العام العالمى ، المرجع السابق .

الاذاعيين • وهكذا فان الآراء القوميــة العامــة تمثل دائمـا في مخيلة مندوبي الحكومات المختلفة وذلك بالنسبة لما يصدرونه من قرارات • كذلك فان الراى العـام الدولى الذى يختلف عن الآراء العامة الوطنية والذى يتحول سنة بعد سنة ، بفضل التطـور الطفـرى الذى حدث فى وسائل الاتصال ، اصبح يعبر فجأة فى صورة جماعية • وانه يتبلور فى صورة صحوة للضمير العالمي برزت مظاهرها خلال الاعوام الماضية فى شكل اعجاب شديد ، وترحيب بما جرى • وعلى عكس اتجاه الراى السائد فقد وجدت المنظمة نفسها عاجزة ، وبدون مساندتها فان الراى العام ما كان ليحقق شيئا ولكنه بفضل مساندتها يحقق الكثير •

ولهذا الغرض انشئت منذ البداية فى السكرتارية العامـة للامـم المتحدة ادارة اعلامية ودور هذه الادارة كما حدده القـرار الصادر فى ١٩٤٦ ، الذى سبق أن تحدثت عنه منذ قليل ، ليس مخاطبة الشعوب مباشرة وتخطى سيادة الدول ولكن امداد الاجهزة الاعلامية سواء ما كان منها مملوكا للدول او القطاع الخاص بالمواد الاعلامية التى تحتاج اليها حتى تستطيع هذه الاجهزة ان تقدم الخدمات الاعلامية للمواطنين •

ولهذا الغرض فان الخدمات الاعلامية التابعة للامم المتحدة تقدم للصحف تقارير عن جميع المناقشات التى تدور فى الامم المتحدة ، كما تنشر سنويا عددا كبيرا من الكتب والمنشورات والمطبوعات • كذلك تذيع هذه الخدمات الاعلامية يوميا على موجات قصيرة المناقشات التى تدور فى الجمعية العامة ومجلس الامن ، وتقدم الى هيئـات الاذاعـة والتليفزيون فى الدول المختلفة البرامج التى يتم تسجيلها والافلام التى تحتاج اليها • كذلك تقيم الامم المتحدة فى خمسين دولة تقريبا مراكز

اعلامية تابعة لهـا غير أن كل هذا الجهد الاعلامي لن يكون له تأثير قوى الا اذا تم دعمه وتنميته عن طريق الشعب القومية التابعة للامم المتحدة ونوادي الامم المتحدة واللجـان القومية لليونسكو وقد اوضحت الدراسة التى اجراها معهد الابحاث والتأهيل التابع للامم المتحدة مدى اهتمام مختلف أجهزة الاعلام في العالم بالانباء المتعلقة بالامم المتحدة. لان هـذه الدراسة لم تتم بعد. غير انه يمكن القول بان النتائج الاولية التى أمكن استخلاصها بواسطة العقول الالكترونية من ٦٠ الف وثيقة اشتركت فى اعدادها ٤٥ دولة وتمثل ما كتب وما قيل أو عرض فى الامم المتحدة خلال فترتى الاستفتاء اللتين استغرقتـا خمسة عشر يومـا ، كانت مفيـدة بالفعـل .

واذا ما عرضنا النتائج التى أمكن الحصـول عليهـا على المستوى الدولى ، فانه يتضح أن كل قطاع يضم الفا من سكان الكرة الارضية يمكن أن يصلهم خلال الفترة المحددة ٦٤ مقالا صحيفيا ، ٦٨٠ مادة اذاعية ، ٥٠ مادة تليفزيونية عن الامم المتحدة .

ان هذه الارقام التى تعتمد على الاحصائيات . التى أجرتها اليونسكو حول عدد الصحف وأجهزة الراديو والتليفزيون التى يملكها الف شخص، تقودنا الى نتائج مفيدة فهى تظهر اولا مدى خطورة الدور الاعلامى الذى يلعبه الراديو فى عالمنا الحديث ، ويلاحظ أن الامم المتحدة تحتفظ بدورها الطبيعى فى هذا المضمار ، ومن المؤكد أن التليفزيون الذى تصل خدماته فى بعض البلاد الى عدد من الاشـخاص يفوق عـدد من تصلهم الصحف اليومية ، سوف يلعب نفس الدور فى المستقبل القريب بفضل أقمـار الاتصال الصناعية .

ولو أننا ، منطلقا من النتائج الاولى التي أظهرتها الدراسة ، أعطينا لاوجه النشاط الاعلامي الخاصة بالامم المتحدة المتضاعف : ١ ، فان الاذاعة ستحصل على هذا الاساس على ٤ر٧ والتليفزيون على ٦ر١٠ بيد أن هذه الاحصائية العالمية التي أجريت عام ١٩٦٦ يجب أن تستكمل باحصائية أخرى تبين عدد القراء بالنسبة لكل صحيفة على حدة ، وعدد مستمعي الاذاعة لكل جهاز وعدد مشاهدي التليفزيون لكل جهاز أيضا ٠

اما فيما يتعلق بالصحافة نفسها ، فان النتائج الاولية التي توصلنا اليها ، كانت مفيدة فان جميع وكالات الانباء العالمية الكبرى وهي « الاسوشيتدبرس وفرانس بوس ورويتر وتاس ويونيتدبرس » لها مندوبون في الامم المتحدة ، كما ان التحقيقات التي تعدها عن أوجه نشاط هذه المؤسسة وافرة للغاية ٠ كذلك فان عددا من كبريات الصحف اليومية مثل « النيويورك تايمز والموند والتايمز اوف انديا » وغيرها تتحرى الدقة الى حد كبير فيما تنشره من انباء منظمة عن المنظمة الدولية غير أن هناك عددا من الصحف المحلية في عدد من دول العالم لا تنشر كافة ما تتلقاه من انباء من وكالات الانباء العالمية عن اوجه نشاط المنظمة الدولية ٠ اما الصحف المحلية التي تنشر على مستوى الاقاليم والمدن فقط ؛ فهي لا تتوانى عن نشر كل ما يصل اليها عن طريق وكالات الانباء العالمية والوطنية او مراكز الاعلام التابعة للامم المتحدة عن أوجه نشاط المنظمة الدولية ٠

غير ان معظم الظواهر التي تأكدت خلال الستينات ٠ هي بحق ظاهرة تفوق الاعلام الالكتروني على المواد الاعلامية المطبوعة ٠ أي أن الانتصار المستمر لماركوني وزفوريكين وبوبوف وبرافلي على جوتانبرج في

هذا الصراع التاريخي الذي يسمح لبني البشر أن يتصل بعضهم ببعض ، وساعود مرة أخرى الى هذا الموضوع فورا . ولكنني اود قبل أن اختتم هذا الجزء الاول ، الخاص بالامم المتحدة في علاقاتها بالرأي العام الدولي أن اشير الى أن السكرتير العام للامم المتحدة قدم الى مؤتمر الفضاء الذي انهى أعماله منذ بضعة أيام في فينا ، تقريرا حول استخدام الامم المتحدة للاقمار الصناعية في أغراض الاتصالات ·

ويبدو انه من الضروري بالنسبة للامم المتحدة اعتبارا من الان أن تستخدم الاساليب العالميـة والاقليمية أو الوطنيـة في الاتصالات أي الاقمار الصناعية ـ سواء بالنسبة لاتصالاتها الداخلية من المقـر الرئيسي وبعثاتها المنتشرة في جميع انحاء العالم ، أو بالنسبة لاحتياجاتها الاذاعية والتليفزيونية - أما فيما يتعلق بهذه الاحتياجات الاخيرة ، فان الموجات القصيرة التي تغطي العالم موزعة الان بطريقة غير عادلة بين دول العالم · وهناك بعض الدول استعملت حقها في هذا المجال بالمقارنة بمثيلاتها · أما بالنسبة للتليفزيون فان احتمالات ارسال البرامج المصورة مباشرة لا تزال الى الان قاصرة على القارة الامريكية . في حين ان استخدام الاقمار الصناعية سيفسح المجال أمام جميع الدول في المستقبل القريب ، وعلى قدم المساواة لان تستقبل اذا أرادت برامج التليفزيون الخاصة بالامم المتحدة وأن تتابع مباشرة مناقشات مجلس الامن والجمعية العامة للامم المتحـدة ·

وهكذا اجدني انتقل الى الجزء الثاني من هذا البحث ، وهو خاص بكيفية تحقيق تفاهم عالمي افضل ، وانتشار اوسع للمـواد الاعلامية ، وقيام علاقات بين مختلف دول العالم ·

والواقع أن الامم المتحدة منذ عام ١٩٤٨ حرصت على الاهتمام بهذه المشكلة • فقد دعت لعقد مؤتمر في جنيف لبحث ـ حرية الاعلام ـ كذلك ضمنت الاعلان الدولي لحقوق الانسان (١) المادة ١٩ التى تنص على حق الافراد الذى لا ينازع فى جمع وتلقى ونشر الانباء والافكار باية وسيلة من وسائل التعبير دون تقيد بالحدود القائمة •

وقد تضافرت الجهود منذ ذلك الحين بين اليونسكو والاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية من أجل تطوير الوسائل الاعلامية فى العالم وذلك بتقديم المعونة الفنية للدول المتخلفة وبتدريب العاملين ، ومن أجل نشر المواد الثقافية والاعلامية بطريقة أفضل • غير أن التقدم الذى أحرزته الامم المتحدة فى المجال التشريعى لا يزال بطيئا كما أن الاعلان الدولى لحقوق الانسان وكذلك الاتفاق الخاص بحرية الاعلام ، هما فى الواقع من المواد الثابتة فى جدول أعمال الجمعية العامة للامم المتحدة •

وازاء هذا الموضوع ، فمن حقنا أن نتساءل عما اذا كان من الضرورى طرح المشكلة فى اطار جديد ، وعما اذا كان من الافضل أن يعاد بحثها من زاوية أخرى : أى التركيز على المستقبل دون الماضى •

اننا لا نكاد نخرج من النصف الثانى من هذا القرن من العصر القديم حيث كانت الاستفادة من وسائل الاتصالات محدودة أو قاصرة على الاحتكارات حتى نجد أنفسنا فى عهد اقتصاديات مزدهرة يمكن فى ظلها أن تصبح وسائل الاتصالات المتباينة فى متناول الجميع • غير أن افكارنا ونزعاتنا النفسية لم تتأقلم بعد مع الوضع الجديد • أننا نحاول

---

(١) أنظر الملحق الثالث فى الملاحق العربية •

أن نسن القوانين وأن نوفق بين الأمور التي يتعذر التوفيق بينها • فمن ناحية نجد السيادة التي تمارسها الدولة داخل حدودها ، ومن ناحية أخرى نجد أن الاتصالات الحديثة تتجاهل هذه الحدود وفي الوقت الذي تحاول فيه الاحتكارات الناجمة عن عنصر الندرة أن تبقى ، نجد أن الرخاء الاقتصادي يسعى الى تحرير الفرد من هذه الاحتكارات مهما كانت رغبتها في التشبث بالبقاء •

ومنذ البداية حاولت الاديان بحكم قدرتها ، كما حاولت الحكومات أيضا أن تتصدى لهذا الموقف وأن تنظم وسائل الاتصالات • وفوق الابراج العالية في أوروبا حيث تقدم اليوم أجهزة الارسال التليفزيوني ، حيث اجتاحت الغزوات الرومانية هذه الاصقاع ، كثيرا ما تجد حطام معابد ميركير اله المواصلات • ان هذا الحطام هو في الواقع بقايا نظام عتيق للاتصالات يعتمد على البصر ، وكان يستخدم في ربط أجزاء الامبراطورية بالعاصمة روما • وعند انحدار الامبراطورية الرومانية أصبح البابا بونتيفكس ماكسيموس هو الذي يتولى مد جسور الاتصالات، وهكذا أصبح للاوامر الكنسية في أوروبا بالعصور الوسطي ، الامتياز الاول فيما يتعلق بنشر الافكار عن طريق المطبوعات ، وبعد ذلك تولى الملوك في عدد كبير من البلاد الاوروبية ، بغرض تثبيت حكمهم ، تنظيم نقل البريد عن طريق الخيول • ومما لا شك فيه أن نظمنا البريدية الحديثة هي امتداد لهذا النظام الملكي القديم •

ومن الملاحظ أن الهياكل السياسية كانت تنشأ دائما حول مراكز الاتصالات ومما لا شك فيه أن السيطرة على هذه المراكز كان يسهم في تعضيد السلطة الحاكمة • فقد كانت القبيلة البدائية تتمركز في طول

الطريق بين الغابات ثم نشأت الامبراطورية على الطريق الرومانى ، كما دعمت الامم فى القارة الاوروبية وجودها بفضل هذه الطرق الملكية التى اقيمت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة الامريكية تستخدم السكك الحديدية والتلغراف لتغطية اراضيها التى تشبه القارة من حيث اتساعها ، وفى هذا الوقت كانت الدول الاستعمارية تتصارع فيما بينها من اجل السيطرة على البحار ، غير أنه كانت توجد اذ ذاك شبكة كاملة للمواصلات التلغرافية والتليفونية فى حين أن الافتقار الى هذه الوسائل يحول دون أى تقدم فى الدول الوليدة .

ولما كان الانسان يميل عادة الى حل المشكلات الوليدة التى تصادفه باعتبارها امتدادا طبيعيا لمشكلة قديمة ، فان أسلوب التنظيم على المستوى القومى فى عصور البؤس امتد بطبيعة الحال الى جميع أساليب المواصلات وعندما ظهر التلغراف . اعتبره الناس مجرد امتداد للخدمة البريدية والى أن تم فى عام ١٨٦٥ اقامة الاتحاد الدولى للتلغراف . وهو الجد القديم لأعرق الوكالات المتخصصة التابعة للامم المتحدة ــ وهو الاتحاد الدولى للمواصلات السلكية واللاسلكية ــ كانت الرسائل التلغرافية تقف عند الحدود لا تتجاوزها . وعندئذ كان موظف التلغراف يأخذ الرسالة ويذهب بها الى أقرب مكتب جمركى حيث كان يعاد ابراقها الى الجهة المرسلة اليها .

وعلى نفس النحو اعتبر التليفون امتدادا للتلغراف وذلك رغم التطور الضخم الذى أحدثه ، خاصة وأنه مكن الانسان ولاول مرة من ان يتصل مباشرة ولمسافات بعيدة بمن يريد مستخدما صوته وأذنه ، ولعلنا

نذكر في هذا الصدد قصة الوزير الذي كان يشكو منذ ٩٠ عاما تقريبا من انه يعتقد أن مستقبل التليفون في بلده ليس مزدهرا بسبب استخدام عدد كبير من رجال التلغراف في توصيل البرقيات التلغرافية الى المنازل • وعندما تم ابتكار المذياع أطلق عليه الناس في بادىء الامر اسم تليفون بدون أسلاك ولكنهم لم يلاحظوا هاتين الحقيقتين الجديدتين : اذ بدلا من أن يصل الى شخص واحد فانه يصل في نفس الوقت الى جمهرة من الاشخاص • هذه حقيقة • والثانية أنه لا يعرف الحواجز القائمة بين الحدود • ولو أننا في العشرينات أخذنا ، منطلقا من هذا التصور العالمي لدور المذياع ، ولم نتوقف عند حد اعتباره امتدادا للتليفون ، أي جهازا اقليميا • لعد الهياكل والانماط التي تتفق وهذا الابتكار الجديد ، لكان من المحتمل ـ الى حد كبير ـ أن لا نجد أنفسنا ازاء مجموعة من المشكلات المتعلقة باعتبارات السيادة القومية ، التي يتعذر التغلب عليها •

ونحن نأمل في أن نتطلع الى الاقمار الصناعية التي تبث موجاتها الاذاعية والتليفزيونية من ارتفاع ٣٦ الف كيلو متر بحيث يمكن للافراد أن يلتقطوها مباشرة بأجهزتهم المنزلية باعتبارها اساليب حديثة • نتطلب اقامة مؤسسات واصدار تشريعات جديدة تماما بدلا من أن ننظر اليهما باعتبارهما امتدادا للتلغراف والتليفون • اللذين يعدان بدورهما امتدادا لمحطات الخدمة البريدية التي أنشأها الملوك في أوربا القرون الوسطى •

ان القرارات التي اتخذتها الامم المتحدة بالنسبة لاستخدام الفضاء الخارجي وكذلك معاهدة ١٩٦٧ الخاصة بالفضاء تقدمان المبادىء الاساسية لما ستكون عليه الصورة في هذا الصدد في المستقبل• وأعتقد أنه من المفيد أن نوضح أن قرارات الجمعية العامة للامم المتحدة الخاصة

بالفضاء قد تضمنت منذ انشاء لجنة الفضاء عام ١٩٥٨ فكرتين متعارضتين ويلاحظ أن هاتين الفكرتين المتعارضتين تسيران جنبا الى جنب ، غير أن التوفيق بينهما قد يكون ممكنا في يوم من الايام فمن ناحية أخرى تؤكد نفس هذه القرارات بقوة أن استخدام الفضاء يجب أن يخدم مصالح الانسانية جمعاء ومن المؤكد أن المفهومين غير متعارضين ، غير أننا نجد أن الدول النامية تتمسك باصرار بالمفهوم الثاني • وقد يشكل هذا المفهوم الاخير الاساس الذى يقوم عليه في المستقبل القانون الخاص باستخدام الفضاء في الاتصالات ، وخاصة اذا تذكرنا أن السيادة الوطنية على الاجواء لا تشمل الفضاء الخارجي ،كما أن الاجرام السماوية ليست ملكا لدولة من الدول ، ألا يكون من الممكن أن نبحث مثلا كيف نستطيع توجيه أحد المجالات التي تشترك الانسانية جمعاء في ملكيتها نحو خدمة وسائل الاتصال المقبلة ؟ علما بأن هذه الوسائل لا تعرف العوائق التي تفرضها الحدود •

ومما لا شك فيه أننا بصدد طفرة أو ثورة في عالم الاتصالات خلال الاعوام القادمة في ذلك العصر الذى نحن مقدمون عليه ، والذى قد يبرر طرح المشكلات المتعلقة بحرية الاعلام في اطار جديد •

ويمكن القول بأن مؤتمر الامم المتحدة لاستخدام الفضاء الخارجي في الاغراض السلمية الذى أنهى أعماله منذ قليل في فينا ، يبشر بآفاق واسعة في هذا المجال - أن ما نستطيع أن نتوقعه غدا ، وما يبدو الان ممكن التنفيذ من الناحية الفنية ، قد يؤدى في نهاية المطاف الى وضع امكانيات عديدة في أيدى الافراد تمكنهم هذه المرة من الاتصال بمن يريدون على مستوى الكرة الارضية •

ان الآفاق العريضة التي تقدمها الالكترونيات في مجالات الاتصالات واختزان المعلومات عن طريق أقمار الاتصالات وتسجيل الصور والاضواء والعقول الالكترونية قد تمكن كل شخص من أن يجري كافة الاتصالات التي يريدها بكافة وسائل التعبير وبكل ما يختزنه العقل البشري من ذكريات وافكار ٠

وخلال بضعة اعوام ، سيكون في وسع أقمار الاتصالات ذات القدرة الكبيرة ، أن ترسل عدة برامج اذاعية وتليفزيونية في الوقت نفسه ، فضلا عن الآلاف من الاتصالات التليفونية بكفاية تامة بحيث تغطي سطح الكرة الارضية كلها وهكذا فان معظم المكتبات الكبرى في العالم ستتمكن من أن تسجل وثائقها على أشرطة كما أنه سيتم الربط بين العقول الالكترونية التي تملكها هذه المكتبات وبين بعضها ، كما يمكن اتباع نفس الاسلوب أيضا بالنسبة للمعامل الكبرى والجامعات وستكون هذه العقول الالكترونية من الكفاية بحيث يمكن للافراد الاستعانة بها ٠ كذلك ستكون الصحف بدورها قد انتقلت الى عصر الالكترونيات ٠ ولن تتم طباعتها الا بأعداد قليلة لانه سيكون في الامكان اذ ذاك للشخص أن يعرف عن طريق التليفزيون ما تتضمنه الصحيفة ٠

كذلك سيكون فيالامكان تسجيل وتخزين البرامج الاذاعية والتليفزيونية وبالاحرى مواد التعبير السمعية والبصرية والصور والانغام ، كذلك سيكون من الميسور البحث عن عدد التسجيلات بفضل العقول الالكترونية المقامة في مكتبات سينمائية ضخمة للشرائط المسجلة يستطيع الانسان وهو جالس في منزله أن يختار منها ما يريد دون أن تفرض عليه هذه المادة أو تلك ، مما يختاره المسئولون في الاذاعة أو التليفزيون ، كما سيتمكن الافراد من اختيار الصحف والانغام التي

يديرونها بنفس الاسلوب الذى يختارون به الكتب والمؤلفات التى يرغبون فى الاطلاع عليها . وذلك لان وفرة المطبوع منها لا يجعل اختيار الافراد محصورا فى دائرة محددة كما كان متبعا من قبل منذ بضع عشرات من السنين عندما كان جوتنبرج وبعض الذين خلفوه فى هذه الصناعة يقررون ما يطبعون وما لا يطبعون .

ومن المعتقد هنا وهناك أن كل ذلك قد يؤدى فى نهاية المطاف الى تحويل قاعات الجلوس فى المنازل الى ما يشبه المراكز السمعية ـ البصرية للاتصالات التى ترتبط بالعالم الخارجى « بكابل » ذى طاقة عالية . هذا فى الوقت الذى لم يكن فيه اجدادنا يرتبطون بالعالم الخارجى الا بصندوق البريد الذى كان يوضع عند مداخل منازلهم ويتلقون عن طريقه صحفهم والبرقيات ، والخطابات التى ترسل اليهم . ثم أضيف بعد ذلك الى هذا الصندوق خط التليفون ومواتى المذياع او التليفزيون فى هذه الفترات الاخيرة ومما لا شك أن السرعة التى تعاقب بها ظهور هذه الادوات الحديثة يثير الدهشة . لقد تطورت وسائل الاتصال بطريقة طفرية وأصبح الفرد يملك امكانيات متزايدة فى هذا المجال جعلته ينتقل من موقف سلبى الى موقف ايجابى يملك معه القدرة على الاختيار الحر .

ومما لا شك فيه أن ما سبق أن أوضحناه بصورة مختصرة لا يدخل كما سيتصور بعضهم فى نطاق الاحلام ، ولكنه على العكس من ذلك أمر ممكن من الناحية الفنية ويخشى على العكس من ذلك أن نكون سائرين فى عالم الاوهام ، لو أنه لم تكن لنا القدرة على التصوير او أننا قصرنا فى اصدار التشطيبات اللازمة من أجل اعداد التنظيمات والمؤسسات الحديثة بما يحقق الاستفادة من هذه الامكانيات الجديدة .

واعتقد ان الامم المتحدة ستكون قادرة على مواجهة هذا التصور الجديد للمشكلة والتى ينبغى على الرأى العـام العـالمى من أجلها أن يقف خلف منظمته الدولية . وانى لأتمنى أن نصبح فى وضع . خـلال الاجتماعات المقبلة يمكننـا من أن نعبر عن امتناننـا للخطوات التى يتم انجازها نحو الامام وذلك اذا مـا تمكنا من أن نتغلب على احساسـنا الحالى بالتشاؤم وهو احساس يرجع الى حد كبير الى النظم التى عفى عليها الزمن والتى نحاول التشبث بها والحفاظ عليها .

الملحق الثالث

الاعلان العالمي

لحقوق الانسان (*)

فى العاشر من ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٨ ، أقرت الجمعية العامة للامم المتحدة الاعلان العالمي لحقوق الانسان وأعلنته ، وبعد هذا الحدث التاريخي دعت الجمعية العامة الدول الاعضاء الى ترويج نص الاعلان ، والى العمل على نشره وتوزيعه وقراءته ومناقشته ، وخصوصا فى المدارس والمعاهد التعليمية بدون اى تمييز بشان الوضع السياسي للدول أو الاقاليم ٠

الديباجة

لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة فى جميع اعضاء الاسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام فى العالم ٠

ولما كان تناسي حقوق الانسان وازدراؤها قد أفضيا الى أعمال همجية آذت الضمير الانساني ، وكان غاية ما يرنو اليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة ٠

ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الانسان ، لكيلا يضطر المرء آخر الامر الى التمرد على الاستبداد والظلم ٠

(*) مكتب الاعلام ، الامم المتحدة ، القاهرة ٠

ولما كانت شعوب الامم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد ايمانها بحقوق الانسان الاساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قدما وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح ٠

ولما كانت الدول الاعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الامم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الانسان والحريات الاساسية واحترامها ٠

ولما كان للادراك العام لهذه الحقوق والحريات الاهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد ٠

فان الجمعية العامة تنادي

بهذا الاعلان العالمي لحقوق الانسان

على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والامم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع ، واضعين على الدوام هذا الاعلان نصب أعينهم ، الى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ اجراءات مطردة ، قومية وعالمية ، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الاعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها ٠

المادة الاولى : يولد جميع الناس أحرارا متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلا وضميرا ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الاخاء ٠

المادة الثانية : لكل انسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الاعلان ، دون اي تمييز ، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين او الراي السياسي او أي رأي

آخر ، أو الاصل الوطنى أو الاجتماعى أو الثروة أو الميلاد أو أى وضع آخر ، دون أى تفرقة بين الرجال النساء .

وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أى تمييز أساسه الوضع السياسى أو القانونى او الدولى للبلد أو البقعة التى ينتمى اليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقبلا او تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتى او كانت سيادته خاضعة لاى قيد من القيود .

المادة الثالثة : لكل فرد الحق فى الحياة والحرية وسلامة شخصه .

المادة الرابعة : لا يجوز استرقاق أو استبعاد اى شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما .

المادة الخامسة : لا يعرض أى انسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة .

المادة السادسة : لكل انسان اينما وجد الحق فى أن يعترف بشخصيته القانونية .

المادة السابعة : كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق فى التمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة ، كما أن لهم جميعا الحق فى حماية متساوية ضد اى تمييز يخل بهذا الاعلان وضد اى تحريض على تمييز كهذا .

المادة الثامنة : لكل شخص الحق فى أن يلجأ الى المحاكم الوطنية لانصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الاساسية التى يمنحها له القانون .

المادة التاسعة : لا يجوز القبض على أى انسان او حجزه او نفيه تعسفا .

المادة العاشرة : لكل انسان الحق ، على قدم المساواة التامة مع الآخرين ، فى أن تنظر قضيته امام محكمة مستقلة نزيهة نظرا عادلا علنيا للفصل فى حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه اليه .

المادة الحادية عشر : (١) كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئا الى أن تثبت ادانته قانونا بمحاكمة علنية تؤمن لـه فيهـا الضمانات الضرورية للدفاع عنـه .

(٢) لا يدان أى شخص من جزاء أداء عمل او الامتناع عن أداء عمل الا اذا كان ذلك يعتبر جرما وفقـا للقانون الوطنى أو الدولى وقت الارتكاب ، كذلك لا توقع عليه عقوبـة أشـد من تلك التى كان يجـوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة .

المادة الثانية عشر : لا يعرض أحد لتدخل تعسفى فى حياته الخاصة او أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته ، ولكل شخص الحق فى حماية القانون من مثل هذا التدخل او تلك الحملات .

المادة الثالثة عشر : (١) لكل فرد الحق فى حرية التنقل واختيار محل اقامته داخل حدود كل دولة .

(٢) يحق لكل فرد ان يغادر أية بلاد بما فى ذلك بلده كما يحق له العودة اليه .

المادة الرابعة عشر : (١) لكل فرد الحق فى أن يلجأ الى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء اليها هربا من الاضطهاد .

(٢) لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة فى جرائم غير سياسية او لأعمال تناقض أغراض الامم المتحدة ومبادئها .

المادة الخامسة عشر : (١) لكل فرد حق التمتع بجنسية ما ٠

(٢) لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفا أو انكار حقه فى تغييرها ٠

المادة السادسة عشر : (١) للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أى قيد بسبب الجنس أو الدين ، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله ٠

(٢) لا يبرم عقد الزواج الا برضى الطرفين الراغبين فى الزواج رضى كاملا لا اكراه فيه ٠

(٣) الاسرة هى الوحدة الطبيعية الاساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة ٠

المادة السابعة عشر : (١) لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره ٠

(٢) لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفا ٠

المادة الثامنة عشر : لكل شخص الحق فى حرية التفكير والضمير والدين ، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته ، وحرية الاعراب عنهما بالتعليم والممارسة واقامة الشعائر ، ومراعاتها ، سواء أكان ذلك سرا أم مع الجماعة ٠

المادة التاسعة عشر : لكل شخص الحق فى حرية الرأى والتعبير ، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أى تدخل ، واستقاء الانباء والافكار وتلقيها واذاعتها بأية وسيلة كانت دن تقيد بالحدود الجغرافية ٠

المادة العشرون : (١) لكل شخص الحق في حرية الاشتراك فى الجمعيات والجماعات السلمية ٠

(٢) لا يجوز ارغام احد على الانضمام الى جمعية ما ٠

المادة الحادية والعشرون : (١) لكل فرد الحق في الاشتراك فى ادارة الشئون العامة لبلاده اما مباشرة واما بواسطة ممثلين يختارون اختيارا حرا ٠

(٢) لكل شخص نفس الحق الذى لغيره فى تقلد الوظائف العامة فـى البـلاد ٠

(٣) أن ارادة الشعب هى مصدر سلطة الحكومة ، ويعبر عن هذه الارادة بانتخابات نزيهة دورية تجرى على أساس الاقتراع السرى وعلى قـدم المساواة بين الجميع أو حسب أى اجـراء مماثل يضمن حرية التصويت ٠

المادة الثانية والعشرون : (١) لكل شخص بصفتـه عضوا فـى المجتمع الحق فى الضمانة الاجتماعية وفي ان تحقق بوساطة المجهود القومي والتعاون الدولى ، وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها ، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى لا غنى عنها لكرامته وللنمو الحر لشخصيته ٠

المادة الثالثة والعشرون : (١) لكل شخص الحق فى العمل ، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية كما ان له حق الحماية من البطالة ٠

(٢) لكل فرد دون أى تمييز الحق فى أجر متساو للعمل ٠

(٣) لكل فرد يقوم بعمل الحق فى أجر عادل مرض يكفل لـه

ولاسرته عيشة لائقة بكرامة الانسان تضاف اليه ، عند اللزوم ، وسائل اخرى للحماية الاجتماعية ٠

(٤) لكل شخص الحق في أن ينشيء وينضم الى نقابات حماية لمصلحته ٠

المادة الرابعة والعشرون : لكل شخص الحق في الراحة ، وفي اوقات الفراغ ، ولا سيما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر ٠

المادة الخامسة والعشرون : (١) لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولاسرته ، ويتضمن ذلك التغذية والملبس والمسكن والعناية الطبية كذلك الخدمات الاجتماعية اللازمة ، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمرض والعجز والترمل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظروف خارجة عن ارادته ٠

(٢) للامومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصتين ، وينعم كل الاطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهم ناتجة عن رباط شرعي أم بطريقة غير شرعية ٠

المادة السادسة والعشرون : (١) لكل شخص الحق في التعلم ، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الاولى والاساسية على الاقل بالمجان ، وأن يكون التعليم الاولي الزاميا . وينبغي أن يعمم التعليم الفني المهني ، وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة ٠

(٢) يجب أن تهدف التربية الى انماء شخصية الانسان انماءا كاملا ، والى تعزيز احترام الانسان والحريات الاساسية وتنمية التفاهم

والتسامح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية ، وإلى زيادة مجهود الامم المتحدة لحفظ السلام ·

(٣) للآباء الحق الاول في اختيار نوع تربية اولادهم ·

المادة السابعة والعشرون : (١) لكل فرد الحق في أن يشترك اشتراكا حرا في حياة المجتمع الثقافي وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العلمي والاستفادة من نتائجه ·

(٢) لكل فرد الحق في حماية المصالح الادبية والمادية المترتبة على انتاجه العلمي أو الادبي أو الفني ·

المادة الثامنة والعشرون : لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي تتحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الاعلان تحققا تاما ·

المادة التاسعة والعشرون : (١) على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نموا حرا كاملا ·

(٢) يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط ، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والاخلاق في مجتمع ديمقراطي ·

(٣) لا يصح بحال من الاحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع اغراض الامم المتحدة ومبادئها ·

المادة الثلاثون : ليس في هذا الاعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد اى حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف الى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه ·

الملاحـــق الانجليزية

versalitic religion In seeking to whin the whole world it would make a good case, too for thinking its idea of a religious community based on revelation and following a divinely—given code of conduct is the only satisfactory basis for a world society. In Islam's conception of itself and of its function in the world these are elements of truth which could be developed.

The other side of the picture, however, is very dark. The obstacles seem almost insuperable.

Can all this and more be done? It is most unlikely Yet neither the sociologist nor the religious man (of anyreligion) will say that it is impossible

---

W Montgomery Watt, Islam and the Integration of Society, London, Routledge and Kegan Paul, 1970, pp. 282-3.

Appendix I X

The Future of Islam

...The fundamental point is spirtiual renewal or the recovery of dynamic Is this possible for Islam ? After centuries of renescence and sclerosis can it be revived and rejuvenated ? Everything suggests that we are not in a position to say this impossible. Man certainly has not enough knowledge at the moment to make such pronouncements, and it is doubtful whether he ever will have. The movement of life in the hearts of the members of a community would seem to be essentially hidden, in the sense that it is in principle beyond the reach of human science. If this is so, no amount of effort will enable us to predict the future of Islam. What our studies show us, however, is something of the presuppositions of a renewal of Islam and of the circumstances in which it would take place in particular the difficulties to be overcome.

So long as Christianity has not solved the problems which led to its recession and disintegration in the Middle East, there is a place for Islam and a funcion for it to perform... The deeper reason, however, is that in this world, which in a material sense has become one world, men are not likely to be attracted to any religion except one which claims to have a message for the whole world

If we look at Islam. then, from this point of view, we see that it is not unfitted to be a religion for the whole world. It has throughout its histor been a missionary and uni-

faith in a truly transcendent God -- not the false image of cultural Christianity By the 1970s the term Death of God had fallen into disuse, but its essential drives and concerns continued in small circles of self-styled "radical theologians"

Encyclopaedia Britannica, op cit., Vol. III.

Appendix V I I I

Death of God movement, radical Christian (mainly Protestant) theological school that arose in the U.S. during the 1960s, evoking extraordinary publicity, response, and controversy. Although thinkers of many varied viewpoints have ben grouped within this school, basic to practically all of them is the conviction that belief in God is impossible or meaningless in the modern world,. and that man's fulfillment is to be found in the secular life of this world.

Thomas J. J. Altizer, probably the most radical and certainly the best known of them, asserted that the traditional Judeo — Christian God had actually died in the Cricifixion of Jesus of Nazareth and henceforth entered into the processes of the secular, historical world. Paul Van Buren contended that talk about God is linguistic nonsense, because it purports to deal with a transcendent reality, about which meaningful talk is no longer possible. William Hamilton held that the absence or death of God made it possible for men to assume full responsibility and activity in the work and love of this world, freed from dependence on a providential Father in Heaven; he also centered on Jesus as the model person and still Lord for all Christians, Gabriel Vahanian, actually a Neo-Calvinist rather than a radical theologian, held that Death of was both a religious and cultural event, occurring because the (essentially pagan) mythological terms in which the Christian fath had traditionally been expressed became obsolete in a modern scientific society. He looked forward to the reappearance of

Appendix VII

"Almost all the questions of most intrest to speculative minds are such as science cannot answer, and the confident answers of theologians no longer seem so convincing as they did in former centuries..."

...Science tells us what we can know, but what we can know is little, and if we forget how much we cannot know we become insensitive to many things of very great importance Theology, on the other hand, induces a dogmatic belief that we have knowledge where in fact we have ignorance, and by doing sogenerates a kind of impertinent insolence towards the universe. Uncertainty, in the presence of vivid hopes and fears, is painful, but must be endured if we wish to live without the support of comforting fairy tales. It is not good either to forget the questions that philosophyasks, or to persuade ouresselves that we have found indubitable answers to them. To teach how to live without certainty, and yet without being paralysed by hesitation, is perhaps the chief thing that philosophy, in our age, can still do for those who study it.

B. Russell, The History of western Philosopy London, George Allen, and unwin, 1946, The Introduction.

Appendix V I (a)

...the more or less deliberately planned and systematic use of symbols, chiefly through suggestion and related psychological techniques, with a view to altering and controlling opinions, ideas, and values, and ultimately to changing overt actions along predetermined lines. Propaganda may be open and its purpose avowed, or it may conceal its intention. It always has a setting within a social-cultural framework, without which neither its psychological nor its cultural features can be understood.

Kimball Young.

Appendix V I (b)

. a systematic attempt by an interested individual (or individuals) to control the attitudes of groups of individuals through the use of suggestion, and consequently, to control their actions

---

Leonard W. Doob

Appendix V I (c)

the dissemination of a viewpoint considered by a group to be 'bad', 'unjust', 'ugly', or 'unnecessary' is propaganda, in terms of that group's standards.

L. W. Doob

Quoted from : J.A.C. Brown, Techniques of Persuasion, Harmondswourth. Penguin Books. 1969, PP. 19 —20.

Appendix V

"Show me in the clearest and most unambiguous manner that a certain mode of proceeding is most reasonable in itself, or most conductive to my interest, and I shall infallibly pursue that mode, so long as the views you suggested to me continue present to my mind... Render the plain dictates of justice level to every capacity... and the whole species will become reasonable and virtuous. It will then be sufficient for juries to recommend a certain mode of adjusting controversies. .. It will then be sufficient for them to invite offenders to forsake their errors. ... Where the empire of reason was so universally acknowledged the offender would either readily yield to the expostulalions of authority, or, if he resisted though suffering no personal molestation he would feet so weary under the unequivocal disapprobation and the observant eye of public judgement as willingly to remove to a society more congenial to his errors.

William Godwin, Political Justice.

Appendix I V (a)

"I, for my part, understand by it an opinion that gradually takes foot among a whole people, especially among those who have the influence when they work together as a group. In this way it wins the upper hand to such an extent that one meets it everywhere. It is an opinion that without being noticed takes possession of most heads, and even in situations where it does not dare to express itself out loud can be recognized by a louder and louder muffled murmur. It then requirse only some small opening that will allow it air, and it will break out with force. Then it can change all nations in a brief time and give whole parts of the world a new configuration".

The New Encyelopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

Appendix I V (b)

"Public opinion as intrpreted... by those French writers who are clearest on the subject is the agreement of many or of the majority of the citizens of a state with respect to judgments which every single individual has arrived at as a result of his own reflection or of his practical knowledge of a given matter".

The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

The passive and unresisting obedience which bows under the yoke of authority, or even of oppression, must have appeared in the eyes of an absolute monarch the most conspicuous and useful of the evangelic virtues. The primitive Christians derived the institution of civil government, not from the consent of the people, but from the decrees of Heaven. The reigning emperor, though he had usurped the sceptre by treason and murder, immediately assumed the sacred characer of vicegerent of the Deity, To the Deity alone he was occountable for the abuse of his power; and his subjects were indissolubly bound by their oath of fidelity to a tyrant who had violated every law of nature and society. The humble Christians were sent into the world as sheep among wolves; and since they were not permitted to employ force even in the defence of their religion, they should be still more criminal if they were tempted to shed the blood of their fellow-creatures in disputing the vain privileges or the sordid possessions of this transitory life.

Edward Gibbon, Op. Cit., pp. 286 — 8.

bit. The legitlators of antiquity had summoned to their aid the powers of educations and of opinion. But every principle which had once maintained the vigour and purity of Rome and Sparta was long since extinguished in a declining and despotic empire. Philosophy still exercised her temperate sway over the human mind, but the cause of virtue derived very feeble support from the influence of the Pagan superstition. Under these discouraging circumstances a prudent magistrate might observe with pleasure the progress of a religion which diffused among the people a pure, benevolent, and universal system of ethics, adapted to every duty and every condition of life, recommended as the well and reason of the supreme Deity, and enforced by the sanction of eternal rewards or punishments. The experience of Greek and Roman history could not inform the world how far the system of national manners might be reformed and improved by the precepts of a divine relation; and Constantine might listen with some confidence to the flattering, and indeed reasonable, assurances of Lactantius. The eloquent apologist seemed firmly to expect, and almost ventured to promise, THAT the establishment of Christianity would restore the innocence and felicity of the primitive age: THAT the worship of the true God would extinguish war and dissention among those who mutually considered themselves as the childern of a common parent: THAT every impure desire, every angry or selfish passion, would be restrained by the knowledge of the Gospel: and THAT the magistrates might sheath the sword of justice among a people who would be universally actuated by the sentiments of truth and piety, of equity and moderation, of harmony and universal love.

favour; and they trust that the same Providence will for ever continue to protect the properity of the prince and people. From these vague and indefinite expressions of piety three suppositions may be deduced, of different, but not of an incompatible mature. The mind of Constantine might fluctuate between the Pagan and the Chistian religions. Acoording to the loose and complying notions of Polytheism, he might acknowledge the God of the Chistians as one of the many deities who compoee the hierarachy of Heaven. Or perhaps he might embace the philosophic and pleasing idea that, notwithstanding the variety of name, of rites, and of opinions, all the ects and all the nations of mankind are united in the worship of the common Father and Creator of the universe.

But the counsels of princes are more frequently influenced by views of temporal advantage than by considerations of abstract and speculative truth. The partial and increasing favour of Constantine may naturally be prepared to the esteem which be entertained for the moral character of the Christians, and to a persuasion that the propagation of the Gospel would inculcate the practice of private and public virtues. Whatever latitude an absolute monarch may assume in his own conduct, whatever indulgence he may claim for his own passions, it is undoubtedly his interest that all his snbjects should respect the natural and civil obligations of society. But the operation of the wisest l ws is imperfect and precarious.

They seldom inspire virtue, they cannot always restrain vice Their power is insufficient to prohibit all that the condemn, nor can they always punish the actions which they prohi-

Appendix I I I

...The wisdom of the emperors provided for the restitution of all the civil and religions rights of which the Christians had been so unjustly deprived. It was enacted that the places of worship, and public lands, which had been confiscated, should be restored to the church, without dispute, without delay, and without expense; and this severe injunction was accompanied with a gracious promise, that, of any of the purchasers had paid a fair and adequate price, they should be indemnified from the Imperial treasure. The salutary regulations which guard the future tranquility of the faithful are framed on the principles of enlarged and equal toleration; and such an equality must have been interpreted by a recent sect as an advantages and honourable distinction. The two emperors proclaim to the world that they have granted a free and absolute power to the Chistians, and to all others, of following the religion which each individual thinks proper to prefer, to which he has addicted his mind, and which he may deem the best adapted tobis own use. They carefully explain every ambiguous word, remove every exception, and exact from the governers of the provinces a strict obedience to the true and simple meaning of an edict which was designed to establish and secure, without any limitation, the claims of religious liberty. They condescend to assign two weighty reasons which have induced them to allow this universal taleration : the human intention of sonsulting the peace and happiness of their people; and the pious hope that by such a conduct they shall appease and propitiate the Deity, whose seat is in Heaven. They gratefully acknowledge the many signal proofs which they have received of the divine

Appendix II

If the bishops of the council of Nice had been permitted to follow the unbiassed dictates of their conscience, Arius and his associates could scarcely have flattered themselves with the hopes of obtaining a majority of votes in favour of an hypothesis so directly adverse to the two most popular opinions of the catholic world. The Arians soon perceived the danger of their situation, and prudently assumed those modest virtues whcih, in the fury of civil and religious dissentions, are seldom practised, or even praised, except by the weaker party. They recommended the exercise of Chistian charity and moderation, urged the incomprehensible nature of the controversy, disclaimed the use of any terms or definitions which could not be found in the Scriptures, and offered, by very liberal concessions, to satisfy their adversaries without renoucing the integrity of their own principles. The victorious faction received all their proposals with haughty suspicion, and anxiously sought for some irreconcilable mark of distinction, the rejection of which might involve the Arians in the guilt and consequences of heresey.

Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, Harmondswouth. Pelican Books, 1963, p. 313.

After Constantius death (361), the orthodox Christian majority in the West consolidated its position. The Arian persecution conducted by Emperor Valens (364 — 378) in the East and the success of the teaching of Basil the Great of Caesarea, Gregory of Nyssa, and Gregory of Nazianzus led the Homoiousian majority in the East to realize its fundamental agreement with the Nicene party. When the emperors Gratian (367 - 383) and Theodosius I (379 - 395) took up the defense of orarthodoxy,Arianism collapsed. In 381 the second ecumenical council met at Constantinople Arianism was proscribed, and a statement of faith, the Nicene Creed, was apnoroved.

Although this ended the heresy in the empire, Arianism contined among some of the Germanic tribes to the end of the 7th century. In modern times some Unitarians are virtually Arians in that are unwilling either to reduce Christ to a mere human being or to attribute to him a divine nature identical with that of the Father. The Christology of Jehovabés Witnesses, also, is a from of Arianism; they regard Arius as a forerunner of Charles Taze Russell, the founder of their movement

---

The New Encyclopaedia Brittanica, Vol. I, 1977, PP. 509 - 510.

fact . however, this was only the beginning of a long-protracted dispute.

From 325 to 337, when Constantine died, the Arian leaders, exiled after the Council of Nicaea, tried by intrigue to return to their churcles and sees and to punish their enemies. They were partly successful.

From 337 to 350 Constans, sympathetic to the orthodox Christians, was emperor in the west, and Constantius II, sympathetic to the Arians, was emperor in the East. At a council held at Antioch (341), an affirmation of faith that omitted the hom. cousion clause was issued. Another oouncil was held at Sardica (modern Sofia) in 342. but little achieved by either council.

In 350 Constantius became sole ruler of the empire, and under his leadership the Nisene party (orthodox Christians) wis largely crushed. The extreme Arians then declared that the Son wan "cnlike" (anomoios) the Father. These Anomoeans anceeded in having their views tndorsed at Sirmium in 357, but their extremism stimulated the moderates, who asserted that the Son was "of similar substance" (homoiousios) with the Father. Constantius at first supported these Homoiousians but soon transferred his support to the Homoeans; led by Acacius, who affirmed that the Son was "like" (homoios) the Father Theirviews were approved in 360 at Constantinople, where all previous oreeds were rejected. the term ousia ("substance" or "stuff") was repudiated, and a statement of faith was issued stating that the Son was "like the Father who begot him"

Appendix I

Arianism, a Christian heresy first proposed early in the 4th century by the Alexandria presbyter Arius. It affirmed that Christ is not truly divine but a created being. The fundamentl premise of Arius was the uniqueness of God, who is alone selfexistent and immutable; the Son, who is not selfexistent cannot be God. Because the Godhead is mique, it cannot be shared or communicated so that the Son cannot be God. Because the Godhead is immutable the Son who is mutable, being represented in the Gospels as subject to growth and change, cannot be God. The Son must, therefore, be deemed a creature who has been called into existence out of nothing and has had a begining. Moreover, the Son can have no direct knowledge of the Father since the Son is finite and of a different order of existence.

According to its opponents, especially Athanasius. Arius, teaching reduced the Son to a demigod. reintrodused polytheism (since worship of the Son was not abandoned), and undermined the Christian concept of redemption since only be who was truly God could be deemed to have reconciled man to the Godhead.

The controversy seemed to have been brought to un end by the Council of Nicaea (AD 325). which condemned Arius and his taching and issued a creed to safeguard orthodox Christian belief. This creed states that the Son is homoousion to Patri ("of one substance with the Father"), thus declaring him to be all that the Father is : he is completely divine. In

Appendices

المراجع

المراجع العربيـة :

★ **القـرآن الكريم**

★ **الكتاب المقـدس**

ـ اسماعيل علي سعد، نظرية القوة ، مبحث في علم الاجتماع السياسي دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٨ ٠

ـ اليان ج ويدجرى ، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، الهيئـة العامـة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ٠

ـ بدر الدين أبو غازى ، الفن في عالمنـا ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٣ ٠

ـ عباس محمود العقاد ، اللـه ، دار الهلال ، القاهرة ٠

ـ ــــــــــــ ، عبقرية الصديق ٠

ـ ــــــــــــ ، عبقرية عمـر ٠

ـ طـه حسـين ، الشيخان ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ٠

ـ لطفي عبد الوهاب يحيى ، الديمقراطية الاثينية ، مركـز التوزيع الجامعي الاسكندرية ، ١٩٦٦ ٠

ـ محمد حسـين هيكل ، الفاروق عمر ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ٠

ـ محمد البهى ، الاسلام والواقع الايديولوجى المعاصر ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٠ ٠

— Roberts, G. K.. A Dictionary of Political Analysis, London, Longman, 1971.

— Ruben, B., and Budd, R. W., Human Communication Hand-Book, New Jersey, Hayden Book Co., 1975.

— Schacht, R. Alienation N. Y . Anchor Books 1970.

— Southworth, J. V., The Story of the Wortd, N. Y., Pocket Books, 1954.

— Strouse, J. C., The Mass Media, Peplic Opinion, and Public Policy Analysis, U. S. A., 1975.

— Teheranian, M. and Others, (ed.). Communications Policy for National Development, London, Routledge & Kegan Paul, 1977.

— Varma, V. P. Political Philosophy, India : Agra, 1970.

Wells, H. G. A Short History of the World, Harmondsworth, Pelican Books, 1956.

— Wilson, David. The Communicators and Society, London, Pergamon Press, 1968.

— Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, Harmondsworth, Pelican Books, 1963.

— Hersch, F., Money Interanational, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

— International Encyclopaedia of Social Sciences, Vol 3, 1968.

— Lane, R. E. and Sears, D. O. Public Opinion, New Delhi, Prentice — Hall, 1965.

— Leach, Edmund, Culture and Communication, London, Cambridge Univ. Press, 1976.

— Lippmann, W. Public Opinion, N.Y., Pelican Books, 1946.

— Mc Quail, D., (ed.), Sociology of Mass Communications, Harmondsworth, Penguin Books, 1972.

— Michels, R. Political Parties, A Sociological Study of the Oligarchical Tendencies of Modern Democracy, N. Y., The Free Press, 1962.

— Porter, L. W. and Roberts, K. H., (ed), Communication in Organizations, Harmondsworth, Penguin Book, 1977.

المراجع الانجليزية :

— Athinson, J. Martin Luther and the Birth of Protestantism, Pelican Books, 1968,

— Barnouw, E, Mass Communication, N. Y., Holt, Rinehart and winston, 1956.

— Chatterjee, R. K., Mass Communication, New Delhi, National Book Trust, 1973.

— Connolly, J. E., Public Speaking as Communication, Minnesota, Burgess. Publishing Company, 1974.

— Cronkhite, Gary Communication and Awareness, U. S. A., 1976.

— Dunner J. (ed.), Dictionary of Political Science, London, Vision Press, 1965.

— Etzioni, A. The Active Society, N. Y., 1972.

— Farrar, R. T. and Stevens, J. D., Mass Media and the National Eexperience, U. S. A., Harper & Row, Publishers, 1971.

الفهرست

الموضـــوع | الصفحـة

الفصـل الثـالث

* * *

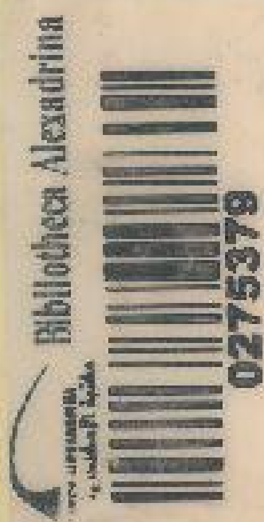
الفصـل الرابـع

* * *

الفصـل الخـامس

* * *

الموضـــوع	الصفحـة


Bibliotheca Alexandrina
0275379